

الوحدة الوطنية في مصر عبر التاريخ

تقديم
المهندس بيّدر مرعي
الأمين الأول للجنة المركزية

هبة عبد الواحد الشاعر
دراسات عليا في العلوم الاجتماعية

عزير فاعى
التاريخ



عالم الكتب

الوحدة الوطنية في مصر عبر التاريخ

بقتديم

المهندس **بشير مرعي**
الأمين الأول للجنة المركزية

تأليف

حسين عبد الواحد الشاعر
دراسات عليا في العلوم الاجتماعية

الدكتور عبد العزيز فاعى
مكتوبه في التاريخ

الناشر



٣٨ عبد الخالق شروت - القاهرة

تقديم

السيد المهندس سيد مرعي
الأمين الأول للجنة المركزية

يقصد بالوحدة الوطنية ، تجمع كل المواطنين تحت راية واحدة ، من أجل تحقيق هدف سام يعلو فوق أى خلاف أو تحزب ، في ظل ولاء أسمى ، يدين به كل فرد من أفراد المجتمع ، بحكم انتمائه للوطن ، انتماء يجب أن ياتى طامئى أو مذهبي أو إقليمي ضيق .

ومن الملاحظ البارزة في تاريخ مصر المجيد ، أنها دولة قامت — عبر القرون الوسطى — على أساس وحدة وطنية راسخة تعمقت في وجدان الشعب كله ، فاستطاعت أن تحافظ على الوجود المصرى قوياً لا يزعزع ، ثابتاً لا يتغير أو يتبدل ، وكانت مصر — بذلك — أول مجتمع إنسانى منظم يكتمل وعيه بضرورة التجمع والارتباط بعروة وثقى ، تستطيع أن تفجر الطاقات الخلاقة في الشعب ، وتقضى على عوامل الفرقة والتناحر .

ومن صفاتنا التي لا ينكرها علينا الأعداء ، أننا مجتمع يقوم على التسامح وعدم التعصب ، والقدرة على التعايش معاً ، دون أى اعتبار لاختلاف مذهبي أو عقائدى ، ومن هنا كان استمرار الوجود المصرى ، بصرف النظر عن تعاقب الأديان والمذاهب التي تدين بها الأغلبية ، ولو لم يكن مجتمعنا قائماً على السماحة والبعد عن الحقد والكراهية لنفكك وأصبح فرقة شتى .

وكذلك فإن المجتمع المصرى كان في طبيعة المجتمعات التي استطاعت أن تتخلص من الالتئام القبلى ، وتمكنت من صهر جميع العناصر في بوتقة كبيرة واحدة ، يكون نتاجها متميزاً بصلابة الجوهر أكثر من نقاء العنصر ، فليس منا — إذن — من دعا إلى عصبية .

وإذا كان التاريخ خير معلم ، فإن من أهم الدروس التي نتلقاها عنه ، أن الوحدة الوطنية ، إذا كانت ضرورية في كل وقت لحماية تقدم المجتمع وتماسكه ، فإنها تصبح فريضة مقدسة في وقت المحن والشدائد لحماية المجتمع وبقائه ، ورد العدوان

عنه ، ونحن نعى هذا الدرس إذا استعرضنا تاريخنا القديم والوسيط والحديث على السواء ، ولعل أقرب الأحداث إلى أذهاننا هي ثورة ١٩١٩ ، حين قامت جموع الشعب الواعية كلها ضد محتل كانت إحدى مزارعه أنه يتشبث بتراب مصر لحماية الأقليات ، من طغيان الاغلبية ، فكان رد أبناء مصر دلى هذه الدعوى الباطلة ، أن اعتمدوا بحبل الله جميعاً ولم يفرقوا ، ووقفوا في وجه المستعمر صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، وحرمة واحدة لا تقهر ، وكذلك فقد كانت الوحدة الوطنية من ملاح ثورتنا المجيدة في ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ حين رفعت شعار : الدين لله والوطن للجميع . .

ولعل الظروف التي تعيشها هذه الايام ، بين المؤامرات التي تحاك ضدنا في الخارج ، والتحديات التي تواجهنا في الداخل لإقامة مجتمع عصري قادر على الانخذ بأسباب العلم الحديث دون التخلي عن روحه المتميزة ورصيده الحضارى الكبير، تجعل الوحدة الوطنية ضرورة حتمية هي والجهاد سواء ، وقد كان هذا هو المعنى الكبير وراء قول قائدنا الرئيس محمد أنور السادات، إنه بالوحدة الوطنية الآن وأكثر من أى وقت مضى — تصبح الجبهة الداخلية هي دعامة التحرير الرئيسية ، لأن الوطنية المصرية سوف تكون هي أداة التحرير الرئيسية .

ويسرنى هنا أن أقدم للقراء كتاباً عاجل هذا الموضوع الهام علاجاً وافيّاً سد نقصاً في مكتبتنا ، وأتاح لأجيالنا الجديدة التي لم تعاصر التجارب الماضية أن تتعرف على صفحات ناصعة في تاريخها الوطنى الحافل ، وأن تأخذ العبرة من أسلافها الأولين ، كما تستمد إلهامها من رؤى الحالمين لمصر بمستقبل مشرق سعيدة

سليم مرعى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الوطن والقومية من النزعات الاجتماعية وكل منهما مثل سائر النزعات يولد بعض العواطف ويؤدي إلى بعض الانفعالات بما يغير من السلوك الإنساني . والإنسان يحب أمته تحت تأثير النزعة القومية ، ويشعر نحوها بارتباط شديد ، ويعتبر نفسه جزءاً منها فيفرح لكل ما يمجدها ، ويتألم لكل ما ينال منها ، فتراه يصبو إلى رؤيتها قوية ويفخر بأمجادها ، ويحب الإنسان وطنه تحت تأثير النزعة الوطنية فيشعر نحوه بتعلق فلي عميق فيفرح لسعادته ويتوجع عند نكبته .

ولذا بحثنا عن نشأة هاتين النزعتين نستطيع أن نرجعهما إلى حب المواطن والأهل ، فتنبع الوطنية وبذرتها الأولى حب الوطن وأما منبع القومية وبذرتها الأولى حب الأهل .

إن حب الوطن يشبه حب المواطن وحب الأمة يعاقل حب الأهل وبهذا نستطيع القول بأن حب الوطن إنما يتولد من توسع دائرة حب المواطن كما أن حب الأمة إنما يتولد من توسع نطاق حب الأهل . فالإنسان ينظر إلى موطنه كجزء من الوطن كما ينظر إلى أهله كنوع من المواطنين ويحب وطنه ومواطنيه . وتتشأ الروابط الوطنية من طول الإلتواء إلى الوطن من عوامل عاطفية قوامها عاطفة الحب : عوامل تنكريمية ومعنوية ، لاعادية أو حسنية . أما القومية فتتشأ من العوامل التي تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وهي كثيرة منها وحدة الاعتقاد ووحدة الأصل والإشتراك في اللغة والتاريخ والتماثل في ذكريات الماضي وغير ذلك .

وبهذا تكون الوطنية هي حب الوطن والقومية حب الأمة ويختلف الإثنان ولكن ليس كل الاختلاف، فالمفهوم لا يختلفان تماماً ، لحب الوطن يتضمن حب المواطن وحب الأمة يتضمن حب الأرض والوطن ومع ذلك لا تنطبق القومية على الوطنية تماماً .

وتنطبق الوطنية على القومية بشروط منها أن يكون الوطن بمجموع الأراضى التى تعيش عليها الأمة ، وتدير سياستها الدولة كالتطابق الوطنية العربية على القومية العربية .

والوطنية هنا تماثل القومية تماماً ولا تخالفها إلا إذا ألفت الأمة دولا عديدة فيصبح لكل دولة وطنية خاصة .

والوطنية عاطفة تماسك بين أفراد الوطن من أجل مصالحهم تمثل روح وحدتها، والوحدة الوطنية إذن تماسك بين أفراد الوطن قوامه الحب والإعجاب والتقدير والشعور بالمسؤولية نحوه وتغليب مصلحة المجموع على مصلحة الأفراد والطوائف .

ولقد سلك تاريخ مصر روح وطنى نشأ عميقاً عريقاً بنشأة مصر أول أمة قامت فى التاريخ وأخذ ينتقل إلى عصور التاريخ فيما بعد ومالبت فى العصر الحديث أن سما فى معناه وأهدافه وتزود بمعان جديدة ، وتجلى الروح الوطنى عبر العصور ، فكان وحدة وطنية فى النضال ضد الإستعمار من أجل القضاء على المظلمين وقادت مصر معارك كثيرة كانت فيها الوحدة الوطنية هي القوة التى ينبع منها النجاح ويتحقق بها الإنتصار .

وفى عصرنا الحاضر ، تتجلى الوحدة الوطنية فى الصمود ضد قوى والعدان الصهيونى تستقى مبادئها من سالف تاريخنا المجيد ومن قيم حاضرننا المسكافح المناضل ، وليس من غير الوحدة الوطنية تكون القوة القومية والنصر .

فى هذا الكتاب ، محاولة لدراسة الوحدة الوطنية عبر عصور التاريخ

المصري ، هي دروس في الوطنية والوحدة كما يجب أن تكون عليه مع بيان دور
الوحدة الوطنية الكبير في صعود الشعب المصري وانتصاره ضد العدوان في
الداخل والخارج ، آملين بهذا القدر المحدود من هذا الكتاب إذ كاه الوعي
الوطني في معركتنا ضد الإمبريالية والصهيونية .

والله ولي التوفيق

حداائق القبة في أول ديسمبر ١٩٧٢

المؤلفان

الباب الأول

الوحدة الوطنية في مقاومة الغزاة

لنظم تاريخ مضى القديم والوسيط والحديث سلسلة من المعارك في الداخل والخارج في محاربة الإستعمار والطغيان وكان الانتصار فيها من تبع الوحدة الوطنية ، التي توزعت معانيها بين شتى المعارك فميزت كل عن الأخرى بنوع من معاني الصمود كانت آياته التجمع والقباسك والشعور بالمسؤولية والصبر والتدبير من أجل مواجهة الأحداث ، في ولاء للأسرة الكبرى ، مصر الصامدة . المجاهدة المتأسكة الموحدة .

إن انتصارنا في هذه المعارك كان بفضل الوحدة الوطنية التي كانت هي روح المقاومة ، ومن الوحدة الوطنية نستلهم الأمل في الحاضر والمستقبل .

الفصل الأول

الوحدة الوطنية

في مقاومة الهكسوس

ومن التفكك والقوضى توحدت مصر أمام عدوان الغزاة ، وتماسكت وتجلت في وحدة وطنية كان من ثمارها الإتيصار الكبير . وكانت الوحدة سمعة من سمات الطابع الوطني المصري منذ أن نشأت الأمة المصرية : عبرت عنه في مختلف صورها القديمة ، وظلت بعد ذلك إحدى سمات ذلك الطابع القومي الأصيل : ففي العصر القديم وباتهاء عهد الدولة الوسطى حوالي ١٧٨٥ ق. م دخلت مصر في عصر من عصور الضعف والقوضى والذل . في العصر الوسيط الثاني . ولعل أشد الأيام اضطراباً كانت هي الفترة التي تلت سقوط الأسرة الثانية عشرة حين كثر تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش إلى العرش كما اشتد النضال بين حكام الممالك وبينهم وبين المصريين من جهة أخرى فتعددت المؤامرات واندلعت الثورات وتتابعت الحروب الأهلية وظلت الفوضى سائدة أيام الأسرتين الثالثة عشرة وقدر عدد ملوكها بستين والسابعة عشرة وقدر عدد ملوكها بستة وسبعين فكان طبيعياً بهذا التفكك أن تسقط مصر فريسة في عام ١٧٢٥ ق . م في يد عدو متربص لها إذ غزاها المغيرون من القبائل الرعوية التي أطلق عليها ماتون « هكسوس » (١) ، وقد اجتاحت مصر من الشرق . ونظراً لمهارتهم الحربية وأسلحتهم الحديثة وتفكك المصريين انتصروا على مصر فخصمت الدلتا للفرجين فاتخذ هؤلاء صالحهم في شرقها عاصمة لهم كما توغلوا في مصر الوسطى بينما سيطر النوبيون على الجزء الجنوبي للبلاد ، ولم يبق من مصر المستقلة غير رقعة بسيطة يحكمها أمراء طيبة في الصعيد وقد ظل

(١) هكسوس - الحضارة المصرية .

حكم الهكسوس قائماً طوال أيام الاسرتين ١٥، ١٦ وجانباً من حكم الأسرة ١٧ فيما تجاوز قرناً ونصف قرن .

وسيطر الغزاة على مصر وإذا كان المصريون قد قبلوا ذلك لتفككهم حتى ينبعث ما يوحد حكمهم فقد كان ذلك على مضض وكان طبيعياً أن يكون الادعى للقوة هو المساس بمقدساتهم وموروثاتهم . وما يمت بسبب الأسرة . ذلك الأمر الذى يحرص عليه المصرى طوال تاريخ حياته وكانت القارعة على يد الهكسوس . وأساءوا معاملة المصريين وأهانوا معابدهم كما بدوا في معيشتهم منزلين محتفظين بتقاليدهم وعاداتهم الخاصة وإن حاولوا مراعاة شعور المصريين ليتمكنوا بهذا من الحكم عندما أخذوا يتمصرون مقلدين ملوك مصر في ألقابهم وأزيائهم ولقبتهم .

وظلت الشخصية المصرية متماسكة حية في طابعها القومى فلم يثن ذلك المصرى عن عزمه في فرض شخصيته على المستعمر والعمل على القضاء عليه ، ويحس بحرج عميق في وجدانه من وجوده مسيطراً على البلاد .

أخذت الروح الوطنية تثبت على قدميها مع انحدار قوة الهكسوس وأخذ أمراء طيبة يكالحن لضم شمل الشعب وتوحيده ومواجهة الغزاة فنجحوا وكانت الوحدة الوطنية مبعث فخر مشرق .

وبدأت الحرب بتحد من ملك الهكسوس أبوفيس لأمير طيبة استناره لإعلان الحرب ضده ، وقد جاءت وقائع تلك الفرصة في قصة كتبت في عهد الملك مرنبتاح أحد ملوك الأسرة ١٩ وقد اضطر أمير طيبة للخروج على رأس جيش لملاقاة الهكسوس فسقط فيها سقنتوع شهيداً في سبيل مصر وكان استشهاد دعوة لضم شمل الوطن في مواجهة الغزاة خلفه في جهاده كاموسا وقد سجلت قصة كفاحه على لوحة ترجع إلى السنة الثالثة من حكمه عثر على أجزاء منها في أرمنة متباغدة .

وكانت أم كاموسا (أياح حتب) تشجعه بروح نضاليه وثابة وحاول الهكسوس تأليب حكام النوبة على كاموسا فلم ينجحوا وانتمروا عليهم فلما وافته المنية خلفه

البطل أحمد . فاندفع ذلك شمالا والشعب يتدفق وراءه في حماسة ويتجمع في وحدة .
وطنية يطارد الهكسوس حتى وحل عاصمتهم أو إريس فسقطت في يده وعندئذ فر
الهكسوس إلى فلسطين فتبعهم أحمد بعد أن وحد الشعب وطاردهم حتى شنت
شملهم في موقعة شاروهين ثم قتل البطل راجعاً إلى طيبة عاصمة الثورة الوطنية
ومبعث أنوار الوحدة الوطنية مسجلاً بفضل تلك الوحدة فصل الختام من ذلك .
العهد البغيض المشؤم ، عهد الإنحلال والتحكم الأجنبي في مصر العريقة .

وتأسست على يد أحمد الأسرة ١٨ ووضع حجر الأساس في بناء مجد مصر
الحربي ومهد الدولة الحديثة وبه بدأت الإمبراطورية المصرية الكبرى .

الفصل الثاني التمارك والصمود

في مقاومة الرومان والبطالة

وقف المصريون في العصر الفرعوني القديم من التبعة السياسية موقفاً ينبع من طابعهم الوطني وبدأوا بمقاومتها ، وكثيراً ما كانوا يؤثرون في مقاومتهم الإلحاح داخلاً الذات ولكن دون تسليم ، فلما تهادى الإستعمار وأوغل في المساس بما كان يحسنه المصري إحساساً مباشراً كالمقائد والأرزاق والعلاقات الأسرية قاومه المصريون بشدة ؛ فقاوموا الآشوريين والفرس والبطالة والرومان جميعاً في معارك متوالية ضارية جاءت تعبيراً عن الكثير من سمات الطابع القومي للشخصية المصرية أثبتت استمراره وإيجابيته

مقاومة المصريين الآشوريين : (١)

حدث في عام ٧٢٢ ق . م أن جلس على العرش الآشوري الملك سرحون الثاني وكان من أعظم المحاربين قسوة وشدة وقد سبقته شهرته إلى مصر عندما أخذ يغزو المناطق الشمالية بين سوريا ولبنان فسارع أمراء مصر وأمراء سورية بمساعدة حربية ليتمكنوا من صد العدو بعيداً عن الحدود المصرية ، ولكنه استطاع الزحف حتى حدود مصر الشمالية وهناك قابلته الفرق المصرية متجدة مع بعض الولايات الفلسطينية حتى اضطر أن يرجع عن دخول مصر وكان من ثمار ذلك أن أقامت مصر مع ولايات سورية وفلسطين حلفاً قوياً يربط بينهم ويدبر شئونهم أمام أى غزو جديد .

وما كاد أنر هذا التحالف يصل إلى الملك الآشوري الجديد سناحريب حتى سارع إلى منطقة الخطر بجيش كبير لحاصري بيت المقدس حصاراً طويلاً ولم يترك الملك الآشوري الحصار إلا بعد أن تفشى المرض بين جيوشه ولم يكده الملك

(١) دكتور عبد العزيز رفاعي : الطابع القومي للشخصية المصرية ص ٨٣ وما بعدها .

يعود إلى بلاده حتى قتله أولاده وخلفه أخوه أسر أخى وأخذ بعد العدة للانتقام من مصر .

سمع المصريون بهذا القصد فاستعدوا لمواجهته والتفوا وجهاً لوجه مع العدو في أراضي الدلتا الشرقية فانتصر المصريون على جحافل الآشوريين رغم تفوقهم في العدد على المصريين ، وقد أراد الملك الآشورى أن يستعيد هيئته بمعاودة الكرة على مصر ، وأطمأنت مصر بهذا النصر ، ولكن حدث أن ظهر لجأة آشور أخى الدين للمرة الثانية في سورية وعاقب (بعل) على انضمامه إلى مصر ذاتها من طريق صحراوى قصير دله عليه البدو فوصل بجيشه في وقت لم يكن فيه ملك مصر طهراقة قد أتم استعدادده لملاقاة العدو فاضطر إلى الانسحاب بسرعة وما كاد ذلك يلهجىء إلى حصن منف المنيع حتى تنبه العدو ولحق به قبل أن يتحصن ، فأسرع طهراقة إلى مصر الوسطى تاركا الدلتا بخيراتها للمستمر الجديد ووقعت مصر للمرة الثالثة في تاريخها الطويل لإستعباد أمة أجنبية .

لم يعترف الآشوريون بأى مظهر من مظاهر الحضارة القائمة في مصر ولم يحترموا عادات المصريين أو دياناتهم وحاولوا أن يعطشوا بهم ويطأوا بأقدامهم كل المثل العليا .

ومن تبع الطابع الوطنى الحريص على مقدساته ، أخذت كلمة الناس تتحد فينسبون أحقادهم واتصلوا بطهراقة في قصره في طيبة طالبين منه أن يزحف شمالا فأسرع بذلك وما لبثت الدلتا أن اجتمعت حوله وتمكن من طرد الحامية الآشورية ، ولكن ما لبث الملك الجديد الآشورى الذى خلف آشور أخى الدين وهو آشور بنى بعل أن أرسل جيشاً قوياً رد به الدلتا إلى الحكم الآشورى بل وأسرع إلى مصر العليا ودخل طيبة دخول الفاتح المنتصر ، واضطر طهراقة إلى الرجوع إلى عاصمته الجنوبية في نابتا ، وما كاد الحكم الآشورى يستقر في مصر حتى بدأت حركات التحرر السرية تفتش ورفع المصريون راية العصيان برعاية أمير مصرى اسمه نحاو ولكن قبض العدو عليه وهدأت الحال قليلا في الدلتا بينما كان الصيد يملئ كالمرجل ولم يكن ينقصه سوى زعيم يقوده

ولم يلبث حتى وجده في شاب متحمس خلف طهراقة بعد أن مات وهو ثانوت آمون لجمع بعض الجند السودان وسار إلى طيبة حيث قوبل بالتهليل والفرح في كل مكان ، وفي منف قابل السدو ، بفضل عزمته وقوة إيمانه ومن معه انتصر المصريون ودخلوا منف. ولكن تحرك العدو بفرق كبيرة من سورية وطوقت ثانوت آمون حتى ونف ففر هارباً إلى طيبة ثم أسرع الخطى إلى نابتا وبخروجه من مصر انتهى عصر حكم الأسرة الخامسة والعشرين النوبية لم يكده الحكم يستقر الآشوريين حتى ظهر إيسماتيك من أسرة معروفة بالجهاد والوطنية فأخذ على عاتقه تحرير مصر وتمكن من القضاء على العدو . ولقد تمكن من إعداد جيش قوى من الدلتا ومن الصعيد فطرد الآشوريين من مصر ولما انتهى عهدهم نودى به ملكاً على مصر .

مقاومة المصريين للفرس :

وما كانت مصر تتخلص من الحكم الآشوري حتى واجهت الغزو الفارسي إذ ذاك بدأت معه صفحة جديدة من النضال الوطني . كانت دولة الفرس هي الوريثة الشرعية لإمبراطورية آشور في أواخر القرن السابع ق . م أخذ أباطرة الفرس يرنون ببصرهم لاحتلال مصر الغنية وقد حقق ذلك الخلم قبيز بن قرش عام ٥٢٥ ق . م وفي وقت كانت مصر تودع ملكها الهمام أمازيس ، وتتجه ببصرها نحو ملكها الجديد إيسماتيك الثالث وفي وقت كانت مصر في أشد الحاجة إلى رجل قوى يقودها ليرد عنها ذلك الخطر الذي أخذ إذ ذاك يدق بشدة أبواب مصر من ناحية الشرق .

كان قبيز يحمل أمور مصر وكان يهابها ويخشى الصحراء ومسالكها حتى كاد يرجع عن هدفه لولا أن ساقته إليه الظروف أحد الحكام من الإغريق وهو فانيس . فوضع خدماته تحت تصرف قبيز فبصره بالمخاطرة وأرشدته إلى الالتجاء إلى البدو الرحل ليهده سبيل السيل وتقدم جيش الفرس وفوجيء إيسماتيك بهول الموقف .

تقدم قبيز للملاقة المصريين ، ورأى المصريون ويلتهم فانيس يشارك عدوهم

فأتوا بولديه وذبحوهما أمام عينه ، وقد استمرت المعركة من الفجر حتى الغروب .
انتهصر فيها الفرس والسحب جيش مصر نحو الجنوب ، ولكن جاءته الأنباء
أن المصريين كانوا مصممين على الدفاع في استماتة فأمر قبيل بجيز ببنينة بجعل
عليها مناديا . ورفع فوق ساريتها شارة الهدنة وأمر أن تتجه نحو منف وهي تحمل
أحد رجاله يطلب من المصريين التسليم دون قيد أو شرط ، وثمة وثيقة ترجع
إلى العصر القبطي تتحدث بالذات عن ذلك الحادث ، وإننا نعتبر هذه الوثيقة
بحق دليلا على ما تركته حملة الفرس من ذكريات مؤلمة تثبت في أذهان
المصريين ويتناقلها الأجيال عن الأباء ، وقد نشرها الدكتور مراد كامل على أنها
قصة من الأدب القبطي .

تبدأ القصيدة برسالة يكتبها قبيل إلى الشعب المصري وطلب إلى رسوله
السالف الذكر أن يذيعها على الناس :

أنا قبيل لم أكتب إليكم لإرغامكم فانا أود زيارتكم لأخرج عليكم إذا أردتم
الحضور إلى .. بل تعالوا إلى أنا الذى سيمنحكم مجددا أكثر مما تتمتعون به الآن ،
وربما حدثتكم أنفسكم بعدم الخضوع لى وحيثنذ نكون قد وضعتم أنفسكم
فى هؤلاء الناس السائرين إلى الدمار ، أولئك هم ملوك مصر وعشائرم المتنقلة .
وما دامت لى القوة فلن يستطيع أحد أن تتقدم من غضبى ، أنظروا أنا قبيل
أكتب إليكم هذا وأذيعه عليكم فإذا استمعتم إليه كان هذا خيرا لكم ولا فكونوا
مستعدين للملاقاة جم غضبى الذى سينصب على رؤوسكم . لأننى سيد الأرض كلها .
وقد زادت هذه الرسالة من حماس المصريين وتماسك وحدتهم الوطنية
فاستقر رأيهم على رفض طلب التسليم وكادوا يقتلون رسول قبيل لولا أنهم آثروا
أن يسمحوا له بالعودة إلى سيده على أن يعيشوا هم أيضا برسالة تهديد للملك
الفارسمى هذا نصها : يكتب هذا جميع المصريين إلى أولئك الذين يقطنون أقاليم
الغرب والذين يعيشون فى الهند . تكتب إليك أيها الجبان العديد قبيل الذى
أسببه فى لغتنا سائوت وتفسيره الجبان . ألا فانظر لقد تركنا رسولك يذهب
بسلام لا خوفا منك ولكن إفتخارا وتعظيما لسيدنا فرعون الذى يحكمنا بمجد
عظيم . لقد تركنا الرسول وشأته ولم نذبحه ولكن إذا أترتم سخطنا فسوف

تعلون ما نحن فاعلون فبحق قوة فرعون وبجد مصر والإله جاني وبطش
صناديدنا واحتشاد جيشنا في القتال ومادام الإله جاني في منف والإله آمون
في نفباس .

ومادام ملوكنا يعيشون بكل في ملكته

ومادامت الأنهار تفيض بمياهها .

ومادامت قوتنا موطدة الدعائم .

ومادام كل ذلك قائماً - فسوف تعلم أيها العبد ماسيحل بك ماذا أنت فاعل
حيال ذلك .

سنوردك موارد التهلكة وسنلقي بأتباعك الظالمين خارجاً وسنحرق آلتهك
المرافقين لك . أما أنت فلن نضيق الوقت في طهو قطع من لحمك بل سنمزقه
بأسناننا كما تفعل الديبة والسباع الضارية ، والان أيها النحس تدبر أمرك وفكر
ملياً فيما أنت مقدم عليه قبل أن ينصب عليك غضب مصر .

فن من الملوك لا بين الاشوريين لحسب بل بين ملوك العالم كله استكبر على
مصر . . . هل تطمع أنت في التغلب عليها أيها المخلوق الدنيء هل اتعظت بالملوك
الحاليين والحديثين وأولئك الذين يقطنون الأقاليم القريبة ؟ أليسوا جميعاً على
جانب عظيم من القوة والحياة فلماذا لم ينجوا ببلادهم من قبضة مصر عند
ماتناظموا بل قبحوا لكي لا يصيروا عبيداً لنا .

يا للعجب أن تهجم أنت مصر فسيحقق بك العار على يد جحافل مصر . من
هو إلهك الذي يرافقك والذي سينجيك بقوته وعليه تعتمد حتى تجترى على
الحضور إلينا هنا ؟ أولئك تعتمد على الأمورين . . . الذين ترتد فرائصهم
أولئك الذين لم ينعموا بالسعادة قط بل كتب عليهم أن يظاوا دائماً أرقاء . . .
ولما عاد الرسول وسلم سيده رسالة المصريين استمع إلى نصيحة . مستشاريه
بالإيهاجم المصريين وأن يصل إلى مبتغاه في الحكم بالملائنة عن طريق اجترابهم
آلهتهم . ولم يتخذ المصريين وحشدوا الجيوش وديخل قبيز بقواته إلى منف
وفتحها ، ورغم هذا لم يصف الشعب واستمر يقاوم المعتدى في ثورات متتالية

بدأت أول ثورة ٤٨٦ ق. م فقد اشتبك المصريون مع قوات الاحتلال المنبثة بين أرجاء الوادي فأفندوها عن آخرها ولما جهز الملك أجزر كسيس بعد ذلك وهو بن دارا جيشاً قوياً وأسطولاً للحرب وزحف إلى مصر هبت المصريون أمامه ، وفشلت هذه القوة الأجنبية في احتلال أراضيهم إلا على أشلائهم وكانت أساليبهم الاستعمارية حافزاً للمصريين على استرداد استقلالهم المسلوب .

وانتهز المصريون فرصة تراجع القوات الفارسية مدحورة أمام قوات الإغريق أثناء الحروب الميدية فبدأوا يستعدون لإشغال نيران ثورتهم التحريرية الثانية . فلما عثروا على الزعيم المنشود في شخص الأمير إيناروس الذي أعلن الثورة على الحكم الفارسي فتعاون هو وزعيم ثائر آخر يدعى أمير تاورس وقب الشعب المصري بجميع فئاته صفاً واحداً خلف زعيمه وجمع الملك الفارسي أرتاجزر كسيس جيشاً كبيراً أوفده إلى مصر والتحم الجيشان في معركة كبيرة عند مدينة بلوزيوم على حدود مصر الشرقية وأنزل أبناء النيل بجيوش د الملك العظيم ، - وهو لقب الملك الفارسي - هزيمة منكرة تمخضت عن مصرع الفاليرية العظمى من قواته وغيباً حاول الفرس قتال المصريين مرة أخرى إذ خاض المصريون المعركة أبطالاً ولم تستطع قوة الفرس أن تدخل بلادهم إلا بعد أن تكبدت أفدح الخسائر .

وبدأ الحكم الفارسي يغير أسلوب سياسته في عهد دارا الثاني باجذاب قلوب المصريين وحسن معاملته الأهالي واحترام آلهتهم . وقد تودد إلى الكهنة على هذا يظهر بفترة من الهدوء ، غير أن روح الكفاح لم تهدأ ، وقامت مصر بثورتها للثالثة بقيادة د أمير تاورس الثاني ، الذي هاجم حاميات الملك الفارسي المنتشرة في مصر ففضى عليها ونادى بنفسه ملكاً على مصر المستقلة مؤسساً الأسرة الثامنة والعشرين الفرعونية ٤٠٤ ق. م ، وبعد الملك الفارسي بحشوده الهائلة إلى وادي النيل ليقتض على ثورة المصريين ، ولكن مصر ألحقت بجيوشه هزيمة منكرة فتمتعت البلاد باستقلالها نحو ٧٠ عاماً توارث العرش خلالها ملوك الأسرات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ . وعيناً حاول الفرس العودة إلى مصر إذ ظلل المصريون يناوئون .

المستعمر حتى تغيرت الأوضاع في العالم القديم كله أثر قيام الاسكندر الأكبر بغزو الشرق .

ولقد قاوم المصريون البطالة كما قاوموا من قبلهم الرومان ولكن كان عهد البطالة والرومان أطول عهود التبعية السياسية لذلك كان تأثيره عميقاً على الطابع القومي .

ومن خلال ذلك الطابع لم تهدأ نفوس المصريين منذ مجيء البطالة فاجأوا في البداية إلى المقاومة السلبية يتهربون من زراعة ما يكفون به ويشوقون عن العمل في المصانع والمناجم فيشيع الإضراب في الحياة الاقتصادية حتى تهادى البطالة في أخطائهم فلما تهيأت الفرصة للقيام بثورات أشعل المصريون نيرانها حامية ضد أعدائهم يرغونهم على تغيير سياستهم بما أضعف دولتهم ودفعها إلى الانهيار .

أخذت المقاومة تظهر بوضوح في عهد بطليموس فلاذيفوس منذ أن أخذ ينفذ الأساليب التعسفية التي شرعها أبوه واكتسبها الحكم البطلمي طابعه البغيض أخذ الفلاحون يثيرون القلاقل التي تقيض بها الوثائق البردية تعبيراً عن الضيق والالام فترددت أصدائها بين الصناع والعمال والتجار المصريين فواجهها المستعمر بشدة فلم يكف المصريون عن مواصلة السكفاح ، ثم توافر جيش للثورة قوامه الزراع والصناع والعمال وكان الكهنة المصريون الذين سلبوا مصدر ثرائهم باستيلاء العدو على دخل أراضي المعابد مستعدين لقيادة الثوار ومالبثت الحركات السلبية أن تحولت بعد فلاذيفوس إلى ثورات علنية شعبية .

بدأ المصريون ثورتهم الأولى في عهد ثاوس البطالة وقد اشتعلت في وادي النيل ثورة شعبية مسلحة استغل فيها المصريون فرصة غياب الجيش البطلمي خارج البلاد ولكنها أخمدت بشدة ، ولكن لم يستسلم المصريون إذ مضوا في مقاومتهم السلبية بالقيام بثورة أخرى أوائل عهد الملك بطليموس الرابع فقد حدث أن تقدمت قوات معادية للحكم البطلمي حتى بلغت مشارف رفح فاضطر بطليموس إلى إدماج المصريين في قواته فلما تقدم بهم مشتبكاً مع قوات خصمه وأوقفه المصريون في ساحة رفح مدافعين عن مصر ناسين ظلم البطالة في سبيلها حتى ألقوا

أوضحهم من الإحتلال ، وتعتبر معركة رفع خدأ فاصلا في تاريخ البطالة سبقتها عهد المنعة والعزة وتلاها عهد التدهور والانهلال ، وكان نصر رفع بداية النهاية لدولة البطالة . . .

وما أن عاد المصريون من ميدان القتال مزهوين حتى بدأوا يحشون كعادتهم عن الزعيم لقيادة ثورتهم الثانية فما أن عثروا عليه حتى أشعلوها على الفور في الدلتا ومصر الوسطى ، حتى امتدت إلى مصر العليا عام ٢٧ - ٢٦ ق. م وكانت موجرات عنيفة جارفة ، فتحدثنا الوثائق البردية بأن المصريين البائسين لم يكتفوا بتحطيم ممتلكات الأجانب إنما اجتدوا أيضا على منازل بعض الوطنيين ويرجح أن يكون هؤلاء من النوع الآثم في حق الوطن .

قاوم بطليموس الرابع هذه الثورة بكل قواته العسكرية حتى أخمدها ولكن بدأت تيران الثورة تفتعل في الاسكندرية نفسها ولم يلبث لها أن امتد إلى أنحاء الدلتا حيث كان الفلاحون والصناع المصريون يضيئون بضروب التعسف والإضطهاد ، أما في الصعيد فقد بقي لإقليم طيبة مستقبلا عن البطالة يحكمه ملك نوبى يدعى «عنخاخيس» ، وبين هذه المحنة في الظروف العصيبة نزلت بالبطالة ضربة قاسية من الخارج مهدت السبل لتغيير سياستهم في الداخل وتهيئة الفرص لاستمرار الثورة وقد انتهز الملك السلوقي «انتوخرمى» الثالثة فرصة الفوضى التي عمت أرجاء الوادى وهزم البطالة في معركة فاصلة انتزع منهم سورية وآسيا الصغرى وتراقيا كما أصاب تجارتهم في سورية وبحر ايجة .

أخذ بطليموس الخامس يستميل الثوان والجنود المضربين تخفيض من الالتزامات المالية وأغدق على المعابد والأهالي كثيرا من المنح ، ورغم ذلك فقد استمر المصريون في ثورتهم العارمة ، فدازت رنجى معركة حامية بين القوات الملكية وقوات الثوان في مدينة أرييدوس انتصر فيها المصريون وكان لهذا النجاح الذى أحرزته أبناء الطنيد صدى بين أبناء الدلتا فاندلعت فيها تيران الثورة سيما في مدينة لكهنيس كبدت العدو أفدخ الخسائر .

لذا ذلك لجأ بطليموس الخامس إلى أساليب اللين مرة أخرى ولكن المقاومة . . .

للسلبية زادت عنفاً فزاد عسدد الفلاحين والعمال الفارين وتدهورت الحالة الاقتصادية مرة أخرى .

ثورة رابعة :

كان للثورات المتتالية تأثيرها ، كما كان لموقف العدو تأثيره في الاضرار بالنواحي الاقتصادية ، وزاد من آلام الشعب أن ما كان يرهقه بالنظام المالي كان يعتصر دمائه لمصلحة الحاكمين ومن هذا وذاك نبتت روح الثورة أشد وأخف ولم يكن ينقص المصريين كما دعتهم سوى الزعيم وسرعان ما وجد في شخص وجل كان يشغل في القصر منصباً ممتازاً ، كان خبيراً بنفسية الجماهير هو ديونيسيوس بنوسرايس ، فلقياً إلى وسيلة تضمن نجاح الثورة . . كان ثمة شقيقان محتصمان حول حكم البلاد هما بطليموس السادس د فيلومتر ، و بطليموس السابع وقد أخذت مصر تشهد مآسى الحكم بين فيلومتر وأخيه الصغير بطليموس السابع .

كان الزعيم المصرى يدرك أن شعب العاصمة يفضل الملك الأصغر على أخيه الأكبر وكان هو الذى نادى ببطليموس الصغير ملكاً فأذاع زعيم الثورة أن الأخ الأكبر غير راض عن مشاركة أخيه له فى الحكم وأنه يدبر الأمر للتخلص منه والافراد بالعرش ، وثار ثائرة الناس وحقق الزعيم بهذا هدفه الأول ، وتجمهر شعب الاسكندرية فى ميدان السباق وقرروا الهجوم على القصر وقتلوا فيلومتوس .

ما كادت آمال الزعيم المصرى تلتئم حتى انهارت لحاة لقد كان فى واقع الامر مدبر أمر التخلص من الملك. الأكبر أولاً ليفرغ بعد ذلك للملك الصغير فلم يستطع أن يتخلص منه هو الاخر. ولكن لم يياس ديونيسيوس ، فأخذ الثوار يلتفون حوله وبدأ ينظم صفوفهم ودارت معركة بين الطرفين السحب منها ديونيسيوس منتقلاً إلى الصعيد حيث أشعل بين أبناء ثورة جامعة وقد لقيت قوات البطالة إلى يد قوات الثوار التى تحصنت فى مدينة د أخيم ، مقاومة شديدة وقد انتهى الصراع باستشهاد عدد كبير من المصريين وقد هددت البلاد بجماعة خطيرة وقد وصلت هذه الثورة فى إحدى الوثائق البردية بأنها كانت طامة كبرى . . .

وقد استمرت الثورة ضد الحكم البطلي بعد ذلك في شدة وعنف إلى أن انتهى الحكم البطلي في مصر على يد الرومان .

مقاومة الرومان :

لم يكد يمحى على الفتح الرومانى فى أغسطس ٣٠ ق . م بضعة أشهر حتى نشبت الثورة فى جنوب الوادى فى منطقة طيبة مركز عبادة آمون وممقل حركة المقاومة التى كان يزعمها الكهنة المصريين من قديم الزمان ضد الغزاة ، فلم تكند تسمع بوصول الرومان حتى شقت عصا الطاعة وأعلنت الثورة فتولى القائد الرومانى نفسه قيادة الحملة لإخادها فأخذها فى خمسة عشر يوماً . ثم عين والياً من قبله على منطقة بين حدود مصر وحدود النوبة ولكن ما كاد العدو ينسحب شمالاً حتى أغار المصريون على المواقع الرومانية وتغلبوا على الرومان فزحف القائد الرومانى على رأس قوة نحو الجنوب ودمر النوبيين ثم عاد أدراجه إلى الاسكندرية فلم تمض سنتان حتى عاد النوبيون إلى شهر السلاح فى وجه القوات الرومانية المربطة فى الجيوب مما اضطر الحاكم الرومانى إلى العودة وإخاد الثورة وعقد صلح بين الطرفين ، واستقر السلام جنوب مصر بفضل الاستحكامات القوية التى أقيمت فى تلك المنطقة .

ومع هذا ، فقد بدأت قبائل البليمس تغير فى منتصف القرن الثانى الميلادى على مصر الجنوبية وأظهرت الحامية الرومانية فى أسوان عجزاً واضحاً فى صد هجوم المغيرين وظلت الاضطرابات قائمة حتى تولى العرش قلدیانوس فسحب خط دفاعه من الحدود من مكانه بالقرب من الشلال الثانى ودعا بعض القبائل البدوية للاستقرار فى الوادى لحاية مصر العليا من غزو البليمس ولكن ما لبثت قبائل البليمس أوائل القرن الخامس أن عادت إلى شهر السلاح ولم ينفع عقد الصلح بين الطرفين . فقد انتهز البليمس أوائل القرن السادس فرصة عودة الفرس للدلتا لخطموا الحصون الرومانية وأبادوا القوات المربطة .

وفى منطقة الدلتا الساحلية المليئة بالمستنقعات شرق الاسكندرية نشبت ثورة برعامة كاهن مصرى يدعى إسيدوروس وقد انطوى تحت لوائه جمع فقير من

الفلاحين فالتحم الجميع مع الجيش الروماني ، ولم يستطع الرومان التغلب على هذه الثورة بالحيطة والفتنة ، وكان الخطر يكن في مدينة الاسكندرية التي لم تسكن اذ ذاك مدينة مصرية غالبة فكان شعبها خليطاً من الإغريق والمصريين واليهود لا يقل عدده عن نصف مليون . وكان المصريون يناوئون الحكم الروماني بطرق كثيرة وقد بلغ من شدة قلق الامبراطور كرا كلا على الحكم في المدينة مبلغاً جعله يأمر بطرد بعض المصريين ممن كان لهم فيما يبدو التأثير في إثارة المتاعب في وجه السلطات الرومانية .

ولقد أرسل كرا كلا مرسوماً إلى واليه في مصر متضمناً ذلك ، وقد دل ذلك على أن الفلاحين كانوا يتركون قراهم لتدبير المسؤولين مع الإغريق وسائر المصريين في المدينة .

كان مرسوم كرا كلا يقول : « ينبغي أن تعمل على طرد جيش المصريين المقيمين بالاسكندرية ولا سيما سكان الريف منهم الذين فروا من مناطق أخرى ومن اليسير التعرف عليهم . »

والذين يجب منعهم هم هؤلاء الذين يفرون من مواطنهم الأصلية ليتجنبوا القيام بالأعمال الزراعية ويستثنى من يفدون على الاسكندرية لمشاهدة عظمة المدينة . »

ويقول المرسوم في حاشيته : « من السهل تمييز المصريين الخالصين بين تساجي الكنان بلهجتهم التي تبين أنهم اتخذوا مظهر طبقة أخرى ، » .

الفصل الثالث

الوحدة الوطنية

في مقاومة الصليبيين

تجلى الطابع الوطني في المقاومة السياسية من خلال استقراءنا للتاريخ الوسيط لمصر فيما واجهته من غزوات الحروب الصليبية ، معان من التماسك والصلابة والصبر من خلال الطاعة لولي الأمر ومن خلال الولاء للأسرة والفكرة الإسلامية . وقد كانت الدول الأوروبية تحلم بالاستيلاء على مصر لحماية المصالح الصليبية واستعادة البلاد التي كان قد استولى عليها صلاح الدين في فلسطين ، بل لتوسيع رقعة السيطرة الأوروبية على حساب المسلمين أولاً . وبالرغم من المحاولات التي فشلت في ذلك ، ظل التفكير في غزو مصر والاستيلاء عليها ركناً من أركان السياسة الصليبية .

وازداد هذا التفكير شدة حين وضع للصليبيين مؤازرة مصر لصلاح الدين . في مقاومته للصليبيين فتركزت الفكرة حول الاستيلاء على مصر لتقطع يتابع للقوة الإسلامية ضد الصليبيين في فلسطين ، وابتدى بتنفيذ هذه الخطة بمعاودة الاغارة على دمياط في أيام السلطان الكامل محمد بن السلطان العادل محمد وهو خامس سلاطين الأيوبيين في مصر بعد صلاح الدين ، فأمرع الكامل بجيشه شمالاً إلى بلدة العادلية شمال فارسكور وأعد العدة للقتال وكان ذلك متمرساً بأساليب الحكم والسياسة والمهارة في الحروب .

ونزل الصليبيون من مراكزهم المتجمعة في الجهة الشمالية الغربية من دمياط في يولية ١٢١٨ وحاربوا معسكرهم عند قرية بورة الحالية على شاطئ البحر وكان قائد الحملة يوحنا برين صاحب مملكة بيت المقدس التي كانت قد ضاعت .

وبدأ الصليبيون بأن حفرُوا حول معسكرهم خندقاً وشرعوا في رمي برج دمياط النيسع فجأة فاستولوا عليه بالمفاجأة الحربية وقطعوا السلاسل المتصلة به

• عبر النيل لتسير مراكبهم بسهولة في النيل ويتمكنوا من أرض مصر ، ولكن السلطان الكامل نهض لافساد هذه الخطة فأقام جسراً من السفن عوضاً عن هذه السلاسل فاخترقته فرقة صليبية فرد السلطان الكامل على ذلك بتخريق عدة مراكب فاستحال بذلك تقدم العدو ، وعهد الصليبيون إلى تسيير مراكبهم في فرع قديم من فروع النيل فبلغوا بلدة بستان جنوب المعادلية التي كان بها معسكر السلطان الكامل ، فلما أنزلوا جيوشهم أصبح الجيشان الأيوبي والصليبي وجهاً لوجه لا يفصل بينهما إلا ماء النيل ، وقد انتهى الأمر بعبور الصليبيين إلى البر الشرقي التي تقع عليه دمياط واستولوا على معسكر المصريين وحاصروا دمياط نفسها ، وأرسلت دمياط تستنجد بالسلطان الكامل ولكن كان الصليبيون قد استولوا عليها .

ولقد ثبتت حامية دمياط الحصار وقاومت مقاومة مجيدة ولم تسلم إلى بعد أن امتلأت الطرقات والمساكن بالموثق ، وقد طلب السلطان نجدات من إخوته وأقاربه بالشام فأبطأت فأخذ يفاوض بجلاء الصليبيين؛ عن مصر والبحار السفن الصليبية في مقابل أن يقدم السلطان مدينة بيت المقدس لهم وكذلك معظم البلاد الفلسطينية التي أخذها منهم صلاح الدين .

ولم يقبل الصليبيون ذلك العرض لأن غرضهم لم يكن دينياً فقط . أما سبب الرفض فكان أن المندوب البابوي رأى أن مفاوضة المسلمين لا تكون إلا بعد هزيمتهم وأن مصالحهم لا تكون إلا بعد دفع مبلغ كبير من المال ، كما أن المدن الإيطالية التي كانت قد اشتركت في هذه الحملة بمجنودها وأموالها عز عليها الجلاء عن دمياط .

وفي أواسط ١٢٢١ ميلادية والنيل يوشك أن يمتلئ بمياه الفيضان تحرك الصليبيون إلى داخل البلاد فوققوا عند بلدة طلخا الحالية تمهيداً لدفع المسلمين إلى الوراء وإفساح المجال نحو القاهرة .

كانت الامدادات المنتظرة قد وصلت إلى جيش السلطان ، وكانت الأرض التي سيلتحم فيها الفريقان إذ ذاك ذات قوات ورجع يعرفها المسلمون ويجهلها

الصلبيين ، والمصريون موحدون كتلة واحدة في مواجهة العدو .

وفي النيل كانت تساندهم البحرية الأيوبية بعد أن استولت على بعض سفن صليبية وأمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمال طلفا ففصلا عن الجسر الفاصل بين النيل وبحر الحلة ، فغطى الماء شمال مواقع الصليبيين فصار هذه المساحة المائية على جانبي النيل حائلا بينهم وبين دمياط ، وبهذا ذهبت آمال الصليبيين بالزحف جنوباً نحو القاهرة فأرادوا العودة إلى دمياط .

فأحرقوا خيامهم وما كادوا يتحركون حتى وجدوا الماء بينهم وبين المعسكر عندئذ انقلب الصليبيون إلى مفاوضة السلطان بالعودة إلى دمياط والجلء عنها دون قيد أو شرط ، وقد رأى في ذلك اكتساب معركة دبلوماسية أجدى عليه من الظفر بمعركة حربية ربما أعقبتها هزيمة ودخلت الجيوش الأيوبية دمياط بعد الجلاء .

وجاءت الغزوة الكبرى ثانياً للاستيلاء على مصر في وقت ظلت مصر فيه مركز المقاومة الإسلامية ، وقد عقد لواء النصر في هذه المرة للصليبيين في معركة هبت عن مدى ولائهم للوطن من خلال الفكرة الدينية .

ولم يرض الصليبيون بفترة السلام حلا للسألة الصليبية إلا بالحرب ضد المسلمين ومصر ، فانهزت أوروبا فرصة استيلاء بعض الجند الأيوبية الخوارزمية على مدينة بيت المقدس بغير إذن من سلطان مصر والشام ، وقامت أوروبا وقعدت تنادى بإعادة بيت المقدس وتزعمت فرنسا حركة المناداة وأعلن ملكها لويس التاسع وكان قديساً وأصبح عسكرياً محارباً ، أنه سوف يقود غزوة صليبية فرنسية لاسترجاع ما كان قد فقده الصليبيون حديثاً وقديماً ، وأنه سوف يحقق أهدافه كلها بالاستيلاء على مصر .

وتجمعت جيوش هذه الحملة الفرنسية الصليبية في قبرص وعلى رأسها الملك . ومعه زوجته وأخواه وبعض بني عمومته وكثير من الأقطاعيين الفرنسيين ، وقد انضم إلى هذه الجيوش جيوش انجليزية بقيادة أقطاعيين من إنجلترا كما انضم أقطاعيون صليبيون من صكا وقبرص نفسها .

وأبحرت الحملة في أوائل مايو ١٢٤٩ ميلادية واتجهت نحو مصر لكنها وقفت في أخطاء الحملة السابقة .

جمع الصالح أيوب سلطان مصر جيشه جنوب البحر الصغير الحالى وجعل مركز قيادته في المنصورة ورغم مرضه لم يستسلم للرض وأخذ يستعد للحرب ، ثم نزل الصليبيون إلى البر الذى كان قد عسكر فيه لقيف من المصريين ، وما لبثت الحامية المصرية أن رحلت تحت ستار الليل حيث المسكر السلطانى مع حامية دمياط ، مع عرب بنى كنانة ، ولقد لقي شيوخهم من السلطان عقوبة الاعدام شنقاً ، وأخذت البلاد المصرية تعد العدة للقاومة بينما كان الصليبيون يزحفون نحو دمياط مباشرة بعد السحاب الحامية المصرية فوجدوا أبواب مدينة دمياط مفتوحة فدخلوها بغير قتال ، وكان موقف الصليبيين أقوى من موقف المصريين من جميع الوجوه ، ومع ذلك لم يستطع الصليبيون وملكهم الفرنسى أن ينال من مصر شيئاً . أمر السلطان الصالح أيوب بانتقال الجيش الايوبى المصرى إلى المنصورة ، وأعد المدينة التى جعلها معسكراً سلطانياً فى حين أخذ الملك الفرنسى يحصن دمياط بعد دخولها مباشرة ، وأخذ القناصة من المصريين يغيرون ليلاً ونهاراً على المعسكر الصليبي لمعرفة حركات الجند .

وأخذت القوات الصليبية تزحف نحو المنصورة . . إذ ذاك اتوفى السلطان أيوب فقامت زوجته وكان اسمها شجرة الدر فى السلطنة ريثما يصل ولى العهد إلى مصر من ولايته بالبلاد القداية . ثم استطاع ذلك الملك الفرنسى أن يصل بجيشه إلى بلدة البرمون على البحر الصغير ، وعسكر على حافته وتناوش الجيشان مدة شهر ونصف وحاول الملك الفرنسى إقامة جسر على البحر لينتقل منه إلى معسكر المصريين ، ولكن ضاعت جهودهم أمام القذائف النارية المصرية وحاول أن يعبر بحلّاح من الجيش بقيادة أخى الملك فتقهقروا أمامها الجنود المصريون إلى المنصورة تقهقراً آثار غرور القائد الفرنسى ، فأصرح نحو المنصورة متفاوضاً عن نصائح رفاقه القادة ، غير أنه لم يلبث أن غاب ظنه لمسيكة رتبها بيرس بموافقة شجرة الدر .

فقد كمن يبيرس بالقوات المصرية في كائن متعددة حول المنصورة ، ولما
دخل الجيش وجد مدينة خالية ، فانتشر جنوده في الأزقة والحارات تمهيداً
للذهاب إلى القصر السلطاني لطلب التسليم ولكنه لم يكذب قرب من أسوار القصر
حتى حمل الجيش الأيوبي المصري على الصليبيين حملة فجائية أبادوا الجنود وقادته
في بضعة ساعات .

أخذ الملك الفرنسي بعد الكارثة يعب البحر الصغير زاحفاً بجيشه الرئيسي
وقد احتاط لما سيقوم به الجيش المصري من حركات هجومية لدفعه إلى الوراء ،
ومضى القتال بين الطرفين بين نصر وهزيمة ، ووصل السلطان الجديد طوران
شاه المنصورة ، واتخذ تدابير حربية كفلت هزيمة الصليبيين في أقل من شهرين .

ولقد أحضر السلطان أسطولاً من السفن الخفيفة وحمله شمال المنصورة حيث
تم تركيبها وتوحيها في النيل لمنع المؤن من الوصول للعدو من دمياط . فاستولى
على عدد كبير من السفن التموينية الصليبية فهدد الجيوش الصليبية بالجماعة
وانتشرت بهم الأمراض ، لحاول الملك العودة إلى دمياط بجيشه سالماً ، فعمد إلى
فكرة مفاوضة المسلمين على أساس الجلاء الصليبي عن دمياط ، مقابل إعادة
بيت المقدس إلى الصليبيين ، ولكنه لم يجد سميماً أو جيئاً ، فبدأ الجيش الصليبي
في التفتقر في البر وكان ذلك إيذاناً بخروج الجيش المصري من المنصورة لمطاردة
الصليبيين فلم تلبث هذه العملية أن انقلبت إلى حركة هجومية تموينية لإجبار
العدو على التسليم ، ومالبث الملك أن أصدر أوامره بالتسليم بغير قيد أو شرط
لجاءت طائفة من الجنود الأيوبي المصري لتحمله أسيراً مكبلاً في السلاسل الحديدية
إلى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضها إبراهيم ابن لقمان .

وقد ازداد عدد الأسرى في المنصورة وتم فرض شروط الجلاء بدفع فدية
غالية يتعهد أن يدفعها الملك كما تقرر أن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن
نفسه وتسليم دمياط قبل إطلاق سراح الملك وقد أسى المصريون المدة التي
أعقبت رحيل الصليبيين عن مصر أيام الأفراح إذ أقيمت الحفلات وكتب
الشعراء القصائد التي تناشدها المصريون وتغنى بها وقد وردت في كتاب المقريزي
الذي حفظ تاريخ هذه الفروا الصليبية .

وانتصر الشعب المصرى وحاربت مصر بنجاح ضد قوى البحر والبر بعد ذلك وقد تمت المعارك الدفاعية أو الهجومية لافى أرض مصر بل فى مساحة الشام.

وكان لمصر فى ظل الإسلام طابعها القومى حتى فى ظل التبعية وكان لها فى حدود التبعية ملحقاتها فى الحجاز والشام دولة داخل دولة وكان المثل الدال على ذلك حركة على بك الكبير فى القرن الثامن عشر من فتح الحجاز والشام لحسابه ، والمثل الثانى هو محمد على فى مصر فى ظلها تحولت مصر من ولاية عثمانية إلى امبراطورية مصرية .

وفى إطار هذه التبعية اختلفت مصر مع تركيا فتقدمت إلى حدود الأناضول مهددا وقد انتصرت عليها فى حمص ونصيبين .

وكان ظهور الامبراطوريات البحرية بداية كوارث لمصر بدأت على يد الحملة الفرنسية وهى وإن فشلت فقد كشفت لبريطانيا البحرية أن مصر عنق الهند وشرى ان امبراطوريتها قدمرت من أجلها امبراطورية محمد على ولقد أخذت خطورة الموقع تفرض ضربتها على مصر وتزيد من حدة الاحتكاك بيننا ، والغريب أن أثناء ذلك قاومت مصر الأعداء بوحى من طابعها القومى صامدة فى نظرتها إلى الغرب المعتدى وتأخذ ولا تتأثر وتقاوم فى صمت على نحو حفظ لها استمرار ذلك الطابع ، ولكن كان نضالها يكشف عن تطور فى سمات الطابع القومى بالقدر الذى عبر به عن المزيد من الإيجابية الملبوسة عما قبل .

الفصل الرابع

الصمود

في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر

إن المضرى من سماته الرئيسية جبه بطبيعته للأسرة وجبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد كبير. جبه الأمة كأسرة كبرى ، وهو يحافظ عليها كما تحافظ جميع الأسرات ولكنه يفرط في ذلك إفراطا للحفاظ على تراثه الذى اندمج فيه وجدانه اندماجا كاملا ينبع من وجدانه الأصيل .

وهو ينسئ كل شئ. إلا وشائج الرحم ، وآداب المجتمع والأسرة ، فلا يزال في نفسه ذلك الأثر المنحدر إليه من أجيال وأجيال عاشت جميعا في ظل الأسرة وقيمها ، لذلك فهو اجتماعى من ناحية الأسرة لعراقة المباشرة الحضرية ، واجتماعى من ناحية نظام العادات والتقاليد ، ولهذا كان ذلك أقوى ما يربطه بالمجتمع وبالحياء القومية .

فإذا كان محافظا في مسلكه إزاء الأسرة والعقيدة فإنه كان متمردا في مسلكه نحو من يحاول المساس بهذه المقومات ولا يراعى مدى امتزاج نظام البيت والأسرة فلا مشاحة في أن يتقلب ثائرا في وجه الحملة الفرنسية لأنها جاءت لتوغل في المساس بمقومات حياته .

لقد جاءت الحملة الفرنسية عدوانا يتخذ أساليب قاسية سافرة تنفذ إلى قلب هذا المجتمع ، وتطرق مكامن وجدانه ، وما رسب في أعماقه من مقومات هذا المجتمع ، فكان طبيعيا أن يثبت في وجه الاحتلال فلا يكون الصراع بين طرفين قوامهما جيش أعزل وجيش حديث العتاد والسلاح ، بل بين مجتمعين متناقضين ، فلا بدع أن تنطلق مصر مدفوعة بروح واحدة تربط عناصرها بالممالك أعداء الأمم بوحدة من الشعور المادى للحملة ، ولا بدع أن يلتئم هؤلاء مع الشعب عندما أحسوا أن انتفاضة تدنيهم من غاياتهم ومن ثم انبثقت روح المقاومة الشعبية توازرها قوات الممالك في الداخل ، وتساندها تركيا وحلفاؤها من

الخارج ، وقد جاء ذلك الانبثاق شعوراً اجتماعياً يمثل بدوره وعى قومى سياسى يتياً من ذلك الوقت ليكون على مسرح السياسة المصرية فيما بعد حدثاً كبيراً .

بدأ هذا الروح يتجلى منذ بمقدم الحملة واستقرارها فى الاسكندرية فى أواخر يونيه سنة ١٧٩٨ بمقدار ازدياد وطأة الاحتلال وغلوه فى السيطرة على مقومات المجتمع واستنارته الفكرة الإسلامية ، خصوصاً وأن ذلك كان يحدث فى ظل نظامه الإدارى الصارم وبمقدار مساندة العوامل الداخلية والخارجية .

علم المصريون بمقدم الحملة من أنباء أتهم من الآستانة فبدؤوا يتطلعون إليها تطالع الريب . ومنذ أن احتلت القوات الفرنسية مالطة بدأت أنباؤها تنسرب فى وضوح إلى مصر ، فلما تأكدت أنباؤها حين حضر نلسن إلى ثغر الاسكندرية فى ٢٨ من يونيه سنة ١٧٩٨ متعقباً الأسطول الفرنسى بغية القضاء عليه أنبا حاكم الاسكندرية باحتمال حدوث الغزو الفرنسى لمصر فأخذت الاسكندرية تستعد لمقاومة الغزو .

تحركت مشاعر الأهالى خشية المزيد من الكوارث على يد الفرنسيين وكان يعترى شعورهم ذلك الولاء المسيطر للفكرة الإسلامية فأخذوا يستعدون للمقاومة . . فحصنوا الحصون والأسوار ، وحلوا السلاح ، فانضم إليهم المخاربة من ضواحي الثغر ، فلما استطاع نابليون إزلال قواته فى المعجمى — غربى الاسكندرية — والزحف بها إلى الاسكندرية ودخولها واجه ألوانا من المقاومة الشعبية فى كل أنحاء المدينة حتى كاد هو يقتل بين شوارعها .

وحاول نابليون معالجة الموقف بالمدينة بضخه على المقاومة الشعبية عن طريق تعيين كليبر أحد قواده ، لما عرف عند من الشدة والصرامة ، ثم محاولة كسب ثقة الأهالى بالابقاء على حاكمها من قبل السلطان (محمد كريم) محافظاً عليها من قبل الفرنسيين ، ولكن بالرغم من هذا ، كان الأهالى يتحينون الفرصة للمقاومة وإعلان كراهيتهم لهؤلاء الغزاة حتى لم يجد هؤلاء بدا من الشك فى (محمد كريم) كحرض على الثورة والقتال ، فاعتقل وبعث من إلى قائد الأسطول وصودرت أملاكه ثم نقل إلى رشيد ، ومنها إلى القاهرة ، فلما ثبت

الذى الفرنسيين عند دخولهم القاهرة ، فيما بعد مدى تعرضه على القتال إذ عثروا على ما يؤكد ذلك من مراسلاته للماليك حكموا عليه بالاعدام .

ومن الاسكندرية انتشرت أنباء الحملة ووسائلها التصفية في أنحاء البلاد ، كما انتشرت معها أبناء المقاومة الشعبية في الاسكندرية فكان ذلك كله أداة عبات شعور المقاومة ، وهياتها بممان جديدة ووقفت البلاد كلها مستعدة لمواجهة الغزو . بشق ألوان المقاومة أينما حل وسار .

فما كاد نابليون يتحرك من الاسكندرية إلى القاهرة حتى واجه ألواناً من المقاومة زادها شدة عناء السير وهددت خطوط مواصلاته إلى قاعدة الغزو . وإلى القاهرة ، وعبثاً حاول الاطمئنان على سلامة قواته بين المدن والمواقع الهامة بعد أن قطع شوطاً كبيراً في سيره في النيل وعلى شاطئيه .

لهذا أمر بتسيير كتيبة طواقة تجوب بعض جهات مديرية البحيرة . وتخرج منها على دمنهور ، ثم تلقى إلى رشيد ، (فأبو قير) ثم تعود إلى الاسكندرية . فلما تقدمت تلك الكتيبة إلى دمنهور أحسّت بذلك الروح المعادى الذى نمته . أخبار الحملة ضدها .

وكان أهلها على علم بمجيئها وبطبيعتها وأهدافها واعتداءاتها على سكان القرى . الأمانة فلما دخلت دمنهور لقيت تمرداً شديداً بعد أن لقيت عتياً ومشقة في طريقها إلى دمنهور ، فقد اجتمع في هذه المدينة نحو ستة آلاف مقاتل ، يملتون طرقاتها وشوارعها ، وإذ ذاك لم تجد هذه القوة سبيلاً للغلبة ، إذ قاومها الأهالى بشدة حتى اضطرت إلى الجلاء عن المدينة والتراجع إلى بركة غطاس ، وهناك هاجمها العرب مرة ثانية فلم يسعها إلا العودة الى الاسكندرية منهوكة القوى تلقى على القادة الفرنسيين والجنود من المعانى ما كان يحضّر رجاءهم في الغزو ومادفعهم للذهول من صعوبة الموقف ، فلم يكن هؤلاء يتوقعون من شعب مصر الأعزل تلك الطليعة الباسلة من المقاومة التى جاء على يديها النذير ، ولم يستطع الفرنسيون احتلال دمنهور إلا في أواخر نوفمبر سنة ١٧٩٨ .

وفي الطريق من الاسكندرية إلى شبراخيت لاقت الحملة الفرنسية متاعب جمّة
أغارها البدو الذين ردموا في طريق الجيش الواخف الابار ، وهددوا زحفه ،
فلما بلغت شبراخيت كان للقاومة الشعبية دورها الكبير في سير المعركة وإلحاق
الاضرار بالحملة .

وتلاقى الجمعان عند شبراخيت ، وكان قوام قوات مراد أسطولا نهريا مسلحا
يحمل اثني عشر ألف مقاتل كان معظمهم من الأهالي الفلاحين المسلمين مع لفييف
من العربان ، فلما التقى بهم الأسطول الفرنسي بالقرب من شبراخيت قام الأهالي
على شاطئ النيل فشاركوا جيش القاهرة وأهلها في القتال وأخذوا يهجمون
على الأسطول الفرنسي بمختلف الوسائل حتى أغرقوا خمس سفن منه ثم استولوا
على سفينتين مسلحتين ، إلا أن قوات الفرنسيين تمكنت من القضاء على جيش مراد
وأغرق أسطوله .

وتقدمت الحملة نحو القاهرة فأخذت أنباؤها تستثير الأهالي وتوجس الناس.
منها خيفة ولكن سرعان ما انقلب الخوف في القاهرة الى ثقة وغضب دفعهم
للاستعداد لمواجهة هذا الغزو والدفاع عن مدينتهم في الوقت الذي اتهمك فيه
المماليك في تدبير أمر رحيلهم عن البلاد فراراً من الغزو .

وقبل أن يبلغ نابليون مشارف امبابه ويحتمل فيها أوار المعركة خرج الناس.
الى الشارع وتركوا أعمالهم الخاصة منهمكين في تدبير شئون الدفاع ، ولذا ذاك.
أخذ المتطوعون يفدون إلى بولاق لمواجهة جيش الغزاة ، بل انتقل الكثيرون.
منهم إلى ساحة المعركة ذاتها حيث عسكر مراد بك بفرساته وعتاده ومخداته في.
امبابه وقدر عدد الذين اشتركوا منهم في المعركة بعشرين ألفاً من المقاتلين عدا
سنة آلاف فارس من المماليك .

ودارت المعركة غير متكافئة فانهزمت قوات المماليك ، وكان طبيعياً أن
تهزم قوات مراد بك أمام قوات فرنسا الحديثة التشكيل والقيادة والسلاح ،
ولكن روح الشعب لم تضعف ولم تهزم ، بل ظلت الحوادث تصقله وتدفعه كل
يوم إلى النمو والتروئب والصمود .

لقد هزمت قوات مراد بك وفر بما ليكه ، ووقف الشعب وحده يحمل عذاه
مواجهة الموقف في ثقة ، ويكفى أن تعلم أنه قد تحمل وحده بهذه الحركة حول
الكارثة ، بل وعبه التضال ومشقة الاتصال بالفرنسيين لعلاج الموقف .

ولم يجد هذا الشعب بدأ من التقدم للتفاهم مع نابليون دون ما استسلام لوضع
أسس الأمان في البلاد فقام زعماءه بالمهمة .

ثم انتقل نابليون بجيشه من الجيزة إلى القاهرة عاصمة البلاد وعقلها المفكر ،
وخيل إلى نابليون بعد أن استقر مقامه بالقاهرة بقليل أن الأمر قد استتب له
ولكنه ما كاد يستقر حتى كان السبيل قد هيء للقاومة الشعبية - بتحطيم الأسطول
الفرنسي - كي تعبر عن وجودها بمزيد من القوة .

وتحطم أسطول نابليون على يد نلسون في أبي قير بعد دخوله القاهرة بقليل ،
فأخذت الحملة تبدو في أعين الناس كأي شيء تصرى عليه قوانين التغيير ، وبدأت
هيبتها تنهار .

ومع هذا الجيش أينما سار انطلقت المقاومة الشعبية تساجل الجيش الفرنسي
القتال إبان امتداده في الشمال وفي الجنوب خلال شهور : أغسطس وسبتمبر
واكتوبر سنة ١٧٩٨ حتى إذا ما أشرف الشهر الأخير على نهايته كانت ثورة
القاهرة تمثل أعلى مراتب المقاومة الشعبية .

نخذ الأهالي يقاومون الحملة في الوجه البحري ابتداء من شهر أغسطس ،
فتجلى ذلك الروح بصفة خاصة في مديريات المنوفية والغربية والدقهلية ينذيه
موقف تركيا المعادي من فرنسا ، فقد أعلنت عليها الحرب في سبتمبر كما تحطم
الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير على يد نلسن . ففي منوف ، وفي قريتي
غرين وتتا الواقعتين شمالا - أعرض الأهالي عن التعاون مع قوات الخرو فلما
أكرهوا على ذلك اصطدموا مع القوات الفرنسية في قتال دام .

وفي طنطا بدأت طلائع الثورة فيها في أوائل أكتوبر ، وامتنع أهلها عن
سداد الضرائب التي كان قد فرضها الاحتلال ، فلما اختل الأمن تقدمت سلطات
الاحتلال إلى أئمة مسجد السيد البدوي لأخذ الموائيق للمحافظة على الأمن ،

فأسرع الأهالي بأسلحتهم لإنقاذ الموقف ، ومحاربة الفرنسيين وهم يصيحون صيحات الغضب ، وقد أقبل عليهم أهالي البلاد المجاورة يعاونونهم لما رأوا جموع هذه الجماهير ثائرة مسلحة وانضم هؤلاء الثائرين معهم ١٥٠ من فرسان العرب ، وأخذت هذه الجموع تندفع نحو القوات المعتدية فاشتبك الطرفان وبذلت تضحيات كبيرة حتى عمت المدينة سورة الغضب ضد ذلك الغاصب المعتدى .

ولقد أبدى الأهالي في المنصورة وفي القرى التي كانت تجاورها بسالة كبيرة في مقاومة الحملة الفرنسية عند توغلها في ربوع هذه الأقاليم فقد تمردوا على جنود الحماية ، واتفقوا على الفتك بهم ، وهاجمهم في يوم ١٠ من أغسطس عام ١٧٩٨ ونادى الثوار بالثورة رجالا ونساء حتى اضطر الجنود إلى العودة سراعاً إلى السفن بعد أن عز عليهم الاستمرار في معسكراتهم ، وقد لقي الفرنسيون عناء كبيراً في إخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت فيها المقاومة ، وامتنع كثير من أهالي البلاد عن دفع الضرائب ، وبرغم محاولات الفرنسيين التمعن على الثورة فقد انحصرت في مناطق ميت غمر ودنديط وميت المرندى في شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ولما استنزمت الثورة قطع المواصلات النيلية في فرع دمياط عهد نابليون إلى الجنرالين (موراوانوس) اخمادها فقاومها وجنودها هؤلاء الثوار في معقلهم الذي احتشدوا فيه وهو دنديط ولما اضطروا إلى الانسحاب انزلوا بالعدو خسائر ومتاعب في تعقبهم حتى عجز عن متابعتهم فماد أدراجه إلى قاعدة هجومه في ميت غمر .

كان الفرنسيون يحاولون اخماد الثورة ولكن بأساليب كانت تستثيرها وتجعلها تنبعث في كل مكان ، لأنها كانت تطرق مقدسات الفرد إذ ذاك ومكان وجداته : المال والعرض والجاه والنفس وغيرها من المسائل التي كان يعيها الفرد وعياً مباشراً وكانت تصدر من يد معتدية غريبة جارحة .

وامتدت أمواج العدوان الى البحر الصغير بجوار المنصورة وكان طبيعياً أن تمتد معها الثورة .

وفي الوجه القبلي امتدت الثورة تمثل وحدة وطنية صادقة على امتداد التوغل العدواني وبهذه الوحدة تحقق النصر في النهاية وجلت الحملة الفرنسية عن مصر .

الفصل الخامس

التماسك

في مقاومة الانجليز في رشيد

بدأت الوحدة الوطنية المصرية تتجلى تماسكا لا يعرف غير الصالح العام من خلال
الفتنة الإسلامية في مواجهة مصر للانجليز في مطلع العصر الحديث في رشيد .
وكان انتصار مصر على انجلترا في رشيد نصرا للوعي الطالع وإعلاء لروح
الوحدة الوطنية لمصر الناهضة ، منذ أن بزغ فجرها في طليعة القرن التاسع عشر ،
وهزيمة للنخلة البريطانية التي سارت بحرى هذا التطور الروسى في نموه حتى تجلى
في صورة أوضح في موقف رشيد ومن ورائها شعب متساند في وحدة وطنية مع
جيشه في صد العدوان البريطانى الذى تمثل في حملة فريزر سنة ١٨٠٧

فلقد حاولت انجلترا في أعقاب جلاء الحملة الفرنسية عن مصر الاكتفاء
بصيانة مصالحها بالحيولة دون عودة النموذ الفرنسي وإعادة تنظيم القوة المملوكية
وتمكينها من السلطة في البلاد كقوة موالية لها ، عند ما كان الموقف لا ينفك عن
خطر عاجل وعند ما كانت قادرة على تحقيق أغراضها بالضغط الدبلوماسى تارة
والدسائس تارة أخرى ، لترجيح كفة نفوذها في البلاد ، فلما فشلت وتغير الموقف
وزاد حرجا زاد على أثره حرصها على صيانة مصالحها في الشرق لاسيما مصر ،
فأقرت العمل الحربى ، ترسل أسطولها يهدد الباب العالى من جهة ، ويحاول
التأخير عليها لإبعادها عن نفوذ فرنسا عن طريق احتلال الاسكندرية من جهة
أخرى ، وتحاول الحيولة بالعمل الأخير دون وقوع مصر في قبضة الفرنسيين
معتمدة على قوة حلفائها من المماليك ، ثم تتمكن بالتالى - بفضل وجود قواتها
في البلاد والاعتماد على قوة المماليك - بتنفيذ الخطة السياسية التى رمت إليها من
قبل ، بتمكين هؤلاء من الحكم ، حتى تضمن مستقبلا ، رعاية مصالحها ، لذلك إذا
كانت حملة فريزر في ذاتها جزءا من التخطيط الحربى البحرى في البحر الأبيض

المتوسط الذى استدعته ضرورة العمل الحربى ، فى استجابة الموقف الدولى المتغير لصيانة مصالح بريطانيا فى الشرق ضد امتداد النفوذ الفرنسى ، فقد كانت الحملة من جهة أخرى وسيلة لغايات سياسية تحققها وتمكن حلفاءها البكوات والمماليك بالنفوذ فى مصر من جهة أخرى لضمان نفوذها السياسى عليها مستقبلا. بهذا لم تكن أهداف حملة فريزر الرئيسية فى حقيقة الأمر هى احتلال البلاد ، إلا فى حدود ما بذله من نشاط قنصل بريطانيا فى مصر لتبرير أغراض الحملة بعد وصولها .

ولقد بدأت بريطانيا تنفذ خطتها أثر تطور الأحداث الدولية بما أشرعها بضرورة الحفاظ على اطماعها لعمل حربى .

وبينما كانت الحوادث فى الآستانة تجري سريعا والسفير البريطانى يقدم إنذاره للبواب العالى بما تقدم ، أبحر الأسطول البريطانى من قادمس فى يناير سنة ١٨٠٦ بقيادة دكورت (١)

ولقد رأت تركيا أن الدخول فى حرب مع بريطانيا أمر على نقيض مصالحها لذلك أرادت أن تستعمل السفير إلا أنه كان ساخطاً فشاءت الحيلولة بينه وبين الأسطول البريطانى ، فقرر أن يودع السجن ، لكنه غدا ما علم بذلك دبر خطة حقاء للهرب من العاصمة التركية ، فدعا معظم أفراد الجالية البريطانية إلى ولية على ظهر السفينة أندميون من أجل الترفيه ، وحدث أن غادرت السفينة الميناء فجأة ، وكان الضيوف لا يعلمون من السر شيئا ، إلا أنها لم تلبث أن وقعت فى كين أعد لها ومن ثم سبق السفير إلى السجن وحيل بينه وبين الأسطول البريطانى . ولما وصل دكورت إلى ميناء تندوس فى ١٥ فبراير كان قد علم بأمر السفير فأبرق إلى الجنرال فوكس ليسرع بإرسال القوة البحرية إلى الاسكندرية .

وأبحرت القوة إلى الاسكندرية بقيادة الجنرال فريزر فى ٦ مارس سنة ١٨٠٧ من ميناء صقلية بقوة صغيرة معتمدة على قوة المماليك وضعف تركيا ، وكان قوامها جنودا من المستعمرات البريطانية عـددهم ستة آلاف جندى يشكلون فرقتين ، لم يكن من ضباطها من يعرف الشرق ولا أسهم فى الخدمة فيه عـدا

(١) دكتور عبد العزيز دقوى : اختصار مصر فى عهد ١٨٠٧

الجنرال ميد ، ويبدو أن الباب العالي هو ومحمد علي كانا يتوقعان هجوما بريطانيا ،
بدليل أن الوالي حاول إيفاد حامية من الجنود الألبانيين إلى الاسكندرية إلا أن
تقتنعل بريطانيا المستر مست الذي كان يعلم بأمر هذه الحملة البريطانية وموعد
وصولها الاسكندرية — دأب يستدرج الوالي حتى ألغى أمر إيفادها ومن ثم
قام محمد علي إلى الصعيد يحارب المماليك ، ويحاول كسبهم إلى جانبه ، بينما تولى
مست تأليب القبائل العربية لتساعده على استقبال الحملة وتسهيل مهامها كما كتب
للمماليك يعدم بالأمل المرتقب .

وعلى غير علم — بما يكتبه القدر للحملة الفاعدة ودون حساب لاحتمال تغيير
الظروف الداخلية ضدها — تقدمت تلك إلى مصر لتواجه تحالف الظروف
عليها وتشهد مصرع الحملة البريطانية التي جاءت لتنفيذها ، وذلك بفضل
تكتل المصريين ووحدتهم صفاً واحداً ، شعباً وجيشاً لمواجهة العدوان البريطاني
على مصر .

وقبل أن تلقى الحملة ، مراسيها في الاسكندرية بأربعين يوماً كانت بريطانيا قد
فقدت صديقها وحليفها الألفي بالوفاة ، فخرت بهذا عميلاً قوى الشأن واكتفى
الشعب بوفاته ، شر خصم كان مقدراً أن يكون ثغرة قوية في تماسك وحدته كما
خسرت بريطانيا القوة التي كانت تتوقع العون على يديها في مصر .

كان الألفي ، والحوادث الدولية تجري سراعاً ، ينتظر مجيء العون البريطاني
على أحر من الجمر ويرقب مجيء هذه الحملة ثلاثة شهور وقد طال انتظاره حتى
شكا فرسانه وجنوده لشدة ما اعتراه من الجهد وهم يسكرون في دمنهور ،
فلم يسمه في النهاية إلا بأن حل عصاه راحلاً إلى الجنوب مقهوراً ، وكان يأمل أن
يجعل من دمنهور معقلاً يقيم فيه حتى تأتية النجدة ولكنها تأخرت ، فلما تأزم الموقف
ونفذ صبر من معه ، جانبه إخوانه وعشيرته ، فخذلوه فارتحل من البحيرة بجيوشه
فأصداً الصعيد يملا قلبه اليأس والقنوط ، وفي أوائل يناير سنة ١٨٠٧ وعلى
الطريق المشرف على القاهرة ، رنا يبصره إليها متحسراً وكأنما يلقي عليها الوداع
الأخير ، إذ ذاك وافته المنية في الطريق في الوقت الذي كان الإنجليز يحشون

خيه السير في حاسن نحو مصر للالتقاء به، ولكن شاء القدر أن يفصل بين القوتين
لهيثر في مجرى الحوادث إلى حد كبير .

وخسر الإنجليز قبل مجيئهم قوة لا يستهان بها في عونهم على تحقيق مآربهم ،
وقد ترك الآلني وراءه فراغاً لم يستطع الماليك أن يملأه ، فقد تفرقت كلمتهم
من بعده وأخذت كفة محمد على تاهل في ذلك كقوة موحدة في وجه الإنجليز .
مات البرديسي فتخلص منه ، ومات الآلني فاستراح منه فصعد على القاضيهما ،
واشتد ساعده ، وكان الشعب يستعد لملاقاة الإنجليز قوة بجانب قوة محمد على ،
كل يكمل بعضه بعضاً ، ولم يكن ذلك الشعب الخانع الذي كاد يحطمه تماماً العهد
العثماني ، بل كان ذلك الذي برز في جولاته في الكفاح ضد طغيان الاستعمار
الفرنسي وضد الطغاة من الحكام الأتراك .

وقد بدأت الثقة ترتد إليه أثر اختيار حاكمه بنفسه ، وتعبير عن إصراره
بصيانة هذه الإرادة وباستمراره في الكفاح من أجلها فكان متوقفاً أن يقف
ضد الغزاة كما كالمهم من قبل وأن يقف بجانب حاكمه الجديد كما كانت وقفته
الرائعة من قبل ومن ثم كان الموقف الداخلي في مصر قبل مجيء الحملة غير مهاد
السهيل ولا ميسوراً أمامها .

واقترب الطرفان نحو النضال الحربي في سواحل مصر والقدر يحجب عن
كليهما مدى قوة خصمه وتتقدم الحملة في ثقة من عون الماليك واستتار بالقوة
التركية في مصر دون حساب لتطور الظروف الطارئة بالقوة فلا تحمل على ظهرها
سوى قوة محدودة .

وتتأهب مصر لمقاومة العدوان فتزداد الجبهة الداخلية تماسكاً وإن بدت في
البداية هيابة من الغزو ، فقد كان لثمار الالتحام الأول الذي قدر بعد ذلك أن
يتم بين ساحه رشيد أثره الأكبر في استكمال هذا التماسك ورد الثقة إليها في
قوة روحية أعلى .

وبينما كانت الحملة في طريقها إلى مصر ، كانت مصر تتسمع أنباءها قبل أن
تلقى بمراسيتها في الإسكندرية من الرسائل الواردة من الأستانة ، فأخذ الأهالي

يستخدمون لمقاومتها كاستعدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية من قبل ، فعلى زعيمهم عمر مكرم زعامة هذه المقاومة الشعبية وشرع - كما يقول الجبرتي (فبراير ١٨٠٧) " أهل الاسكندرية (في تحصين قلاعها وإبراجها وكذلك أبو قير . . .) وبجانب ذلك أخلت أبنائها بحكم الطبيعة تؤثر في نفسية الشعب لحدث ثمة قلق وقلق ، كما أخلت الأسعار في الارتفاع .

وبدأت الحملة تلتقي بمراسيها في الاسكندرية ، فشاء الاسطول أن يقوم أولاً بعملية استطلاع فأقبلت أوائل مارس عام ١٨٠٧ سفينة انجليزية إلى مياه الاسكندرية دون أن تخبر بأسباب حضورها ، وما لبثت سفينة أخرى أن جاءت الثغر في ١٤ مارس فاستدعت القنصل الانجليزي ميست وسرعان ما استجاب الأمر لمقابلة من فيها ، ولما عاد أرسل مبعوثه برسائل الى المماليك في الصعيد لإخبارهم بقرب وصول الحملة الانجليزية المرجوه واستدعائهم إلى الوجه البحري كي يكونوا في عونهم على النزو بعد أن بلغهم آسفين بموت زعيمهم الالقي ، بينما كان محمد علي يحاول القضاء على المماليك كهوة بالحرب تارة ومحاولة استرضائهم تارة أخرى باقتسام بعض النفوذ في البلاد.

احتلال الثغر :

وعادت السفينة الانجليزية في ١٦ مارس تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن الاخرى والقت مراسيها بالميناء الغربي ثم نزل منها ضابطان وطلبا مقابلة محافظ الثغر أمين أفا ، وكانت الاسكندرية إذ ذاك تمثل في ذاتها إدارة تركية مستقلة عن إدارة مصر وكان حاكمها هو امين أفا من ضباط الآستانة ، وقد تواعدا مع الغزاة على تسليم المدينة نظير رشوة من المال . وقد أعطاه هذا المال قنصل انجلترا فلما قابله الضابطان اتفقا معه على أن يسلم المدينة دون مقاومة ، ولم يكذب يطلع يوم ١٧ مارس حتى أقبلت العمارة الانجليزية مكونة من خمس وعشرين سفينة بقيادة الاميرال لويس ، ثم أخذ جنود الحملة ينزلون مساء ذلك اليوم في الشاطئ العجمي ولم يلبث أن زحف الجيش إلى الاسكندرية ، وهناك عسكر الجنود تحت أسوارها وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة أبو قير ، وبعد مضي يومين في مفاوضات

صورية بينهم وبين محافظ الثغر ، انتهى الامر بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه معظم حامية المدينة ، ومن ثم دخل الانجليز الاسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أية مقاومة وقد توجهوا من حاميتها إلى دمنهور .

واحتلت الحملة الاسكندرية وكتب القنصل الانجليزى مست اذ ذاك يقول :
(لو أن محافظ الاسكندرية صمد للقوات مدة ٤٨ ساعة قبل عملية انزال الجنود الانجليز إلى البر لما أمكن نزولهم ، لكنه كان قد مل عصف الحكومة وظلها .

موقف الشعب من الحملة :

واخذت أنباء الحملة تترى تباعا من الاسكندرية بعد احتلالها وتختلف في تفاصيلها ، فكثر الاشاعات حولها فاستمع البلاد إليها دون أن تثبت من حقيقتها حتى استقرت أخيرا في النهاية انبأوها في القاهرة فأدرك كنهها الناس ومن ثم بدأ الموقف يتغير لمواجهتها والاستعداد لايقاف ما يحتمل أن يفتى إليه الاحتلال من زحف إلى داخل البلاد . وكانت رشيد هي الساحة التي لقيت بريطانيا فيها هزيمتها الأولى على يد الوعي الصاعد للقاومة الشعبية .

وبلغت أنباء الحملة أحد زعماء المماليك في الفيوم وهو ياسين بك ، فأخذته نزعة الدينية ، فتمرك شمالا حتى بلغ دهنشور فأرسل للسيد عمر مكرم والقاضى وغيرهما انه تمرك بعد أن أخذته الحية الاسلامية — ليواجه الغزو البريطانى وفى صحبته ستة آلاف من الجند ليرابط بهم بالجزيرة أو قليوب ويجاهد بهم في سبيل الله ، فكتبوا له أخباريه . (مضمونها : إن كان حضوره بقصد الجهاد فينبغى أن يتقدم بمن معه إلى الاسكندرية وإذا حصل له النصر تكون له اليد البيضاء فانه لا فائدة لبقائه في الجزيرة أو قليوب . .) وقد خشى المسئولون أن يكون وراء هذه التركة مطامع خاصة في الجزيرة وغيرها ، لذلك وضعت خطة تحول دون تنفيذ سيره ومآربه .

في ذلك اليوم الذى بدأ فيه هذا النشاط ٢٧ مارس تلقت القاهرة من صحيح الانباء ما أوقفها على جليلة الموقف من استيلاء الانجليز على الاسكندرية وامتلاكهم قلاعها ومكنى قائدهم بيت القنصل .

ويسمع الناس لآباء الغزو في أضواء الجديدة ، وما انتهت إليه علاقة
الإنجليز في النهر مع الأهالي من شروط بناء الاحتلال تحديد علاقته بهم ، ولقد
كان لبوت حقيقة الغزو آثارها في مجرى المشاعر العامة بين المصريين .

حالة الجنود العثمانيين :

بدأ تأثير ذلك بين الجنود خوفاً ووجلاً بأعمق مما بدأ في غيرهم ، وكان هؤلاء
خليطاً من الأنازود والترك من المرتقة وغير النظاميين فئة لا يهتما مصالح
البلد إلا ما تؤديه خدمة لأغراضها في إطار خدمتها في سلك الجيش العثماني ،
دون مصالح الأهالي أو مصالح مصر المباشرة فلم تكن إذ ذاك وطناً لهم يرتبطون
به ارتباطاً روحياً فلما علوا بالغزو امتلأت قلوبهم رعباً وآثروا — والمحنة على
أشدّها — ترك المصريين وحدهم فيها وإن بدت آثار ذلك الغزو بين الشعب ، إلا
أنها لم تلتهم بهم إلى التفكك وليسان الواجب كما بدت من هؤلاء . . وقد كانت
مصر وطنهم الذي احتوهم دهرًا ، وعاشوا فيه مندجين في حياة واحدة وقد
جمعهم من قبل وحدة الكفاح ضد الفرنسيين والإنجليز والأتراك ، فليس بدعا
أن يصعد الشعب ويرفر غيره من الجنود ذعرا أمام حقيقة الاحتلال .

فر كثير من الجنود الألبان منذ أن ابتليت الاسكندرية بالاحتلال إلى
داخل البلاد ، واحتوت دمنهور عددا كبيرا منهم فلم يسع شعب هذه البلد ، عندما
أمر ذلك على حمايتها حتى همست بدورها بهجرة هذا البلد ، إلا أنهم واجهوهم
باللوم والتفريع ، فلما بلغ دمنهور جنود الاسكندرية الفارون آثاروا الرعب في
قلوب حمايتها عندئذ أنزعج كاشف دمنهور هو ومن معه من الجنود وعزموا على
الخروج منها فلما أحس الأهالي غاطبهم أعيانهم قائلين لهم دكيف تتركونا
هنا وتذهبون ولم تروا منا خلافا وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفى من أعظم
المساعدين لكم فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا في حروب الإنجليز ، ولكنهم
رغم هذا لم يستمعوا إليهم لشدة ما داخلهم من الخوف لحملوا متاعهم ومعهم
الكاشف وهاجروا من البلدة إلى فوة على عجل ، فلم يسع أهل البلدة إلا أن
أبلغوا ذلك إلى زعيم مصر إذ ذاك عمر مكرم شاكين في ألم وسخوية .

يقول الجبرتي (ولما شاع احتلال الاسكندرية داخل العسكر والناس وهم عظيم ، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام ، وشرعوا في قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التي أعطوها للتضايقين والمستقرضين بالربا ، وإبدال ما بأيديهم من الدراهم والقروش والفرالسة التي يثقل حملها بالذهب البندقي والمحبوب الزر لحفة حملها حتى أنها زادت في المصارف بسبب كثرة الطلب لها ، وبلغ صرف البندقي المشخص الناقص في الوزن أربع مائة وعشرين نصفاً ، والزر مائتين وعشرين ، والفرالسة مائتين واستمرت تلك الزيادة بعد ذلك وسعوا في مشتري أدوات الارتحال والامور اللازمة لسفر البر وفارق كثير منهم النساء وباعوا ما عندهم من الفرش الأنيقة (١) .

موقف محمد علي في الصعيد :

توغلت أنباء الغزو إلى قلب الصعيد لتصل أنباؤها إلى محمد علي كما وصلت رسائل الانجليز إلى زعماء المماليك فيتردد صداها بين جوانح الجميع تثير فيهم انفعالات متضاربة .

ولاذ تترك آثارها هما ورعبا في نفس محمد علي ، فقد بدت بالتالي بين المماليك منعشة لآمالهم تملأ قلوبهم بالرجاء لتحقيق مآربهم في البلاد وقد قربت الاحداث بين هذين الطرفين المتخاصمين فأخذ محمد علي يعمل ليصالحهم وأخذ هؤلاء في فرض شروطهم عليه ، واحتدمت النزاعات بين الطرفين في شكل مغالبة يقوم محورها على رغبة كل في ميل مآربه على حساب خصمه .

كان محمد علي يعلم مقدما من الباب العالي باحتمال غزو الانجليز مصر عندما هم بالتوجه إلى الصعيد لمحاربة المماليك وإخضاعهم بالقوة ليتفرغ لما يحتمل أن يحدث ولكنه لم يفقه مع هذا أن يستخدم المصالحة أولا لبلاوغ هدفه عند الزوم إلا أنه آثر في البداية المضي في الحرب معهم حيث لم يجد ما يدفعه للتهديل باستخدام أساليب المصالحة .

طلب وهو بالصعيد ثلاثة مشايخ من القاهرة للتأثير عليهم من خلال النزعة

(١) عبد الرحمن الجبرتي .

الاسلامية ليكتفوا عن الحرب ويقفوا معه في الحق في مصلحة بين الطرفين بينما كان يركز اهتمامه على أداة الحرب لاختصاصهم .

فوصل المشايخ إلى ملوى ، وهناك استأذنوه في الذهاب إلى ما اتوا إليه للسعي للصلح ولكنه تركهم في ملوى وذهب إلى أسيوط وأودع الجماعة بمنفلوط ، ثم تلاقي مع الأمراء وحاربهم حتى ظهر عليهم وعند ذلك حضر المشايخ المذكورون فأرسلهم إلى الأمراء وكانوا بالجانب الغربي بحماية ملوى . فتفاوضوا معهم فيما اتوا بسببه ، وأما كانت في البداية ، وزادهم في الأمر ترددا شعورهم بالقرب من مساندة الانجليز لهم لتحقيق مآربهم . إذ ذاك اجابوا على رسل محمد علي قائلين (كم من مرة راسلنا في الصلح ثم يفدر بنا ويحاربنا) مفندي أمامهم غائلته لاكثر الشروط التي عقدت بينه وبينهم . ثم اختلفوا فيما بينهم وتناوروا في الأمر . ولم يكن هؤلاء متمسكين في الرأي تماما ، فلما علم محمد علي بانباء احتلال الاسكندرية وارسل الرسل إلى المماليك بالوجه القبلي ارتبك في أمره ، ومن ثم أسرع بحث خطي الصلح ويد يده مضطرا في سخاء لاسترضائهم . وقد ثبت في نفسه كما يقول الجبرتي : (استيلاء الانجليز على الديار المصرية) وكان قد اعترم على الهجرة إلى الشام . وكان يتوقع سرعة مجيئهم إلى القاهرة .

بين العملاء من المماليك :

وبينما كان محمد علي يبدو مهموما لزاء أنباء الاسكندرية كانت رسائل الانجليز تفيض على المماليك بالبشر والرجاء . حتى أحجم عن تلبية نداء الانجليز ، ولكن كان جمهورهم يرى في الأمر فرصة قلما تعوض ، لتحقيق مآربهم ولكن في تردد مخافة لوهم من سكان البلاد لانضمامهم إلى أعداء الدين كانوا يعتقدون .

هزيمة أنجلترا الأولى أمام الوحدة الوطنية :

بينما كان المصريون يفكرون في تدبير شئونهم ، ومشاعر محمد علي والمماليك تستعظم بحثا وراء رسم خيوط المصالحة كل وفق أهدافه ، كان الانجليز في الاسكندرية يفكرون في تعزيز نجاحهم الحربي فيها بامتداد النزوح شرقا حتى رشيد ،

وقد كان وراء هذه الخطة التي ينال عنها القنصل مست أمام التاريخ ، رغبة ملحة منه لاستدراج بلاده لاحتلال البلاد لتزداد بهذا تمكنا من تنفيذ الخطة السياسية التي سعت إليها بريطانيا من قبل ، وضمنان مصالحها فيها رغم أهداف الحملة المحدودة .

انعش نجاح الحملة الأولى بالاستيلاء على الاسكندرية القنصل مست ، فبعد أن أرسل بتاريخ ٢٢ مارس خطابا إلى المماليك يستدرجهم لمعاونة الانجليز بشق ضروب الأغراء ، اتبع ذلك بنشاط آخر شاء به جر بلاده لاحتلال مصر .

فقد حاول اقناع القائد الانجليزي فريزر بإرسال قوة من الجنود الانجليز على النيل باحتلال رشيد . محاولا بهذا المعاش الأمل في قلوب المماليك وطمائهم بقرب تحقيق آمالهم واستدراجهم لمعاونة الحملة على تحقيق ما كان يصبو إليه هذا القنصل من أغراض استعمارية على حساب مصر . وكان هذا يثق في قوة المماليك ويرجو الخير على يديه .

ولكن يوثر على فريزر لانفاذ الحملة إلى رشيد واحتلالها استخلم الفش والخذاع وسائل للاقناع فبين له في تقرير مطول مدى الحرج الذي يحيط بالجيش الانجليزي في الاسكندرية إذا لم يتقدم باحتلال رشيد . فلم يعد في رأيه في مدينة الاسكندرية كلها إلا التموين الذي يكفي أهلها يوما واحدا فإذا لم يتم على الفور باحتلال رشيد عرض أهل الاسكندرية وجنوده للجاعة . ولم يلبث فريزر أن صدق ما نبأ به ذلك القنصل . فهم باعداد حملة وامرها بالتحرك شرقا لاحتلال رشيد ، دون ما تدبر ولا دراسة عميقة للوقف . ولو كان هذا القائد في مصر عام ١٨٠١ لم أن القائد الفرنسي مينو قد قاوم حصارا مدته سبعة أشهر قوته أكثر من سبعة آلاف جندي بريطاني وقد أغلق في وجهه ميناء الاسكندرية وكان إذ ذاك في موقف لا يتمكن فيه من الحصول على اية امدادات من البحر كما هو متاح للانجليز . ولكن كان قصر نظر فريزر هو الذي مهد لمست أن يغشه وينصر به حتى هم باعداد هذه الحملة التي لاقت فيها بريطانيا هزيمتها .

وقبل أن يتحرك الجيش تلقى من الانباء فيما كتبه إليه قنصل بريطانيا في رشيد

المستقر بترتش ما أوقفه عن حال مصر ومستوى قواتها المحاربة ، وبعد أن درس الموقف صحت عزيمته على احتلالها لجزء حلة قوامها ألفان من الجنود ، وجعل على رأسها الجنرال ديكروب ثم أمرها بالتحرك لاحتلال رشيد .

الزحف نحو رشيد :

سار هذا الجيش من الاسكندرية يوم ٢٩ مارس فقطع المسافة بين البلدين سائراً على سطح من الرمال تتوره تلال كثيانية استنفذت الكثير من قوى الجيش في تحركه بمتاده وخيله فبلغ رشيد في اليوم التالي ومن ثم أخذ يتأهب لدخولها صبيحة يوم ٣١ مارس .

استعداد رشيد :

كان في رشيد إذ ذاك حامية تبلغ ستائة جندي تحت أمرة محافظها على بك الشجاع ، فاعتزم حماية المدينة من الغزاة غير مستند إلى قوة هذه الحامية الصغيرة بحسب ، بل على المقاومة الشعبية المدنية ، وجد المحافظ في الاستعداد للقتال ضد الغزاة وشامت المدينة الباسلة أن تضطلع بالدفاع وحدها . فتفتدى الشعب كله ولم تطالب من القاهرة عوناً ، ولم تنتظر أمراً بالدفاع عنها ، بل انطلقت تدبر شئونها بنفسها في ثقة كبرى لتستقي على الأقل شرعب الجنود الألبان والترك الذين اشتهروا بذلك في القاهرة ، وقد كانوا لقيماً من اختلاط السلطة العثمانية الأرناؤوط والدلاة وغيرهم .

خطة رشيد :

ووضعت رشيد الخطة فأمرها كما بإبعاد مراكز التمعية في رشيد إلى الشاطئ الشرقي للنيل ، كي يقطع خط الرجعة على احتمال ارتداد جنود حاميته إلى هذا الشاطئ . إذا ماسولت لهم أنفسهم ذلك ، ولكي يملأ نفوسهم عزماً على الدفاع ، فلا يسلبوا العدو كما سلبت حامية الاسكندرية ، وبهذا ركز مشاعرهم حول الاستبسال في الدفاع بعد أن أصبح النيل من ورائهم والعدو أمامهم ثم أمر الحامية بالتراجع داخل المدينة وأن يتحصنوا والأهالي بالمنازل في استعداد للقتال

على ألا يبدأ ذلك إلا بعد أن تصدر إليهم الأوامر بإطلاق النار .
هزيمة الجيش الإنجليزي :

تقدم الانجليز ولم يجدوا ثمة مقاومة خارج رشيد وقد بدت وكأن حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها أسوة بما حدثت بالاسكندرية ، فتوغلوا في المدينة ودخلوا شوارعها وتحصنوا جوانبها فزادوا اطمئنانا . عذرت شاءوا التخلص من متاعب السفر فانتشروا في الطرق والاسواق بحثاً وراء أمكنة يستريحون فيها ، ولكن لم يدم لهم الأمر طويلاً إذ لم يشأ حاكم المدينة أن يتركهم ينعمون بالراحة ، فأكادوا يستقرون حتى أصعد أمره بإطلاق النيران على هؤلاء الغزاة ومن ثم انهال عليهم الرصاص من الأهالي من كل حذب وصوب ، من النوافذ والأزقة ومن الأسطح ، فلما فوجئ الأعداء بهذا الرصاص المنهمر عليهم بحث في قلوبهم الرعب فآلقوا ما بأيديهم من أسلحة ، وطلبوا الأمان ، فلم يلتفت إليهم وأخذ الكثيرون يسقطون صرعى أمام هذه المقاومة التي دهمتهم في حماس وعنف ، حتى قتل القائد الإنجليزي ويكوب كما قتل معه كثير من ضباطه ، ولأذ نفر من الانجليز بالفرار مؤثرين العافية على النضال ، بينما فر ليف من الأحياء في حالة من اليأس متقهقرين نحو الاسكندرية عن طريق . (أبو قير) .

وهكذا انتهت المعركة الحربية بهزيمة الجيش الإنجليزي وقد بلغ عدد قتلاه ١٧٠ قتيلًا و ٢٥٠ جريحاً . أما الأمرى فقد بلغ عددهم ١٢٠ أسيراً .

وقد استطاع الأهالي التعبير عن مشرق جديد للشعب بدأ بوره من قبل ، وكان اتجاهها صاعداً من طليعة الروح القوي ، وقد تجلى في هذه المعركة كما تجلى من قبل في كفاح الفرليسين ، فمثل محرراً من التضامن والتساند والشعور بوحدة المصير والثقة بالنفس ، وكانت ممان تدور كلها في إطار الفكرة الديقية . وقد تجلّت صفحة مشرقة في تاريخ الكفاح الشعبي ضد الغزاة في مصر .

أبناء النصر :

بلغت أبناء المعركة الاسكندرية وكان قائدها في شوق لسماحها ولما لم يكن

يتوقع أن تنتهى بهذه النهاية المؤسفة ، فقد أسف لسماع أنباءها ، وما لحق جنوده
من الهزيمة وقد وصف فريزر هذه المعركة بأنها كانت : معركة غير متوقعة
وكارثة فادحة حلت بقواته .

وارتدت أنباء المعركة على سائر الشعب فازدادت وحدتهم الوطنية فأحسوا
بنبضة النصر وأنشئت أنباؤها الآمال وبمشت في الجميع الرجاء .

الجنود النازحة تَرد إلى أوكارها المقفرة فتنتشى بالآمل وتطمع في البقاء
ومداومة القتال ، والشعب الصامد يزداد ثقة على ثقة ، فيحسن بتدفق الحياة في
جسمه ، والنسيم القاتر يروض أجنحته ليحمل إلى الناس بشرى المشرق الجديد ،
وطيروف النصر تمس القلوب فتنفو وتختلج وكأنما أصبحت رشيد زهرة تفوح
وطلاقة تفيض على من حولها بالبشر والبهجة . وقد ارتدت الطمأنينة إلى
النفوس وأخذت تمتلئ بلون جديد من الحماس .

أنشئت هذه الأنباء جنود حامية دمنهور الذين فروا من قبل في جن مع كاشفهم
منذ دخول الانجليز الاسكندرية ، فدفعتهم إلى العودة إلى دمنهور ، وهم يشعرون
بالطمأنينة ، وأخذت الأنباء تنتشر والسعاة ينقلونها إلى القاهرة فيستمع سكانها
إلى هذه الأنباء مغمورين بالفرحة حتى كادوا لا يصدقون أنباء رشيد لفرط
ما بلغته من نتيجة حاسمة ، يقول الجبرقي (فاضربوا مدافع وعلو شنكا ، وخلع
كنخدك بك على السعاة الواصلين وأسرع المبشرون من أتباع العثمانيين وبعض
القراصنة الأتراك بالسعى إلى بيوت الأعيان ويبشرونهم ويأخذون منهم
البقاشيش والخلع ، وتقبلت القاهرة الأنباء بالبشر والحماس فقد أنزل النصر هبة
الحمة في نفوسهم تلك الهبة التي جاءتهم من شهودهم انتصارات الانجليز على الجيش
الفرنسي في مصر وعلى الأساطيل الفرنسية في البحار ، فأخذ الشعب يزداد ثقة
بنفسه وتحفز إلى الاستمرار في المقاومة فتأدى الناس بالجهد وتدفق المتطوعون
إلى القاهرة وغيرها .

ولإذا كان من الطبيعي أن تنتهى الأنباء بالبهجة في نفس محمد علي فقد كان
من الطبيعي من ناحية أخرى أن تَرد فتدلا قلوب المماليك حسرة على ما أصاب

حلفاءهم وهم يتصلحون مع محمد علي ويحاولون فرض الشروط عليه .

الاسرى في شوارع القاهرة :

واستمع الناس إلى الأنباء وكأنهم كانوا على موعد من شهود مركب الاسرى يشق شوارع القاهرة ليروا بأبصارهم حقائق هذه الأنباء وشهودها ، وحملتهم السفن من رشيد إلى القاهرة ففروا في شوارعها ثم استقروا في القلعة وكانت إذ ذاك بناء احتوته تلال المقطم ميراثاً شهد المجد من عهد صلاح الدين . يمثل طابع العصور الوسطى ويستقبل عهده الحديث بإشراقة شحب يستيقظ من سباته ويفيق من غفلته ويحدد في كيانه وكان يوماً مشهوداً كما يقول الجبرتي (١) .

فلما كان يوم الأحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ (ابريل سنة ١٧٠٧) أشيع رؤوس القتلى ومن معهم من الاسرى إلى بولاق فخرج الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم للملاقاتهم ، تطلّعوا إلى البر وصحبته جماعة المعسكرين معهم وأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم وسط المدينة ومنهم فسيال ضابط كبير وآخر كبير السن وهما راكبان على حمارين ، والبقية مشاة في وسط العسكر ورؤوس القتلى معهم على نهايت وعدتها أربعة عشر رأساً والأحياء خمسة وعشرون ولا يزالون سائرين إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكاً ومدافع وطلّعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة ، وفي يوم اثنين وصل أيضاً جملة من الرؤوس والاسرى إلى بولاق فطلّعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأساً وثلاثة عشر أسيراً ومنهم جرحى) .

وانتهت معركة رشيد الأولى بهزيمة الجيش البريطاني ، هزيمة ساحقة وانتصار المقاومة الشعبية انتصاراً مؤيداً ، وقد شعر الطرفان عقب المعركة بمشاعر متضاربة حفزتهما نحو لقاء آخر والتمحام أشد انتهى بنتائج حاسمة ، رفعت من شأن مصر المكافئة وقصفت على ماعتقد من رجاء وراء الحملة البريطانية .

شعر الانجليز بالكهرياء الجريح وشعر قنصلهم مست التذير الهادف إلى

(١) انظر المرجع السابق .

الفضاء على خطته التي سير من أجلها الحملة الأولى على رشيد فثبت النية على الانتقام ومعاودة العدوان على رشيد .

وشعر المصريون بالثقة تتدفق في نفوسهم وبالأمل يشد عزائمهم للاستعداد في كل مكان لمقاومة العدوان والاجهاز عليه بعد أن تواردت النيات السيئة للحملة وضوحاً .

موقف الشعب :

أخذ الشعب يستعد في حماس رهيب ، وكان استعداده ذلك من أجل المعركة الفاصلة في وحدة وطنية كبرى ، وكانت القاهرة الرأس المدير المقاومة الشعبية والعين الساهرة على موازرتها بالاستعداد العسكري عند ما تجدد الساعة ، وقد كانت الاستجابة منها منذ أن وردت أنباء المعركة الأولى أن استفز الشيوخ ، وفي متدحهم السيد عمر مكرم ، أهلها إلى التطوع للقتال ، وخطب خطباء المساجد في حث الناس على الجهاد فأقبلوا على الدعوة متطوعين تحت لواء المقاومة الشعبية ، وكان تطوع الشعب تلقائياً يعبر عن استعداد روحي وشعوري بالتضامن وحرص على صيانة مقومات الحياة ، وكان المتطوعون يذهبون كل يوم إلى أطراف المدينة ، يعملون في حفر الخنادق وإقامة الاستحكامات شمالي القاهرة لصد عدوان الانجليز إذا ما حدث وجاء هؤلاء عن طريق شبرا ، وقد بادروا إلى العمل في ذلك بزعامة عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون متطوعين نصف النهار ، ثم يعودون إلى أعمالهم عند الظهر ، وكان عمر مكرم يذهب إلى حيث يشتغل العمال في إقامة الاستحكامات فيشير حماسة الجماهير ، وكان يلقب على الناس ويحثهم على حمل السلاح والتأهب للجهاد ضد الانجليز الغزاة ، ثم دعا الأزهريين إلى المشاركة في القتال ، ولم ينظر إليهم كرجال علم ودين لحسب ، بل رجال جهاد وقتال ، ومالبت هؤلاء أن أذعنوا للدعوة ولبوا نداء الجهاد والاستعداد للقتال ، تاركين ساحات دروسهم . وكان الشعب في زعامته دائب الحركة والتفكير ، في تدبر الموقف ودراسته لإبان غياب محمد علي في الصعيد وكانت القاهرة تعقد الاجتماعات وترسم الخطط بروح تنم عن أصول قومية تستنبت نباتاً حسناً لتشرق فيما بعد وتضيء بهامض الحديثة .

يقول الجبرتي يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة من أجل التشاور
ودراسة الموقف ورسم ما يجب تنفيذه :

(وفي يوم الثلاثاء (٢٨ محرم) حصلت جمعية بيت القاضي وحضر حسين
باشا وعمر بك والدقردار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوي
والشيخ الأمير وباقي المشايخ فتكلموا في شأن جاذمة الإنجليز والاستعداد للحربهم
وقتلهم وطردهم فإنهم أعداء الدين والملة ويجب أن يكون الناس والعسكر على
خال الألفة والشعبية والاتحاد ، وأن تمتنع المساكر من التعرض للناس بالإيذاء ،
كما هو شأنهم ، وأن يساعد بعضهم بعضاً على دفع العدو (١) .

ثم أخذ هؤلاء في التشاور في تحصين المدينة وحفر الخنادق وقد نمت أحاديثهم
عن خبرة جديدة اكتسبوها من لعضالهم السابق ضد الفرنسيين إبان غزوهم مصر
فمن قائل بأن الإنجليز لا يأتون إلا من البر الغربي والنيل حاجز بين الفريقين وأن
الفرنسيين كانوا أعلم بأمر الحرب ، وأنهم لم يمحروا إلا الخندق المتصل بباب
الجديد والنيل ، ومن قائل بضرورة الاعتناء بإصلاحه وغير ذلك من الآراء حتى
تفقوا على الرأي الأخير .

ولقد شاء قنصل فرنسا الذي فر من الإسكندرية وجاء إلى القاهرة عن
طريق رشيد أن يسهم في هذه الترتيبات الفنية في رسم خطط الدفاع عن القاهرة ،
يقول الجبرتي :

(ففي يوم الأربعاء (٢٢ محرم) ركب السيد عمر النقيب والقاضي والاعيان
المتقدم ذكرهم ونزلوا إلى ناحية بولاق لترتيب أمر الخندق المذكور وفي صحبتهم
قنصل فرنسا وهو الذي أشار عليهم بذلك ، وفي صحبتهم أيضاً الجمع الكثير
من الناس والأتباع والكل بالأسلحة (١) .

واشتركت طبقات الشعب في حفر الخندق وإقامة الاستحكامات ،
يقول الجبرتي :

(١٧١) أنظر المربع السابق .

(وشرعوا في حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس وأقبل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف الرونابجي ، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض أجرة خمسين أو عشرين ، وكذلك أهل بولاق ونصاري ديوان المدكس والنصاري والأروام والشوام والأقباط ، واشتروا المقاطف والغلقان والفتوس ، والحزم وآلات الحفر وشرعوا في بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية) .

ولم يكف أهل القاهرة بالتطوع للدفاع عنها بل هبوا لنجدة إخوانهم أهل رشيد عندما حاول الإنجليز معاودة الحملة عليهم وكانت زعامتها تنظم هذا العون في القاهرة وخارج القاهرة ولما بان ذلك الغزو الثاني لرشيد .

موقف الإنجليز والمهجوم الثاني على رشيد :

بينما كان الاستعداد لمواجهة الإنجليز بين الشعب على أشده ، والفرحة تملأ قلوب الجميع لانتصارهم على الإنجليز ، كان هؤلاء في الإسكندرية يشغلهم أمر الهزيمة وقد دفعتم الرغبة يستثيرها فنصل بريطانيا ... للانتقام إلى معاودة الغزو لرشيد ، بعد أن ذل كبرياءهم العسكري ، ولكنهم وجدوا هذه المرة قوة أكبر من شعب متساند مع جيشه وحكومته ومشاعر مهيأة للنضال حتى النصر .

كان بجانب العسكريين الإنجليز فنصل بريطانيا الدائب إذ ذاك على جر بلاده لاحتلال مصر .

لم يحتمل هذا الفتنل الصبر على الموقف كما انتهى إليه ، فلم يهدم — لا سيما بعد أن شاهد النتيجة السيئة — عن التحريض على غزو رشيد ، وعندئذ تابع تحريضه لمعاودة الغزو ثانية ، فذهب في جماعة من أعيان الإسكندرية ليقابل فريزر ويطلب إليه تدارك رشيد لأن الطاعون قد اجتاحتها ، فتقرر إيفاد حملة عهد بقيادتها للجنرال ستيورات .

وكانت رشيد قد أتعشا النصر الأول وفتح أعينها على خبرات جديدة في القتال ، وقد أصبحت بعد نصرها تستند إلى عمق كبير يسند ظهرها من مشاعر المصريين جميعاً ، ولم يكن مقدراً إلا أن تصمد أمام الغزاة بعد أن غدت مرهقة

من المصريين في بسالتها وبعد أن ارتبطت بثقة كبرى بينها وبين سائر الشعب :

التقاء الطرفين :

وتحرك الجيش الإنجليزي من الإسكندرية لمعاودة الهجوم على رشيد مرة ثانية واحتلال هذه البلدة وكان عدد قواته أربعة آلاف مقاتل في الثالث من إبريل سنة ١٨٠٧ والتقى الطرفان في ساحة رشيد وأحكم القدر للطرفين خيوط مصيره ، وارهف التاريخ أذنه . ليتسمع إلى الأمر الفصل الذي شامت هذه البلدة ان تلقية في سمعه تحدياً لمصير الحملة البريطانية ، وما جاءت من أجله ، ليسجل بدوره على يد رشيد لصراً جديداً يرمى أصول فجر جديد لمصر الحديثة .

أصبح جيش متيوارت على مقربة من رشيد . وإذا ذاك أنفذ كتيبة منه احتلت الحماة التي تقع جنوب رشيد بين النيل وبين ألكو ، وقد شاء القائد بذلك ضرب الحصار حول رشيد والخيولة ذون وصول المدد إليها من الجنوب ، وصيانة مؤخرة الجيش الإنجليزي ليسهل احتلال رشيد .

واحتل الإنجليز آكام أبي مندور ، وركبوا عليها المدافع ليضعفوا منها رشيد بالقتال ، ثم عسكر معظم الجيش الإنجليزي غربي رشيد وجنوبها ، وأخذ يحاصرها في ٧ إبريل ، ويضربها بالمدافع .

كان النزاع يظنون ان قصفا بالمدافع يلقي الرعب في نفوس الحامية والأهالي ومن ثم يسلبون مضطرين . ولكن راحت ظنونهم إدراج الرياح . فرغم إندائهم لهم أكثر من مرة بأن يدعوا ويسلوا مدبلتهم صاغرين فقد رفضوا ذلك بكل إباء وشمم ، وقد ازدادوا قوة معنوية وتماسكا ، ورغم تهديم الكثير من البيوت وقتل العدد الوافر من الأهالي ، صمدت رشيد أمام العدوان الفادر وتحمل الحصار ، وما نجم عنه من خسائر في صبر عجيب في انتظار عون القاهرة ومساندة إخوانهم من المصريين وهم يفتدونهم بأرواحهم في المقدمة ، بما أثار دهشة القائد الإنجليزي ، فقد كتب الجنرال متيوارت إلى فريزر في الإسكندرية يقول نقلا عن وثائق الحملة :

(. . . تبين لنا أن الأعداء لا يكثرئون بالمصايب التي تنزل بهم . ان قواتهم

لا تزيد على ما بلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان ، و ٨٠٠ من الأرنؤود وألف من
الاهالى المسلمين ، ولكنه نظراً لسعة خطوط دفاعهم . . وطبيعة مراقبتهم أرى
من الحكمة أن اتعجل باقتحام المدينة وأن نجاحنا معلق على نجدة المماليك . فإذا
جاءوا إلينا أمكننا ان نرسل إلى البر الشرقى من الذيل قوة تشترك معنا فى القتال ،
لأما الآن فيستحيل علينا ذلك ، لأن العدو متفوق علينا بقوة الفرسان . . وليس
لدينا مثل هذه القوة التى لها عمل كبير فى الجهات المنبسطة كالدينا . وفى انتظار
تلك النجدة يتبين لنا أهمية موقعنا فى الحاد . فإننا نتوقع ان يهاجمنا الأعداء فيها
وسأبذل كل جهودنا لاستبقائهما فى يدنا) . .

رشيد وطلب النجدة وموقف الوحدة الوطنية :

وبين حدود رشيد فى الدفاع عن ديارها ، واقتداء المصريين بنضالها التاريخي
خند الغزاة ، أرسلت تطلب النجدة من القاهرة بعد ان اضطرت وشعرت
بوطاة الموقف .

أرسل السيد نقيب لإشراف رشيد الرسائل للصعيد عمر مكرم يستنجد به
ويطلب إمداد المدينة بالرجال ، فقرأ السيد عمر مكرم الرسالة الأولى على الناس
وحضهم على التطوع لنجدة رشيد فاستجابوا إليه وتطوعوا وحملوا السلاح
وازمعوا على السفر لنجدة إخوانهم . وبالرغم من ان (كئشنا بك) لم يأذن لهم
بالسفر حتى يعود محمد على من الصعيد ، فإن كثيراً منهم لم يعبأ بهذا المنع وارتحلوا
لنجدة أهل رشيد والوقوف بجانبهم فى صد الجيش الانجليزى .

وتطوع كثير من اهالى البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد ، واقبلوا عليها
يتدفقون وقد مثل ذلك لونا جديداً من الشعور بالجماعة ، غير ان هذا لم يكن
ليسف الموقف ، إذ كان لابد من مدد من قوات الجيش المصرى ، ليقف
بجانهم فى المعركة .

عودة محمد على من الصعيد :

وعاد محمد على من الصعيد ، فى غضون هذه الأزمة الدقيقة ، ورشيد تتابع

بطلب النجدة ، فبلغ القاهرة ليلة ١٢ أبريل سنة ١٨٠٧ ونخرج عمر مكرم
والمشايخ والمحروقي للملاقاة ، وركب الجميع وذهبوا للسلام عليه ، ودار بينهم
الحديث في امر الانجليز فأظهر اهتمامه الكبير . ولكنه سخط على اهل
الاسكندرية سيما امين اغا لاذمكوا الانجليز من الثغر ولم يقبل لهم عذراً ،
ولما قالوا له : (اننا نخرج جميعاً للجهاد مع الرعية والعسكر) كان جواب محمد
على : (ان ليس على رعية البلاد خروج . ولما عليهم فقط المساعدة بالمال .
ثم انفض المجلس ، وسار بعد ذلك تدير الموقف بنشاط جدى) .

محمد على يستعد :

اطمان محمد على كثيراً . وسر لهزيمة الانجليز رشيد ، ولقي الحالة اقل
خطورة مما كان يتوقع . ولكن لم تملأ قلبه الطمأنينة تماماً فقد رأى ان الانجليز
قد يستأنفون القتال ، فيبادر إلى تجديد جيش لمحاربتهم ، وجد في استكمال
الاستعدادات التي بدأها الشعب من قبل ، وواصل العمل في حفر الخنادق من باب
الحديد وبولاق ، لإقامة خط الدفاع من القاهرة . من الشمال . وشرق اخايد
امام الخنادق تتصل بالنيل لتتلى بالمياه وتعرفل تقفم الجيش الانجليزى . ثم
اغرق عشر مراكب بين جزيرة بولاق والشاطئ ، لمنع مرور السفن الانجليزية
في النقل إذا ما جاءت من رشيد ، ثم نصب المدافع في شبرا وامبابة وجزيرة
بولاق ، وقد اشترك معه العلماء والشعب في العمل بحماسة ، واخذ يدبر المال اللازم
لنفقات الجيش ، يعاونه في ذلك علماء البلد والسيد عمر مكرم ، فجمعوا تسعة
من سكان العاصمة من اجل نفقات الرحف ، حتى تم إعداد الحملة ، فكانت مؤلفة
من اربعة آلاف مقاتل من المشاة وخمسمائة والفرسان ، ثم امرها
بالسير قاصدة رشيد بقيادة طبوزاغلى (كتنخابك) نائب محمد على .

كان اهالى رشيد ينتظرون في لهفة ان تنجدهم القاهرة بالمدد والمساعدة وهم
في صمود امام الانجليز ، وكان الانجليز من ناحيتهم ينتظرون ان ينجدهم المماليك
وهم يهجمون على الاهالى بغير جدوى ، ليتمكنوا من الاستيلاء على رشيد ،
ولكن هؤلاء أخذوا يسرفون ويماطلون في الوفاء بمهدهم ويرقبون تطور الحوادث

في حرص وقد وقفوا جانباً عن خلفاتهم لما راوا من حرج فراكزهم ، وقد بدأ الموقف يتحول إلى جانب رشيد بفضل استجابة القاهرة لها بالعون القوي ، استمر الضرب والحصار نحو اثني عشر يوماً ، كان الأهالي يناوشون مواقع الانجليز في الحاد فأنفذ إليها الجنرال ستيوارت مدداً من الجنود ، وركب المصريون مدفعين على الشاطئ الشرقي واخذوا يلقون القنابل على ميمنة الجيش الانجليزي ، بالبر الغربي ، عندئذ اجتاز الميجر ماكدونالد النيل عند مسجد ابى مندور في ١٦ ابريل ومعه قوة من الجنود عددها ٢٥٠ جديدا واستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين ، ولكن سرعان ما ارتدت القوة على اعقابها عندما تلقى المصريون مددا واستمر الضرب والحصار إلى أن جاء المدد الذي ارسله محمد علي ، عندئذ اخذ الموقف الحربي يتغير من اساسه ولقد كانت هذه الإمدادات المصرية مؤلفة من فرقتين يقود إحداها طبرزاغلي وقد اتخذ خط سيره الساحل الشرقي للنيل ، اما الثانية فكانت تحت قيادة حسن باشا وكان يضلك طريقه إلى رشيد بجذاء الشاطئ الغربي للنيل وقد ظلت كتائبها تسير إلى بجذاء واحد على ضفتي النيل حتى بلغت قبالة النقطة التي كان يعسكر فيها الجيش الانجليزي واتخذها نقطة امامية وهي قرية الحاد فمسكرت فرقة حسن باشا اتجهت إليها كما اتخذت الفرقة الأولى قبالتها قرية برنبال معسكراً لها ، وكانت كل قرية على مرمى البصر من الثانية .

بداية المعركة :

دار محور القتال حول موقع قرية ابى حاد ، لأن موقعها الاستراتيجي كان على جانب كبير من الاهمية . فمن يملكها كان يستطيع التحكم في منطقة رشيد كلها وقد تخير الانجليز احتلالها والدفاع عنها بشدة لحماية ظهر القوات المحاصرة لرشيد من احتمال هجوم القوات المصرية من الجنوب .

وكانت اهميتها الحربية ترجع إلى وقوعها في برزخ بين النيل وبحيرة إداكو وكان في شمالها ترعة ، كانت في ذلك الحين جافة تفصل بين النيل إلى قرب البحيرة وكان التحكم فيها من شأنه ان يقطع على جيش مصر ولوج هذا الباب الوحيد

السبل فيحول دون تمكنه من القضاء على الجيش الانجليزي المحاصر لرشيد ونجدة أهلها
غير أن قوات مصر إذ ذاك كانت من القوة لدرجة أن كان في مقدورها فتح ثغرة
في هذا البرزخ بين القوات البريطانية والفاذ منها إلى رشيد بل والالتفاف حوله
القوات الانجليزية نفسها ثم تشديتها .

وما أن رابطت قوات مصر في مواقعها ، حتى تقدمت منها طليعة من الفرسان
البواسل في صبيحة العشرين من شهر أبريل نحو مواقع الجيش الانجليزي في الحاد
وهناك التقت بكتيبة منهم بين المزارع ، فلم يسع هؤلاء إلا الارتداد إلى الراء
قلما لم يحكموا السحابهم انقض عليهم الفرسان المصريون وأحاطوا بهم فقتلوا
بعضهم وأسروا آخرين ، وقضوا عليها كقوة محاربة ، وعلم ستيوارت بهذا التلاحم
الذي خسر فيه جنوده وأنذر بتفكك أوصال جيشه والقضاء على قوة الحاد كلها ،
أرسل القائد ما كلود ومعه قوة من الجنود والمدافع وعهد اليه بقيادة القوة
المرابطة ثم رتب السكوتيل مواقع جنوده وكان عددهم ثمانمائة ، تركز ميسرتهم
إلى النيل بقيادة الماجور ولساند ، أما ميمته فكانت بقيادة الكبائن تارلتون
وكانت قرب بحيرة اذكو أما قلب هذه القوة فكان يرتكز إلى قرية الحاد نفسها
بقيادة الماجور مور .

ثم انقضى يوم ٢٠ أبريل دون أن تتعرض مواقع الانجليز للخطر وسرى
الاطمئنان إلى قلب ما كلود على سلامة مركزه وتحصيناته .

وقام الجنرال ستيوارت في ٢١ أبريل يطمئن إلى سلامة الخطة ومعدات قواته
فأخذ يفش خط الدفاع في هذه القرية فلاحظ بعض العيوب فيها ، إذ وجد أن
القوة في خط الدفاع لا تحتل في بعض نقاطها أي ضغط من قوات جيش مصر
إذا ما حدث وتكاثر عددها إذ كان من السهل أن تنفذ القوات المصرية عند تكاثرها
من إحدى ثغرات هذا الخط إلى قوات رشيد وتمزق شمل هذا الخط الدفاعي ،
لذلك عهد إلى السكوتيل ما كلود أن يبذل قصارى جهده للدفاع عن موقعه ، ثم
أجبره بالارتداد إلى شاطئ البحيرة في حالة تكاثر قوات الفرسان المصريين . فإذا
لم يستطع ذلك فعليه أن يترأس جمع مرتد إلى الجيش الانجليزي المحاصر لرشيد
إذ ذاك .

ولنظراً لأن ستيوارت كان قد أدرك تكاثر قوات مصر بشكل أصبحت فيه تتوق عدد الجيش الانجليزى عدة وعناداً ، فقد ارتأى أن ينتظر حتى اليوم التالى . ثم اعتزم أنه إذا لم تصله النجدة التى كان يرقبها الانجليز من الممالك برأ بوعدهم واتفاقهم السابق أن ينسحب من موقع الحماة ثم يرفع الحصار عن رشيد ليتراجع منها إلى الإسكندرية .

النصر فى المعركة الفاصلة :

وجاء اليوم التالى (٢١ أبريل) وكان يوماً أغر على قوات مصر وعصياً على القوات الانجليزية . فلم تأت امدادات الممالك المتوقعة : وتطلع الكونيل ما كلود إلى الأفق وأمتد بصره فرأى فى الصباح معالم الهزيمة لجيشه ، رأى القوات المصرية وقد تكاثر عددها وامتلا السهل برجالها وقد تهيأت إذ ذاك للانقضاض على جيشه لتلقى عليه درساً قاسياً وكأنما كان القدر قد أعد الهزيمة ليفرضها على بريطانيا المعتدية ، وكانت خيوطها تتهدد إلى هذا اليوم العصيب الذى مثل اليوم الفصل للحملة الانجليزية كلها .

وحى وطيس المعركة وواجهت القوات المصرية خصمها بأشد هجوم تضرب فى الشمال واليمين ، وتنفع الأمل الباسم المتفتح عن حجر جديد ، كسلة مراضة . موحدة الهدف فى مواجهة جيش الامبراطورية الذى هزمت به الفرنسيين . والأتراك من قبل ، لا تمزقها الخيانة ولا تعبث بمقوماتها السائس ، ولا تضللها الغايات الضالة ومن ورائها شعب متمسك يتحسس نفسه فلا يجد فيها إلا عزماً وقوة وصلابة نحو الجهاد فى سبيل صيانته بلده ومقومات حياته ودينه وتطهير بلاده من الغزاة الانجليز .

بدأت المعركة فى الساعة صباحاً ، واستمرت ثلاث ساعات سرياً كانت القوات المصرية فيها تحكم ضرباتها على العدو وخطتها فى السير فى المعركة .

تعبق الفرسان المصريون القوات الانجليزية الثلاث : القلب والميمنة والميسرة . فأجاطوا بقوة القلب ، وكان معها الكونيل ما كلود فانهالوا عليها بالرصاص من كل صوب حتى قتلت معظم رجالها ، وقتل من بينهم القائد ما كلود نفسه .

واحاطوا بالمينة فزقوا جنودها شرعزق ومهم قائدهم السكابتن تارلتون .
ولم ينج من القتل سوى خمسين اسرتهم هذه القوات ، اما ميسرة الجيش الانجليزى
فلم يجد قائدها سبيلا عن التسليم لقوات مصر وفك الحصار عن رشيد .

انباء النصر فى القاهرة :

واخذت انباء النصر تنتقل تباعاً إلى القاهرة فيتسابق السعاة إلى نقلها لينالوا
مقابل ذلك العطاء الوفير من محمد على وشرف السبق فى حلها إلى القاهريين .
يقول الجبرتي : فى يوم الخميس (١٤ صفر) حضر شخصان من السعاة وأخبرا
بالنصر على الانجليز وهزيمتهم وذلك أنه قد اجتمع الكثير من أهالى البحيرة
وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعين والعساكر وأهل دمنهور
وصادف وصول (كئخدا بك) واسماعيل كاشف الطوبجى الى تلك الناحية ،
فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأسروا من الانجليز طائفة وقتلوا منهم عدة
رموس نخلع الباشا (محمد على) على الساعين جوعتين ، وفى أثر ذلك وصل أيضاً
شخصان من الأثراك بمكانيات بتحقيق ذلك الخبر وبالغا فى الأخبار وأن الانجليز
انجلوا عن متاريس رشيد إلى مندور والحامد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى
خلفهم إلى أن توسطوا البرية ، وغنموا ضاماناتهم وأسلمتهم ومدافسهم ومهراسين
عظيمين .

وتمضى قصة النصر فتنتقل إلينا صورة عما يحدث من الإعداد لنقل الأسرى
إلى القاهرة وتزداد الأنباء توارداً فزداد محمد على سروراً ، كما أحيط عمر مكرم
علماً بالموقف وكان سروره لذلك بالغا ، وقد أطلقت المدافع صباح ذلك اليوم
(٢٣٠ ابريل) من القلعة والأزبكية وبولاق والجزيرة احتفالاً بهذه البشرى . وكان
احتفالاً بقوة الوحدة الوطنية فلم يكن النصر إلا من ثمارها .

وكان طبيعياً بعد ذلك ان يغد إلى القاهرة جموع الأسرى زرافات ووحدانا
كما حدث اثر النصر الاول فى رشيد .

طليحة افواج الأسرى :

وتطلع الناس لمقدم الأسرى واخذت طلائع هؤلاء تترى : تباعاً إلى القاهرة

في اليوم التالي (٢٤ أبريل) فحضر أولاً ١٩ إنجليزياً من جنود الخسيلة وعدة من الرؤوس فروا بهم وسط (الشارع الأعظم وأما الرؤوس فروا بها عن طريق باب الشعرية وعدتها نيف وثلاثون رأساً موضوعة على نيايت) (١) كرواية الجبرتي ، وقد وضعوها في وسط بركة الأربكية مع الرؤوس الأول (صفيين على يمين السالك من باب الهواء إلى وسط البركة وشمالها) .

وفي اليوم التالي (٢٥ أبريل) وصل تسعة أشخاص من أسرى الإنجليز ومعهم أحد ضباطهم ، ثم توافد في اليوم الذي تلاه (نيف وستون ومعهم رأس واحدة مقطوعة فروا بهم على طريق باب النصر من وسط المدينة وهزج الناس للفرجة عليهم وبعد النصر بثلاثة وعشرين رأساً وأربعة وأربعين أسيراً من ناحية باب الشعرية وطلعوا بالجمع إلى القلعة) .

الركب الكبير :

ثم جاء ركب الأسرى الأكبر في ٢٩ أبريل الذي ازدحمت شوارع القاهرة الرئيسية من أجل رؤياه ، وكان مظهراً اختلطت به مشاعر النظارة بين معاني الفرحة وعواطف الإشفاق بدافع النزعة الإنسانية .

فمقب المعركة جمع كتحدا بك جمهور الأسرى ومعهم جرحاهم ورؤوس قتلاهم وأترلهم في مراكب في النيل لتبلغهم تلك للقاهرة ليشهدهم سكانها ومن ثم يودعون في سجون القلعة .

وركب الأسرى وجرحاهم ومعهم رؤوس قتلاهم تحت حراسة الجنود المصريين وسأقت الرياح الشمالية السفن إلى القاهرة تشق عباب النهر في عزة وعلى ظهرها حطام معركة تسجل جزاء الفزاة أمام وحدة الشعب المتأسكة ، وتمنن السفن في المسير في صراع مع التيار وتستحث الخطى في لفه للقاه القاهرة ، فلا تواتها ريح الشمال بقدر ما ينفس عن حرارة لفه الجذلان بنصره ، المتشوق للقاه بنى عشيرته يشهدم مبلغ قوة جيشهم ، ومدى خذلان أعدائهم . . .

وبينما كان الجنود المصريون ممنودين بفرحة النصر كان الأسرى يتنازعهم

(١) . عبد الرحمن الجبرتي .

الأوهام والهواجس وتزاحم في عقولهم. الأفكال خشية سوء المصير ، فيتنبسون عنها حسباً ويأخذ منهم الخوف من ذلك بكل مأخذ ، ويحاول الفرد التمرد عن ذلك بحديث أو بمنظر ولكنه لا يلبث أن يرد في حيرة بين الماضي والحاضر .

وتبحر السفن عباب النهر وتطول الليالي أمام الجنود فيقطعونها بين وجشة الأسر وذلة الهزيمة ورهبة المنظر المنبعث من رؤوس زملائهم ، وتقرب السفن من القاهرة ، فيزداد الجنود المصريون فرحاً وشبطة بينما تزداد قلوب الأسرى وجلاً من أن تصبح هواجسهم حقيقة واقعة . فيذوقوا سوء المصير كزملائهم بالذين قطعت رؤوسهم .

وتنبليج أضواء الفجر وتكشف خيوطه عن معالم تلال المقطم فتكشف تحتها قباب القاهرة ومنازلها .

ويستيقظ الأسرى ليشهدوا القاهرة ، وعليها أضواء صبح جديد فيرونها لأول مرة فتصبح القاهرة للشهد معالم النصر في موكب الأسرى يطوفون شوارعها ومن ورائها شعب كان يتهاى إذ ذاك لبناء أصول دولة حديثة .

وتلقى السفن بمراسيها في بولاق في ٢٩ أبريل سنة ١٨٠٧ ويخرج أهالي القاهرة بين أخبار الأمن وموكب اليوم في حلم جديد فيتوجه الجميع إلى بولاق ويحوزون إلى الأزيكية وكانهم يتلاقون على ميعاد من القدر لمشاهدة الموكب . ويتكاثر عددهم كلما انتشرت الأخبار عن مجيء الأسرى فيمتلئ ساحل بولاق والطرق المؤدية إلى القلعة بالنظارة .

وتنزل أفواج الأسرى الإنجليز ساحة القاهرة أسرى حرب لا فاتحين ، كما كانوا يحملون ، وتسير جموعهم وقد تسكنت رؤوسهم وأبت أن ترفع إلا في ذلة ، وحوطهم رؤوس قتلاهم مرفوعة على رؤوس الرماح والتبايت وعليهم سمات الإعياء والجرح والتعب لا يكادون يشيرون الشفقة بين أهل القاهرة حتى يرمد منظرهم العدواني فيثير فيهم النعمة جزاء ما فعلوا ، وقد سار في مقدمتهم من قواد الجيش الإنجليزي المأجور مؤز والمأجور ويجلسند وكان يوماً مشهوداً .

وتابع الركب المسير حتى الأزيكية حيث صفت رؤوس الكثيرين من القتلى

الإنجليز السابقين في صفين على رؤوس التبايت الطويلة وسط الأذربكية وكانت
لظرة واحدة إلى هؤلاء من أسرى الركب كافية لأن تضاعف فيهم الرعب وتزيد
في نفوس معظمهم الإعياء .

وأخذ حتى الأذربكية يهوج بالرحم والحركة ، وكأنما خرج الناس جميعاً
ليزوا هوكب الأسرى في يوم النصر ، وكانت أسطح المنازل تزدحم بالنساء وهن
يعددن أبصارهن ليحظن بحيلة الموقف .

وحدث أن تمعد الماجور ويجلسند وضباطه رفع قامتهم إلى أعلى وهم يسرون
بين الجمهور ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك فيلقون بأبصارهم نحو الأذربكية حتى
اصطدمت تلك بأعين رؤوس أقرانهم محولة على التبايت وسط الأذربكية فارتفعت
نفوسهم وامتلات رعباً وأسى ، إذ ذاك ارتدوا إلى نفوسهم منكسرى الرؤوس في ألم
وحسرة وقد غدت بعد ذلك خطواتهم أثقل في المسير ، تضاعف تعيهم وتمسكن
فيهم السكلال والأسى .

ثم توجه الركب إلى الأذربكية فالتى بروس قلى الإنجليز إلى ما كان بها من قبل
ثم تابع المسير حتى بلغ القلعة فاستودع سجونها جوع الأسرى ، تحت الحراسة
المشددة وهناك وبين أحضان المقطم حيث كانت تربض القلعة ، استسلم هؤلاء
لنوم عميق ولكنه كان نوم السكليل المتعب لا القرار العين ، فكم كان يؤرقهم
شعور القلق بسوء المصير ، ويثير فيهم الوحشة ظلام السجون بجدرانها المميكة
الجاثمة على سفح المقطم يحترقهم الليل فيطول ، ويدهم الصبح ظلام الليل فلا يطلع
النهار عن أمل يبعث في قلوبهم الطمأنينة . وقد ظلوا على ذلك مدة والحوادث
تجرى حولهم سراعاً لتربط مصيرهم بمصير الحملة الإنجليزية كلها .

بينما كانت القاهرة تهوج بنشوة النصر تشاركها مصر كلها ، ورشيد تواجه
محنة بعد بطولتها وأسرى الإنجليز بين جدران سجون القلعة ينظرون ما يراه
القدر في مصيرهم ، كان التاريخ يسجل في حقيقته أقول نجم الحملة النادرة وفيما
خطتها الحربية والسياسية على السواء ، وضياح أطماح (مست) في سحب نفوذ
بلادها على مصر ،

انتقل الفريقان بعد معركة الححاد إلى محاولة مجانية كل أخطار الآخر. ومحاولة الاستعداد إلى المماليك في ذلك ، والمماليك بين الطرفين يقفون منها موقف المنتظر لما تسفر عنه الأحداث فيعلقون ولاءهم لأقواهما قدرة على تحقيق مآربهم في البلاد. وكان محمد علي إذ ذاك قد شعر بكثير من الاطمئنان بزوال خطر الحملة على البلاد ، ولكنه لم يهمل في السعى للاستعداد لمواجهة احتمالات الظروف . والعمل على القيام بواجباته الحربية كحاكم للبلاد من قبل الدولة العثمانية . إزاء هذه الحملة وتطهير البلاد منها .

وعلى غير علم بمجريات الأمور في المجال الدولي ، التي كانت تعمل إذ ذاك . لتقرير مصير الحملة ، أخذ محمد علي يستعد . فمضى يطالب المماليك بالوفاء بالتزامات ما عقد بينهما من صلح داخلي .

وعلى تركيا . بموقف رشيد الباسل من الحملة الانجليزية فأرسلت د كما يقول الجبرتي ، إلى محمد علي توصيه بمتابعة الحرب ضد الانجليز .

وسرعان ما شرع محمد علي على الفرار في الاستعداد المدو بتعمير القلاع التي كان الفرنسيون قد ألشأوها خارج بولاق كما قال الجبرتي : (وعمل متاريس بناحية ميت عقبة وغيرها ووزع على الجيابة جيلاً كثيراً ووسق عدة مراكب وأرسلها إلى ناحية رشيد لينبوا هناك سروراً على البلد وأبراجاً وجمعوا البنائين والفعلة . والنجازين وأنزلوهم في المركب قهراً .

ومضى محمد علي في استعداداته ولكن شاءت الظروف أن تحدد العلاقة بين الطرفين مؤقتاً فيتصالح الطرفان على نهج يتبعانه .

ومنذ هزيمة بريطانيا الحربية في رشيد كان الموقف الدولي يتجه بمحاذاته وآثاره إلى تقرير الغاية التي فرضتها رشيد على بريطانيا ثم تنفيذها من الجلاء النازح عن البلاد .

وكانت روسيا قد دخلت في حلف التكتل بدل النمسا ، وتولى المستر جورج كالج وزارة خارجية بريطانيا ، وضاعف نابليون نشاطه في مجال الشرق الأوسط . فمقد معاهدة تحالف مع إيران ، وبعث إليها الجنرال جاردين وكثيراً من ضباطه . ولم تعد الجالية الأوربية تخشى جانب الاهالي وكان أم غرض يرى إليه نابليون . هو خلق المتاعب في وجه أعدائه في كل مكان .

كانت بريطانيا وهذه الحوادث تجرى إلى مستقرها قد احتلت الاسكندرية ،
وقد شاعت وهي تفاوض الباب العالي الاحتفاظ بمصر ، لتكون بمثابة توازن
تستتله لإبان هذه المفاوضات إلا أن الجلاء العاجل عن مصر كان أمراً
مفروفاً منه .

فلم تكن حكومة بريطانيا قد وصلها بعد نبأ الاحداث التي وقعت في رشيد
وانتهت بدمشق قوتها الحربية ، ولكن الذي كانت تخشاه هو ما علقته من التقارير
الاولى لكل من فريزر ومست أن احتلال الاسكندرية وهو اجراء وقائي لا بد
منه للحيولة دون الغزو الفرنسي ، قد يصبح أكثر ثقلًا على امكانيات بريطانيا
الحربية لا تستطيع تحمله ، لذلك أصبح من واجب القائد العام ألا يتوقع بعد
حادث الاسكندرية أية استجابة للامدادات . وعليه أن يعرف أن نيّة حكومة
بريطانيا لا ترقى إلى درجة امتلاك مصر من جراء معاهدة صلح وبذلك عز على
فريزر أن يتماهى في وعوده لمساعدة المايك على استعادة القاهرة .

ولما وصلت أخبار وشوب وستيوارت في رشيد إلى بريطانيا ورأت مدى
البكارة التي حاقّت بمجنودها ، أصدرت أوامرها السريعة إلى فريزر بإخلاء
الاسكندرية ، أو العدول عن دخولها إذا لم يكن قد دخلها فعلاً ، وكانت الحكومة
البريطانية إذ ذاك تفضل احتلال صقلية عن الاسكندرية .

وفي نفس الوقت بذل الباب العالي جهده للحيولة دون طغيان نفوذ فرنسا
عليه فرض قبول فضيلة فرسية ورد على عرض فرنسا إبرام معاهدة تحالف
دفاعي مجوى بسؤاله عما إذا كانت فرنسا تنوى سحب قوات احتلال بولندا .

وقد دفعت الحوادث الداخلية وما انتهى إليه الموقف الدولي فريزر لأن يقتصر
في ذهنه فكرة الجلاء قبل هذه الحوادث رغم التعليمات التي أرسلت بتأجيل الجلاء
لحين صدور أوامر أخرى ، فانه جد في اعداد الخطة لإجلاء الاسكندرية حتى
اجلاها فعلاً قبل هذه الحوادث بقليل .

وبما هو إلا وقت قصير حتى أبرم صلح بين الطرفين المصري والبريطاني في
دمشق في سبتمبر ١٨٠٧ نص على جلاء جنود بريطانيا عن الاسكندرية .

وبعد ... لقد استراحت مصر من الغزو البريطاني الثاني بفضل وحدتها الوطنية في طليعة القرن التاسع عشر وكشفت بهذه الانتصارات عن شروق قوة روحية تحمل في طياتها معالم بحث جديد ، وخسرت بريطانيا بحملة فريزر بجانب خسارتها الحرية الكثير من سمعتها الحربية والسياسية .

وانتقلت مصر إلى حكم محمد علي ، فانتقلت إلى لون جديد من التحكم التركي وصمدت في تماسك حتى واجهته في ثورة عرابي في نهاية القرن التاسع عشر .

- الفصل السادس -

الوطنية المصرية

وثورة عرابي في مقاومة الإنجليز

كانت هزيمة إنجلترا في رشيد نصراً للوعي الوطني الطالع وإعلاء لروح مصر المكافحة منذ أن بزغ فجرها في طليعة القرن التاسع عشر ، وهزيمة الخطأ البريطاني التي سارت بحرى هذا التطور الروحي في نموه حتى تجلى في صورة أوضح في موقف رشيد ومن وراءها شعب متساند مع جيشه في صد العدوان البريطاني الذي تمثل في حملة فريزر سنة ١٨٠٧ ولما تبذروا هذه الطليعة إشرافاً شعبياً وقوة روحية تمثل بذور وعى قويم ينمو في إطار الفكرة الإسلامية في مشرق مصر الحديثة، فقد كانت طبيعة تكوينها الفكرى المبني على بساطة تفكير العصر السياسى في تخيير حاكم البلاد في حدود الولاء للخلافة الإسلامية عاملاً فرض عليها فرضاً: عامل حدد فيها من تخيير حاكمها من غير بنيتها ليكون هذا الحاكم في شخص محمد على ذى النزعة العلية الانوقراطية مهد روح المقاومة الذى انبثق في مصر منذ اللقاء الأول بين الشرق والغرب على يد الحملة الفرنسية وتجلى في مقاومة المصريين للحملة الفرنسية وظلم الأتراك والماليك وحملة فريزر — مهد ذلك روح السبيل لبزوغ فجر النضال القومى في النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ولذا تجلى ذلك الروح من خلال الفكرة الإسلامية فقد كان لتجدد المجتمع المصرى منذ هذا اللقاء وامتداده في النصف الثانى من القرن التاسع عشر لزيادة الاتصال بالغرب من عهد إسماعيل أثره الكبير في تطوير ذلك الروح بإيجاد نواة العلية المتوسطة من مجرد معنى رد الفعل إلى حقيقة النضال القومى الذى أشرق بانطلاق ثورة عرابي ، ثورة استهدفت القضاء على العلة الكبرى وهى التحكم الداخلى والخارجى وعلاج النكسة .

ولقد شاعت الظروف أن تمتد يد الضغط إلى الجيش ؛ هذه الهيئة المنظمة التي
تمتز بكرامتها ويدها سلاحها والتي يتميز وجودها بين الأمة بالاتحاد والشجاعة
لتعالج قضيتها بأسلوبها وتبلغ بذلك أهدافها .

وشاءت الأقدار أن تحرك الجيش وقد مكّنه من ظهوره شعوره بزوال
هيبة الخديوى القديمة منذ أن تولى توفيق خديوية مصر . ولقد بدأ الجيش أولاً
بالدفاع عن مصالحه الذاتية وانتهى أخيراً بالدفاع عن المصالح المصرية ورأيانه
يعمل على ذلك من قبل ، وكذلك بدأ الجيش في مايو سنة ١٨٨٠ ، إذ قام بعض ضباطه
وعلى رأسهم أحمد عرابي — ذلك الرجل الذي كره الطغیان وحاول محاربه في
شخص الحاكم المطلق الذي يمثل الخديوى — يقدمون لناظر الحرية يومئذ
شكوى احتجاجوا فيها على حبس مرتباتهم وتفضيل الأتراك الشراكسة في حركة
الترقيات على المصريين بدافع الاستعلاء العنصرى .

كان من الممكن تلافي الثورة بعد ذلك إذا ما قررت هنا أصول العدالة
وقوبلت ثورة النفوس في منتصف الطريق ، ولكن هكذا شاعت الظروف أن
يعالج الموقف بأسلوب كان منه انفجار يزمر إلى أصوله البعيدة في العقل الجمعي
للمصريين بعد أن تهيأت له الظروف وجاء موعده ليكون أداة للتطرد النيابي
في عهد توفيق .

بداية الخطوات :

وقد بدأت ثورة الجيش دفاعاً عن مصالحه الخاصة سنة ١٨٧٩ ، ثم انتهى
بها بالدفاع عن المصالح المصرية ، هكذا رأينا تباين ذلك من قبل ، وكذلك بدأ
الجيش سنة ١٨٨٠ إذ قام بعض ضباطه وعلى رأسهم أحمد عرابي يقدمون
لناظر الحرية يومئذ شكوى احتجاجوا فيها على حبس المرتبات وتفضيل الأتراك
والشراكسة في حركة الترقيات على المصريين بدافع الاستعلاء العنصرى وكذلك
تسيخير الجنود ، إلا أن الجيش يبدى هذه المرة لوماً جديداً في دفاعه عن
مصالحه إذ أخذت مصالح الجمهور تظهر منفصلة عن مصالح الأفراد عندما أشاروا
في شكواهم إلى الثمن والمحسوبية التي قضت بها حركة الترقيات فلما لم يبت فيها

فقدّموا عرضة أخرى لرياض طلبوا فيها عزل وزير الحربية فلما عد ذلك منهم تمرداً كانت معالجته لهذا الموضوع بالضغط لإسرافاً في الاستمارة بهم عندما تقرر يومئذ بمجلس الوزراء القبض عليهم فاستدراجهم إلى قصر النيل بحجة النظر في الإعداد لزفاف إحدى الأميرات فلما توجهوا قبض عليهم ولم تنفذهم إلا كتيبة على بك حلى التي أعدت لأن تدرأ عنهم مثل هذه الاحتمالات التي توقعوها علماً من حليفهم السرى في مجلس الوزراء — محمود سامي — قبل حدوثها ولما أنقذوا أصدروا بيانهم للجمهور يفسرون الحادث مبيدين طلبهم عزل عثمان رفقاً فعزل ونصب مكانه محمود سامي البارودي جزاء لإخلاقه لهم وبهذا بدأ الجيش دوره سعيًا لإقرار العدالة .

وكان لهذا الحادث الذي انتهى بانتصار عرابي وقع شهي في الأذان المرفعة فقد امتدى الشعب الذي عانى — من شتى المظالم — إلى القوة التي كانت تموزمه في محبته وكان ذلك عاملاً على بعث الروح المعارضة السكّانة إلى الظهور .

ورغم هذا كله لم تستطع الحكومة أن تحقق نياتها نحو الجيش وتطمئن إليه بل لم يستطع الجيش أن يركن إلى الاطمئنان إليها لتوقعه الشر على يديها وفقدانه الثقة فيها .

تحول الحكومة إلى الجانب المتطرف :

ولم تسكن محاولة الحكومة في معالجتها أزمة الثقة في الجيش بمختلف الاسترضاءات لتخفي طبيعتها بل كانت تلك أداة داعية لغموض موقفها تحميها للفرصة وقد بلغ القلق مبلغه بها حتى تحولت فجأة وبأتفه الأسباب إلى العنف في مواجهة الثورة محافظة على كيائها فقربت من موعد التصادم المقدور . . . حدث هذا عقب حادثة نافقة كانت ذات دلالة خاصة انتهت بها إلى هذه النتيجة الهامة ودلت بها على بالغ كرمها للحركة المرائية .

ذلك أن عربة أحد تجار الإسكندرية عندما كان الخديوى يقضى صيفه فيها وكان يقودها سائق أوروبي صدمت جندياً من فرقة المدفعية في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ بالقرب من سزاى رأس التين ، فلما أصيب ذلك نقله رفاقه إلى هذه المراسم

التي كان الخديوي إذ ذاك بها ملتسماً منه معاقبة الجاني فأثر (١) الخديوي من هذا الحادث ذلك الذي دل على مبلغ نزول هيئة الخديوي بين الجيش . وقد أمره بطردهم فأنصرفوا .

لا شك أن هذا الحادث وإن دل على سوء نظام الجنود فهو تافه وقد كان من الممكن أن يخطر عنهم رئاسة الجيش لعسايم بما يترأى والنظم العسكرية في الحالات العادية ، غير أنه كان ذا معنى كبير والخديوي ينظر إذ ذاك للجيش نظرة قلق فأصدر أمره بتشكيل مجلس عسكري لمحاكمة كثرهم لحوكوا وصدرت ضدهم أحكام بالثبوت القسوة كان أغلبها الأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات .

وإذا كانت حقيقة هذا الحكم مستمدة من طبيعة نظرة الخديوي للجيش فلم تكن جرأة الجنود إلا مستلزمة من جرأة زعمائهم على سيد البلاد وقتئذ . وقد كان نذيراً لتغيير الموقف كحالة لاسترداد هيئة الحكومة . حقاً لم يرض ذلك عبد العال بطلى فكذب يحتج لوزير الحرية فلم يسع الأخير إلا رفع الأمر للخديوي ، إلا أن الخديوي يمدى استياءه منه ، بل يعده . تطاولوا عليه فأغضب وزيره حتى استقال فعين الخديوي بدله صهره داود يكن .

وقد سعت الحكومة بعد هذا لفرض سيادتها وزهبتها من جديد في ظل هذا التغيير فزادت القلق والتذمر تمكناً من قلوب العراقيين وزادت سعيها لإقرار الطمأنينة .

فلما بدأ عراقي يعمل لإسقاط نظام الحكم القائم لبي تأييداً من جميع الطبقات وفي مقدمتهم العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان فوزع عليهم منشوراً (٢) يحضهم على تأييده في القضاء على منابت الاستبداد وإقامة الحرية السياسية للمصريين وقد وفدت على العراقيين وفود من جميع أنحاء القطر وسلمت لهم عرائض النيابة عنهم معلنة تضامنها معهم واطمأن عراقي إلى أن الأمة تناصره بعد أن أصبح الجيش في قبضة يده فلما شابت إرادة الحكومة أن تشتت شمل العراقيين بنقل ألى عراقي وعبد العال حلى خارج القاهرة كانت

(١) أحمد شفيق : ملك كراتي في نصف قرن ص ١١٨

(٢) ص ٩٠ ج ٤ مصر للمصريين سليم النقاش .

تعد عصبنة نشاطه للعمل ويطلب من بهارتها. كالحكومة مستبدة بتعليم نظامه
في عصره.

حين عرابي على ألا يطيع الأوامر التي صدرت إليه بإبعاده هو وزميلة
وأرسل (١) في يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ في اليوم التالي لسندوه هذه الأوامر
إلى وزير الخارجية بحججه أنه هو وجنوده سيحفظون أمام قصر عابدين بعد أن
التفت كافة الرعايا. الضباط على ثلاثة هذه المظاهرة العسكرية في ذلك اليوم
التقديم طلبات الأمانة إلى الخديوي وأصحاب المقاطع والوزارة وتأييد المجلس النيابي
وزيادة عند الجيش بجانب مطالب أخرى ومطالب للرجل من زعيم عسكري
إلى زعيم سياسي البلاد. واختتم الجيش في الموعد المضروب في ميدان عابدين
وهذا أمل عرابي على الخديوي مطالبه، ومنع الخديوي له منصوصاً كاد أن
يتكون تماماً فأسقط بإيعاز واستدعي شريف الخاليف للوزارة. وأجبت المطالبات
الأخرى بحجة بها ومن ثم انصرف الجند لشكائهم بعد أن ضمن الجيش قلب
نظام الحكم المطلق إلى نظام الحكم النيابي، وقد عهد بناء على طلب عرابي إلى
شريف باشا أن يؤلف الوزارة الدستورية ويدهو مجلس شورى النواب. للامتداد
في ٢٦ ديسمبر، وبهذا طبع الحركة بالحال السياسي واستهلت لجرها المشرق
في القضاء على التحكم التركي القديم.

ولم يقبل شريف الوزارة في بادئ الأمر بل ظل متردداً لحظة تدخل رجله
الجيش الذي بدأت بواكيره في محاولة عرابي لإدخال بعض أعضائه، وقد ترجم
شريف عن طبيعته التي تتحاشى الطفرة وتنبه إلى الاعتدال فلما أحس بالآمن
من ضباط الجيش وتسلم من أعيان البلاد ضمناً بإيعازاتهم ألقاها (٢) في ١٤ سبتمبر
سنة ١٨٨١، وقد رفع إلى الخديوي كتاباً ضمنه الأسباب التي حدثت به إلى قبوله
وتأنيده الوزارة (٣) وبرنامجه أعماله.

(١) ص ٢٤ مذكرة عرابي - كشف الستار ص ٢٩٩

(٢) الوقائع ١٧ - ديسمبر سنة ١٨٨١

(٣) المرجع السابق.

وفي الوقت الذي كاد النظام الجديد يستقر فيه بإعلان اللائحة الأساسية حتى لم يبق على إعلانها وصدور المرسوم بها سوى اجراءات شكلية من قبيل الترخيص بين المجلس والحكومة على التعديلات البلقية التي أدلت بها لجنة المجلس على المشروع توجه مالت قنصل إنجلترا وقنصل فرنسا في مصر إلى عابدين في ٨ يناير سنة ١٨٨٢ وقدما للخبديو مذكرة مشتركة من دولتيهما مؤرخة في ٧ يناير ومكتوبة بصفة رسالة برقية من وزيرتي خارجيتيها إليهما في مصر يملنان فيها ويقوما بحجاب الخديو وتأييد سلطته وحقه في جدرود القريملات المهادنة . ولقد كان معنى ذلك هو تحريض الخديوي على الوقوف عند الاتجاهاات الخارجية بوقفيها على المذكرة بين خاصة الشعب ورجال الجيش وبالسخط الشامل والتكسب لدولان دولهما في ٩ يناير يقول أن المذكرة أبدت عنهما كل ثقة بلقد كان كل شيء يسير سيرا حسنا وكان ينظر إلى إنجلترا كما ينظر إلى دولة بارعة عظيمة عامية لمصر . أنها بلان فالمصريون يعتقدون أن إنجلترا ألقت بنفسها في أحضان فرنسا وأن فرنسا تتجهها أسباب خاصة بحربها التوسعية على التدخل هنا .

وجد الخديوي نفسه أمام دعوة صريحة للعبث بدستور البلاد ولكنه لم يتسجل الامور، لذلك كان من نتيجة هذه المذكرة إحياء العناصر المعتدلة من الوطنيين إلى جانب المتطرفين فلقى بعد ذلك قانون شريف الاساسي الذي عرضه على المجلس معارضة فيما يتعلق بالميزانية بل تحول هذا المجلس وأصبح أقل مسالمة للحكومة .

وقابل الضباط المذكرة بالسخط العام فتوجه الوزراء وعلى رأسهم شريف إلى الخديوي وتداولوا في الامر فاستقر رأيهم على إبلاغ المذكرة إلى تركيا مع الإعراب عن عدم قبولها وتوجه شريف إلى ممتدى فرنسا وإنجلترا وأنهى إليهما اعتراضه (١) على المذكرة ونفى الخلاف حول حق المجلس في مناقشة الميزانية . وبالرغم من أن المشروع كان خلواً من حقه في النظر في حرية البتات العالي أو الاموال الخاصة بنشئون الدين العام أو قانون التصفية أو الانتصافات الدولية ولكن كان من جهة النظر في مرتبات الموظفين الاجانب والإدارة

(١) رسالة في ١٥ يناير سنة ١٨٨٢ .

الأوروبية عند نظره الميزانية وقد اختلفت نظرة الدولتين في فهمها لهذا الحق.
حول الميزانية فكانت بريطانيا ترى عدم منع المجلس من أن يأتى من نظرها ولكنها
كانت تنسج على أن يراعى عند نظرها مصالح بريطانيا المالية. وقد كانت منصبة
حول الإدارة الأوروبية هيئة موظفيها بهذا الحق (١) للمجلس.

محاولة فرنسا وإنجلترا للعمل بالإصلاح النيابي :

أشارت مظاهرة ٩ سبتمبر دبلوماسية أوروبا عامة وإنجلترا وفرنسا خاصة.
ولم يتبع عراقي مشورة الذي أصدرته في ذلك لعدم التصيب بشرح فيه لممثلي
الدول الكبرى إلا أمور التي دفعت الجيش إلى عمله وتبعده بحفظ ما لجميع رعايا
الدول الموالية لمصر من المصالح عندما تتجلى بعد تأليف وزارة شريف الانحاء.
نحو دعم مصالح المصريين بجانب هذه الضمانات وقد أدى إلى الاصطدام
بالاستبداد الداخلي وانتصار الثورة العرابية عليه إلى الاصطدام بالاستبداد
الخارجي كما تمثله أوروبا .

وفي الحقيقة أن المساس بمصالح الأوروبيين في البلاد كما تمثلها المراقبة الثنائية
كان لا بد منه ومصر تسعى إلى الاستقلال بالإدارة الداخلية التي بسطت نفوذها
عليها ولاقتدت هذه الثورة معناها الاصيل .

وقد حاول الخديوي برئيس وزرائه وزعماء المجلس من الأعيان
الاعتدال حتى يستطاع تفادي ذلك التضادم أو التخفيف منه غير أن ذلك لم يكن.
دأب جميع الثواب بالخزيان اللذان قاما بالحركة النيابية كانا يمثلان طبقتين مختلفتين
فالأعيان من الطبقة الموسرة وكثير منهم من الأتراك والشراسة وعلى رأسهم
شريف ثم الجيش وهو من الفلاحين ولم يكن دأب الطبقة الأولى أن تدافع عن
طبقة الفلاحين السكادحة فلا تتبع إلا الاعتدال الذي يصون حقوقها وأن تكون
ظلاً للخديوي وهو ما لم يكن متوقفاً من طبقة الفلاحين . ولقد كان لفرنسا (٢)
أثرها الكبير في دفع الأمور إلى نهايتها .

(١) وولتين في المسألة المصرية من ١٦١ من الترجمة .

(٢) شكل جيتا وزارة جديدة في فرنسا وكانت سياسته القضاء على الحركة في مصر قبل أن
تتمدد إلى شمال أفريقيا وقد رأى من الحكمة (من ١٩١ وولتين) في ١٤ ديسمبر الاتحاد مع
نموتاً لتأييد الخديوي في الوقت الذي كان فيه عراقي جفاور على ميزانية المجلس .

أما فرنسا فكانت نظرتها متطرفة نحو الميزانية إذ كانت تريد أن إعطاء المجلس هذا الحق مناه القضاء على جميع النظم التي قررها قانون التصفية والمراقبة الفرنسية الإنجليزية .

ولقد طلب قسلاً الدولتين من شريف بإيعاز من الرقيين ألا يخول المجلس النواب حتى تقرير الميزانية وقدماً إليه في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة بهذا المعنى أثناء اشتغال اللجنة الدستورية بالنظر في اللائحة الأساسية لأن ذلك الحق ، ولم كان مقصوراً على المصالح التي لم يخصص لإرادتها الدين العام فإنه يضر بالضمانات المقررة للدائنين (١) ولاعتقادها بميول المجلس العدائية نحو المنصر الأوروبي في الحكومة ، وقد كان ذلك الانجاء ممثلاً لمعتمدى الدولتين والرقيين وحكومتها وكان الموقف دقيقاً وعلى جانب كبير من الخطورة وقد رأى شريف أن يلتقي به في منتصف الطريق فيرجى المجلس البت في المادة المتعلقة بالميزانية ولكن حيناً جأول كما فشل المستر بلنت فقد كان المجلس يتجه إلى استعمال حقه كاملاً وعرض شريف فكرة التأجيل عليه يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨٢ وذلك بأن أحاد إليه في ذلك اليوم مشروع اللائحة الأساسية بصحبة كتاب إلى رئيس المجلس يتضمن رأى القنصلين يحرمان المجلس حقه في تقرير الميزانية على أن تمضي المفاوضات فيها وأن يتم الاتفاق بين الحكومة والنواب على باقى لصوص اللائحة وطلب (٢) من المجلس إقرار اللائحة كما عدلها مجلس الوزراء ولأن تترك النصوص المتعلقة بالميزانية إلى حين ، وأن يندى النواب رأيهم في أمر الميزانية لتجعله أساساً للمفاوضات بين الدولتين .

الإعراض عن شريف :-

أرقتى المراهيون وخاصة البلاذ من الأعيان والملاك بشريف ما دام عاملاً على إقرار النظام الذى يقضى على ذلك الاستبداد الداخلى الممثل فى توفيق وبناته والاستبداد الخارجى الذى يوازره فيفسد على الجيش والشعب خيانه

(١) من معتمد فرنسا الى .

(٢) الواقع فى ١٤ فبراير سنة ١٨٨١ .

فلما تقدم التقويم الآخري لم يثبت بمشروعات الائتلاف الجديد كان حزبه أن يؤلب
عليهم الخديو أيضاً عندما يجد في مثل تلك الحالة يستورد به هيئة فيستعيد ما كان
مستبد في البلاد . ولذا كان قد تولى عدم الاستعداد للإعراف عن شريف
بمنتهى مشكلة الميمنية .

ولما كان ذلك يفتح المجال لظهور هذا الرجل بقرى وعراق المستأمنة
التجارب الطبيعية بين الطرفين فلما لمس البارودي الموقف دفعهم بحكم أهدافه إلى
الطرف لينفتح المجال أمامه لظهور فالتقى الطرفان في نقطة ازداد الموقف
بشدته حدة .

اتجه العراقيون إذن والنواب إلى الإعراف عن شريف وقد استأمنوا
الأحداث التالية أن يزيد النواقيع تعبيراً ووضوحاً .

فلما ظهر كتاب شريف في المجلس ظهر على جمهور النواب روح المعارضة ثم
والولا اجتماعاتهم في منزل رئيسهم سلطان باشا وانتهت مناقشتهم إلى قرار رفض
طلب التأجيل وإسقاط الوزارة وقد اقرب الطرفان (١) من أزمة حادة .

وفي اليوم التالي لورود الخطاب للمجلس وضعت لجنة الدستور الجديد
تقريرها عن كتاب شريف وعرضه على مجلس شورى النواب بمجلسة الإرباب
سنة ١٨٨٢ وقد رأيت ضرورة عرض المسألة على هيئة المجلس مع التعديلات
التي قررتها مجلس الوزراء ليقرر (٢) ما فيها ما يلي .

واجتمع المجلس في أول فبراير وعرض سلطان على المجلس تقرير لجنة
الدستور وعرضت اللائحة الأساسية المرسلة من اللجنة إلى مجلس الوزراء
والتقرير الذي أدخله المجلس عليها ثم قرر المجلس اعتبار اللائحة قانوناً مستجيلاً
واجتماع اللجنة في نظر التعديلات التي أدخلتها الحكومة على مشروع اللائحة
وإعداد الجواب على كتاب رئيس الوزراء .

(١) رسالة سفتكس إلى مصر في سنة ١٨٨٢ .

(٢) الوثائق لـ ١٤ فبراير سنة ١٨٨٢ .

واجتمعت اللجنة فأقرت بعض تعديلات مجلس الوزراء على مشروع اللائحة ووضعت نصاً جديداً للوائح المتعلقة بالميزانية وهو : « أن تعرض الميزانية على مجلس النواب فينظر ويصح فيها ويمن من أعضائه لجنة مسلوطة لمجلس للنظر عدداً ورأياً لتقررهما جميعاً بالاتفاق أو الغالبية فإن وقع بينهم خلافه وكان العدد متساوياً من الجانبين وجب إعادة الميزانية للنواب ، فإذا أن يؤيدوا رأيه بالنظر وإما أن يؤيدوا رأى لجنة النواب فإن كان الأول وجب تنفيذ الميزانية وإن كان الثاني ولم يكن حصول الوفاق كان الحكم في ذلك حكم بند الخلاف وهو أنه عند وقوع الخلاف بين النظر والنواب على أمر ما أن ينفض مجلس النواب وإما أن يستمر النظر وفي هذه الحال أى إذا أيد النواب رأى اللجنة وغالفوا رأى النظر تنفذ الميزانية في المم الضروري منها لإدارة المصالح وعدم تأخير الأشغال تنفيذاً مؤقتاً ويبقى أمر الميزانية إلى ما بعد تسوية المسألة بأي طريق ووسيلة .

ووضعت اللجنة تقريرها وهو التمسك بإعادة الميزانية كما وضعتها لجنة الدستور ورفض التأجيل بعد أن عرض بموقف شريف ورأت الرد (١) عليه عفوياً ولما اجتمع مجلس شورى النواب يوم الخميس في الثاني من فبراير بدت مناقشتها النواب تشفق عما وراءها من الانحد بتصيب كامل لحق المجلس خروجاً عن اتجاه شريف .

اقترح محمد بك الشواربي تشكيل لجنة تتجه للخديوي مطالبة لإقرار ما استقر عليه رأى النواب فينى إبراهيم أفندي الوكيل رأياً أكثر اعتدالاً وهو السير أولاً إلى شريف ليرفع إليه الأمر السوي للكتاب في المجلس ويطلب منه التصديق على اللائحة فإن أبى فليكن التوجه للخديوي فيتجه أحد أفندي محمود اتجاهها لشبه تحدياً فهدى ضرورة نشر تقرير اللجنة الذي تلى على النواب « فيعلم لدى الرأى العمومى » .

(١) الواقع في ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ .

١٠. وانتخب المجلس اللجنة (١) لمقابلة الحديوي مكونة من ١٥ عضواً من زعماء المجلس وقد توجه هؤلاء في نفس اليوم لشريف فأبى التصديق على اللائحة وبها المائدة الخاصة بالميزانية إلا بعد مفاوضة إنجلترا وفرنسا . عند ذلك توجه الحديوي في لفظة تناولها الجرأة يعلن إليه توقف شريف عن التصديق وطلبوا منه سرعة الانحياز هذه للسألة .

لم يكن للنواب في ظل نظام المجلس الاساسى والداخلى الحق في مثل هذا السلوك والمجلس لم يتخلص بعد من نظامه القديم ولكنه كان لو ان من التجاوز وحل بالاصرار الرجعية على الرضوخ لاهدافه .

أما الحديوي - ذلك المفلوب على أمره - فقد سلك سلوكاً ذا مرمى بعيد إذ رضى بتغيير وزارة شريف ولكنه ترك النواب اختيار غيرها متبازلاً عن حقه في ذلك ، ولم يكن اتجاهه غير دستوري قطعاً بل لم يكن مألوفاً أيضاً بحكم التقاليد المرعية ، كان اتجاهها يدل على تسليم ماكر الظروف ليترك لنفسه حرية الفعل عند الاقتضاء عندما يلقي مسئولية ما يحدث أن يحدث من أحداث سياسية على عاتق المجلس ، وقد استغل المجلس ومن ورائه العرايين الموقف ومظهر الحديوي كالمفلوب على أمره في بساطة ورشوحوا الرجل الذي وضع يده في أيديهم وآزرهم وحاول حماية ثورتهم وهو محمود سامي البارودي ولم يكن غيره ليصلح ليحمل مطالب العرايين من السياسيين .

وزارة البارودي :

واجتمع البارودي بالنواب الخمسة عشر في داره وهناك استقر الرأي على أعضاء الوزارة ثم صدر المرسوم (٢) إليه بتكليفه بتشكيل الوزارة وبالمثل أن دفع

(١) حسن . باخا العفري . سليمان باشا أبانقة . محمد بك الصوري . أحمد بك علي . أحمد بك العفري . محمد بك الفوارسي . أحمد أفندي محمود . أحمد أفندي عبد الفتاح . أحمد بك السيوف . إبراهيم أفندي الوكيل . أمين بك العفري . علي بك شعير . عبد القويد أفندي بنزري . محمود سليمان . مهدي أفندي يوسف .

(٢) الواقع في ١ فبراير سنة ١٨٨٢ .

للخديوى كتابة بقبولها (١) وأسماء أعضائها متضمنة بما جده في الإصلاح الداخلى والعمل على صدور اللائحة كاملة دون المساس بالمبادئ النيابية كحقوق الدين والمعاهدات وصدور المرسوم بتشكيلها فكان البارودى رئيسا ووزيرا للداخلية وأحمد عرابى وزيرا للحرية والبحرية . وعلى صادق باشا للمالية ومصطفى فهمى للخارجية والحقانية وعبدالله باشا فكرى للعارف وحسن باشا الشريعى للأوقاف ومحمود بك فهمى للأشغال وقد استطاع التشكيل الجديد أن يحقق أطماع بعض الشخصيات وفى ظلها شمل الجيش حركة تزيينات شاملة وسمت كل الضباط الذين ناصروه وأيدوه .

صدور دستور الثورة :

وكان أبرز ما عنت به وزارة البارود هو إعلان الدستور فاجتمع مجلس الوزراء يوم ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ برئاسة الخديوى للنظر فى مشروعه وبعد أن نقحه المجلس بعض التنقيح أقره فقام به وزير المعارف والأوقاف إلى المجلس لمرضه عليه وقد تقرر فيه مبدأ سيادة الأمة وحق المجلس فى نظر الميزانية .

كان الخديوى فى فبراير قد أصدر مرسوماً يتحدد نيابة أعضاء المجلس بخمس سنوات ابتداء من يوم انعقاده كما أصدر بعد هذا أمرين أحدهما تعيين سلطان باشا رئيسا للمجلس فى هذه المدة والآخر بتحديد لإجتماع المجلس فى هذه السنة على أن يكون يوم ٢٦ مارس ١٨٨٢ وبهذا تطور مجلس شورى النواب فاقسم بسبب النيابية من ناحية الحقوق وليس من ناحية الشكل فقد ظل كما كان من قبل طبقياً لا يمثل غير العمد والمشايخ والأعيان فى احتفاظه بالهيئة القديمة وهو

(١) ما أن . تولى البارودى الوزارة حتى أرسل الباب العالي إلى الخديوى فى ٩ فبراير من طريق ثابت باشا مندوبه فى القسطنطينية نص القرار الذى أصدرته تركيا فى هذا اليوم من النزاع الذى قام بين مجلس النواب وشريف حول الميزانية متضمنا التصح بإيجاد الوثائق سنفا للتدجيل الأجنبى . أنظر ملف ثابت باشا محضلة رقم ١٦٤ . خطاب ثابت إلى الخديوى دار المحفوظات التاريخية — أنظر المرجع فى الملحق هذا وقد أرسل القرار ردداً على سابق طلب الخديوى باستعمال القوة لإخضاع مجلس النواب .

من هذه الناحية لم يكن يحل الأمانة تحتلها كالملا بالثمن الذي تقو به الأمة وليكن
كل خطوة جريئة إلى الأمام.

ولم يهجم الناس بسوء النية المستور والاجتماع الأعضاء بين نشوة النصر
يتناقشون ولكن فيم داوت مناقشتهم؟ وبأى روح؟ روح النصر وفي حدود
الأهداف الحقيقية التي رسم الملاك من أجلها لتأييد الثورة لإتجاهها الآخر لإيجاد
نظام حكم تعاوني، وعاشت مصر فترة قصيرة من الحياة النيابية في عهد الثورة لأول
مرة في تاريخها الحديث تحكم نفسها بنفسها وتمارس سلطتها الشرعية بنوابها على
أساس كونها مصدر السلطات وتستقل بشؤونها الداخلية من دون العناصر الأجنبية.
فهل ظل هذا الفجر مشرقاً لامعاً في أفق مصر تماج على ضوئه شتونها وتغنى على
هتفه قواهم طامعيتهم في الناس والفلم؟

كان التطور التليج لونا مائفاً لالتجارات أظهرها فالبست عليه بوحى من أهدافها
الاستعمارية وكذا أنها أطلاحت بعرض اسماعيل على أساس أنه في زعمها — الموهو
التضال القوي في نهاية حكمه — كان لا بد لها من أن تكتسح أمامها [عراي] .
بعد أن آثر مصلحة بلاده عليها على أساس أنه المقيم في رأينا لهذا النظام ١١

في هذا الوقت كانت بريطانيا تعتقد فيه على أن تفعل في الأمر بحمد السيف
وإنما كانت تنتظر حجة تتدفع بها في هجومها على مصر وما كاد التفكير يأخذ
طريقه بحل المسألة عن طريق تركيا حتى استقر على حلها بقدر مؤتمراً بالاشتراك
بدعوة من رئيس وزراء فرنسا دي فريسليه فلبت الدعوة ألمانيا وروسيا
وإيطاليا والنمسا وإنجلترا وقبل أن يقرر المؤتمر قراره بدعوة محلية بالإسكندرية
بحجة قيام عراي بترميم الطراني وخربت الإسكندرية بالدافع ليقف المؤتمر أمام
الأمر الواقع وتفرد هي بوحدة النفوذ في واحدة النيل.

قامت الحروب سجالات بين مصر وبريطانيا وكلية الشعب يقف بجانب جيشه يقف
أقوده بالصلوح يقف الماونات المادية ولما احتل الإنجليز الإسكندرية بعد أن
أخلوا الجيش المصري والشعب إلى كنفهم التواو حبه اختار هناك مؤقفاً

حسيناً له هيئة مهندسوا الجيش والثورة ووثيقين أركاناً حربيين وأمنياً يصعب تنظيم قواهم ويحصى عواقبهم بمساعدة الألاف من أهالي المديريات المجاورة.

وكان موقف الشعب وعنايته بقواته في هذه المرحلة من مراحل الثورة موقفاً يفر عن الشجائب بدافع البرقة الوطنية ولم يكن ثمة من يشك في أن جهادنا وطلق. بعد أن آزده رجاله من جميع الأجناس والأديان لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز .

وقد تبرع الأحرار والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية بالتقود اللازمة للجيش وأظهر المدبرون والموظفون على اختلاف مراتبهم شعورهم فحوم وزاد التطوع للجيش وسائر الأشغال العسكرية .

وكان الناس من فلاحين وبنود ذاهبين إلى الحرب برحانهم واختيارهم بمشوقين لمقاتلة الإنجليز وكان سكان القاهرة يبحرون في المدينة ليلاً يتخون بمديح عرايا .

وقد أبدى أعيان الوجهين البحري والقبلي شهامة عظيمة في إمداد الجيش بكل احتياجاته وبدأ على الأهالي شديد قلقهم للدفاع عن وطنهم .

ولما قامت الحرب لم يكن في خزانة الحكومة شيء من المال فقد نقل الأجانب أموال الخزانة وصندوق الدين إلى الأسطول وكان من الأهالي من تبرع بنصف ما يملكه من القلل والمواشي ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن العرض لعدم قبحته على الدفاع بنفسه . وكانت تلك وقفة الشعب وعرايا يوالى جهاده للحيولة دون نفاذ القوات المستديرة إلى القاهرة من منطقة كفر الدوار ، فلما أصبح في ذلك إستعداد العدو إلى الشرق وإستطاع عرايا نقل قواته إلى الميدان الشرقى حيث كان له دوره الوطني في ذلك لولا العناية التي التي لم يكن يتوقعها من بعض ضباطه .

فقد أن استقر الجيش وقواده بالتل الكبير أخذت البلاد ترسل إليه آلات الحرب وأخذ الجنود والأهالي يتنافسون في إكتناء الخسوف وإقتناء المتاريس . وقد تبعه التكبيرون من أهل الحرب حتى أصبح الميدان الشرقى عالماً بالمتاريس من زمامة الشعب وجاء إلى عرايا عدد هائل من المشايخ والعلماء .

بمحاولات المساس بالوحدة الوطنية :

من الوسائل التي حرص الاحتلال البريطاني في مصر على إتباعها كي يستقر حكمه في البلاد إلى أكبر فترة ممكنة - سياسة التلون في المعاملة بحيث لا يبدو سافرا - فلا يستخدم السيف في موضع اللين - فكان يرضى ولا ينضب ويفرق ولا يجمع - لتحقيق بده هي العليا ، وهو بهذا إذ يحاول المساس بالإسجام الوطني - يبقى على محصر في حالة من التفكك والتبعية .

وكان من وسائله في ذلك إمارة موجهة الأقليات ، وقد تعرضت مصر لهذه المحاولات بصورة شتى .

وتجلى فلسفة الاحتلال هذه في كتاب اللورد كرومر (مصر الحديثة) واضحة ، فقد عبر عن رغبة عميل الاحتلال إلى خدمة بلده على حساب مصر وانظرته نحو : الشعب المصري ، فقد حل مصر على أنها ليست شعبا متجانسا ولكنها بلد خليط من الأجناس والأديان : مسليون ومسيحيون وإفريقيون وآسيويون وأوروبيون ، نظرة إستعمارية تقليدية تجاه الحقيقة ولكنها تبرر الوصاية الأجنبية بحجة عجز هذه العناصر المختلفة عن حل أمورها وإقامتها وضرورة بقاء الأجنبي « الأرقى » ، أمضا ليكون بذلك سلطة وميزانا وحكما .

ورغم أن الحكم البريطاني قد تحطمت محاولاته على صخرة الوحدة الوطنية الراسخة في مصر ، فلم يتوقف الإنجليز طيلة مدة إحتلالهم عن هذه المحاولات ، وقد أتيهم أكبر فرصة لذلك يوم إغتيال اللورد في طرس باشا غال سنة ١٩٠٩ ، فقد حاولوا أن يجعلوها فتنة دينية في البلاد رغم أن القضية كانت سياسية تماما كما كانت تنطق بطبيعتها وكما جاءت في مناقشات مجلس العموم البريطاني إذ ذاك . وكان بطرس باشا غالى يحاول إقناع الجمعية التشريعية بإصدار قانون بمنح امتياز شركة قناة السويس . وكان يشاركه في الوزارة بالطبع وزراء كلهم مسلمون .

وقد اغتيل قبله وبعده سياسيون مسلمون على أيدي مسلمين ، ولكن المحاولة الإنجليزية وضلت قتها بعد الحادث القبطي في أسيوط سنة ١٩١١ ، ثم بعد المؤتمر المصري ردا عليه في مصر الجديدة .

ولم تكن يد السير ألدون جورست المعتمد البريطاني بعيدة عن الدعوة إليهما .
وعما يؤكد ذلك أن الوزارة كانت مؤيدة لعقد هذا المؤتمر القبطي ، وهي التي
فكرت في إسناد رئاسته إلى مصطفى رياض باشا عميل الاحتلال ، وأوعزت إليه
برئاسته رغم شيخوخته .

ولولا أن الاحتلال كان مقتبلا بهذه الحركة أو راضيا عنها ، لما فكرت
الوزارة في تأييدها ، وعما يؤيد ذلك أيضا أن جميع مواضيع المؤتمر القبطي ، قد
خلت تماما من أى معارضة إنجليزية للإحتلال أو انتقاد لسياسته أو مطالبة بتحقيق
وعوده ، فى حين أن طابع المؤتمرات الوطنية فى ذلك العصر والعهد - كان توجيه
الامة لمقاومة الاحتلال والجهاد فى سبيل الاستقلال ، وعما يستوقف النظر حقا
أن خطباء المؤتمرين لم يقولوا كلمة ضد الإحتلال ، وعما يشرف تاريخ محمد فريد حقا
أنه لم يشترك فى هذه المظاهر التى تتناقى مع منهج مصطفى كامل فى تدعيم الوطنية .

وقد كتب محمد فريد عن ذلك فى مذكراته : « فى أثناء سجنى » ، شرع فى
المؤتمر المصرى الذى جمعه محمد سعيد باشا بناء على رغبة السير ألدون جورست
لمعاداة الاقباط وبالتالى التفرقة بين الاقباط والمسلمين .

وشاء الإنجليز أن يشغل المصريون بأنفسهم عن الاحتلال وأن يجدوا أعداء
من بينهم بدلا من التركيز على العدو الحقيقى ولكن عبثا حاولوا : فسرعان
ما احتوت هذه المحاولات وغيرها الحركة الوطنية المصرية الحقيقية وغرقت فى
خضم حركة التنوير الليبرالية الكبرى التى عرفتها مصر منذ الإمام الشيخ محمد عبده .
ومن بعده ثم احتوتها ثورة ١٩١٩ التى وجهت أعنف الضربات إلى محاولات
الإستعمار فى هذا المجال ، وكان تعميق الوحدة الوطنية من أهم وأعمق إنجازات
ثورة ١٩١٩ وقيادتها التاريخية التى تمثلت فى زعامة سعد زغلول الامة المصرية .

الوحدة الوطنية

في ثورة الشعب ١٩١٩

لم تعرض مصر بالتسليم، بإخفاق ثورة عرابي سنة ١٨٨٢، بل ما أكدت روحها
بممكن مدة عشر سنوات حتى أخذت ترفع رأسها بين المهدوم لجميع في مد قومي
جديد، منذ بداية القرن العشرين أخذ الكتاب الصحفيون يدعون الشعب للوحدة
الوطنية والتماسك لماودة مواجهة الخطر الاستعماري كما كانت تمثله بضفة خاصة
بريطانيا، بالاحتلال لمصر. حتى تبلورت الدعوة على الحزب الوطني ككل ومن
بعده وصلت الحركة الوطنية رجل الشارع في عهد محمد فرید، داجية النضال من
أجل الحرية على أساس الوحدة الوطنية للمساعدة للصامدة .

خطا الوعي القومي ينتشر حتى نجاة الحرب النظمي الأولى فمكاتب ميلاد
عمل ربي جديد.

ولقد بدأ الاختيار الثوري ينساب بين المجتمع المصري ضد الاحتلال عندما
بتطاع بذلك الاحتلال بوجه السافر أن يصل إلى قلب المجتمع إبان الحرب
بتجارفه مباشرة بمسأ بالقيم التي كانت قوام ذلك الروح والتي كان يعيها وعياً
مباشراً ويحرص عليها حرصه على كيانته وحياته . ومن ثم كان يمكن للاختار
الثوري مع أكبر مصادره على الدفع الحركي ولما كان الاحتلال أكثر احتكاكاً
ومساساً بالقاعدة الشعبية ونظراً لأنها كانت إذ ذاك وهي البيئة المحافظة تمثل
مكن هذا الروح في قوته كانت تلك تتأهل بطاقات ثورية كبرى .

كان الاختيار الثوري ينمو في فترة الحرب في ظل الحماية ضد الاحتلال فتربط

حزير: يشعور واحد بأن تحمل مختلفاً في مستوياته بين فرد وآخر أو طبقاً وأخرى
بكل باختلاف النظر والاستعداد للتجاوب مع تحديات الاحتلال بين الفلاحين
والعمال والبرجوازية من المثقفين .

أما العامل السياسي فقد كان أدخل إلى وهي المثقفين منه إلى وهي سائر
الطبقات وكان هؤلاء ينظرون القومية غلبة وبكرامة ثم هيمنة « لهذا كان حشدهم
من الاختيار الثوري القائم على الوعي السياسي يمثل خطاً وإفراً عالمياً .
على أن هذه الانساب بالوعظ ما كان لها من تأثير عظيم في الإسهام في الاختيار
الثوري فإنها لم تكن تمثل السبب الرئيسي لذلك ، بل كانت تلك الأسباب الثانوية مساعداً .

فصبر لم تنضب فقط لشطف العيش والفاقة والمظالم الاقتصادية بالضررائب
والمصادرة وغير ذلك بل بسبب أم وهو ما وراء كل ذلك ، من المساس
بكرامتها . فقد تحمل هذه كلها لو كانت لاية وطنية أو فكرة إنسانية ولكن
علام الاحتمال ؟ وهل إذا اكتسبت انجلترا الحرب فتكبل مصر بإخلاق اليهودية
في ظل الحماية وتحرمها من حقوقها القومية السياسية أو تسلبها التعدي على
غيرها ؟ ولكن ربما كان ذلك للشعور أدخل أيضاً إلى وهي المثقفين . ولو وضع
لديهم من غيرهم .

أما السبب الرئيسي العام الذي يمتد الأمة بالاختيار الثوري فلم يكن فقط ما وراء
المظالم من المساس بالكرامة السياسية بل المساس بالكرامة في حقها المرتكزة
عليها في الأعماق أساساً ، الروح المصرية الذي يمتد بأصسوله في أعماق التاريخ
المصري العريق ويقوم عليه كيان الأسرة إذ ذاك والمجتمع وهو وإن كان
في مستواه قوياً عند الفلاحين والمحافظين إلا أنه كان يعتبر أقرب إلى وهي
للشعب كله .

ولقد استطاع الاحتلال وهو يفصح عن طبيعته الظالمة الجارحة بأساليبه التي
تجملت في مظالم السلطة العسكرية إلى حد كبير أن يوصل إلى قلب المجتمع حتى طرق
مكامن وجدانه طرقاتاً مباشراً حارقاً فيما احتواه من قيم روحية . ولقد عاش من
أجلها الشعب في إطار الأسرة ومن ثم بعثه بمثاقم على اختيار قوى .

كانت مصر إذ ذاك تعيش في إطار قيم الأسرة بما انحدر إليها من غابر
حضارتها وامتزجت بقيم من الحاضر بما خلق منها كيافاً روحياً قوياً ووحدة
وطنية متأسكة صامدة عبر العصور.

وسرعان ما امتدت من القاهرة إلى سائر أرجاء مصر جذوة قوية مضطربة
ولاذ فوجي الاستعمار بالثورة فإنه لم يلبث بعد الصدمات الأولى أن حاول تفتيتها
فاستخدم الشدة في مواجهتها في الداخل ثم حاول عزلها خارجياً وبدأت الثورة
بمظاهرات سلمية ألفها الطلبة يوم ٩ مارس ١٩١٩ فتصدى لها البوليس ثم أضرب
طلبة الأزهر وجميع المدارس وخرجوا في مظاهرة اشترك فيها الجمهور هاتفين
بحياة مصر مطالبين بالحرية فلم يسع القائد البريطاني إلا أن أصدر أمراً بمنع
المظاهرات منذراً المتظاهرين بالعقاب على أنهم يرغبون في خروج بعض القوات
البريطانية في الشوارع وفض المظاهرات لم يعأ بهم المتظاهرون .

ولم يلبث الحامون في ١٠ مارس أن أسهموا في هذه الثورة فأعلنوا
الإضراب عن عملهم احتجاجاً على المرقف الذي تردت فيه البلاد وكان ذلك
بمثابة دعوة لطوائف الشعب أن تلتهم في وحدة واحدة من الإضراب الشامل
احتجاجاً ولبدء شعورهم الكاره للاحتلال فكان ذلك من عوامل نجاح الثورة .
وما لبث أن قام إضراب الحامين الأهلين وتبعهم زملاؤهم الحامون الشرعيون ،
ومن ثم تعطل القضاء في جميع المحاكم ثم امتدت جذوة الثورة لإشتعالاً فأضرب
في اليوم نفسه عمال المناير وعمال السكك الحديدية فتعطلت المواصلات ودواوين
الحكومة ومواصلات الشركات الأجنبية وأقيمت الحواجز والمتاريس في كثير
من الأحياء وهوجمت سيارات نقل جنود العدو كما خفرت الخنادق .

وفي ١٦ من مارس قامت مظاهرة من النساء وقدمن احتجاجاً مكتوباً إلى
متمدى الدول الأجنبية برغم محاولات الجنود البريطانية الحيلولة دون تنفيذ عملهم
وقد كان لوقع ذلك أثر في نفوس الشعب وقد عمل على تعبئة المشاعر وحث على
المضي في ركب الثورة بحماس تحدوه روح التضحية .

ومن القاهرة لامتدت شعلة الثورة إلى الأقاليم بعد أن ضربت لها القاهر مثلاً

في التضحية ورسمت لها الطريق إلى الحرية ومضى الاهالى قدماً بنزعة قومية ووعى
سياسى وإن اختلفت مستوياته بين الجمهور فقد أظهرت القاهرة مستواها الاعلى
من الاختبار بين المثقفين .

وامتدت المظاهرات بين سائر المثقفين امتداداً أفقياً من القاهرة . إلى سائر
مدن الإسكندرية وطنطا ودمهور والمنصورة وشبين الكوم والزقازيق وبنى
سوف ومانيا والفيوم وأسيوط وسائر العواصم وما لبثت الثورة أن امتدت إلى
صميم القرية تتجاوب الفلاحون معها من خلال معاناة مساوىء الإحتلال وقد استمرت
فكرة قطع المواصلات إبتداء من ١٢ مارس وما بعد استمرت فى الوجهين القبلى
والبحرى رغم إندارات القائد البريطانى بالويل لمن يحاول العبث بالمواصلات حتى
إضطرت إلى منع الانتقال من قرية إلى أخرى وتوجيه حملات إلى الأقاليم لقمع
الثورة وحراسة المواصلات .

ومع تماسك الوحدة الوطنية كان امتداد الثورة إلى أعماق الريف وقد
امتدت كذلك فى القاهرة وبلغت عمقا روحياً أثر فى نضالها الطبيعي فاشتدت فى
ثورتها إشتداداً حتى عاد الأزهر كما كان من قبل فى ظل الثورات المصرية
الأولى من تاريخ مصر الحديث . قلب الثورة النابض . فخل بالخطباء من كل
الطبقات والأديان .

وفى ١٧ مارس قامت مظاهرة كبيرة نظمت بإحكام وحرصت القيادة
البريطانية على دهم المساس بها حقنا للدماء التى قد تزيد من حماس الثورة فأرسلت
حكمدار العاصمة الإنجليزى ليسير فى المقدمة حتى لا يصطدم الثوار بالجنود
البريطانيين . ولا غرو فقد جمعت بين جميع الطبقات من علماء وقضاة ومعلمين
وعامين وتجار ورجال أعمال وطلبة الأزهر والمدارس وطوائف الصنائع إلا أن
السلطات البريطانية لم تلبث أن شددت على المظاهرات حتى لا تتكرر وبرغم ذلك
مضى المد الثورى وخرج عمال العناير فى يوم ٨ مارس قاصدين الأزهر فاعترضتهم
قوات العدو وبابل من يراها فسقط كثير من للقتلى والجرحى ثم مالبث النبلاء
أن حاودوا الكرة فى ١٣ مارس إحتجاجاً على سفك الدماء وقد إلتصمت الثورة

بالحرص على صيانة أهدافها القومية وإذ كانتا قتالفت جماعة من الثوار تولوا حفظ النظام في أثناء سير المظاهرات وفي أثناء الاجتماعات التي تعقد وقد ضمنت هذه الجماعة التي توعدها الإنجليز بالويل والعقاب بالشرطة الأهلية .

وقد نجحت بريطانيا في حصار الثورة في الخارج بتأثيرها الدولي وإعتراف مؤتمر الصلح بالحماية، ثم محاولاتها استخدام العنف واللين تارة . في الداخل . ومن ثم كانت دار الحماية إذ ذاك بقصد أن ترى للشعب علم جدوى ثورته وتدفعه لقبول الأمر الواقع ، وقد كان وقع ذلك الاعتراف ، بلا جدال بين الشعب مؤثرا ، فقد قابله بدهشة مقرونة بمرارة وألم .

على أن ذلك وإن ترك آثاره بحكم الطبيعة إلا أنه لم يؤثر على تماسك الشعب ولا صموده ، وقد تجلى ذلك في بقاء البلاد بلا وزارة وفي إحجام عن قبول الوزارة حتى يأمنوا الخروج هليما ، وقد اضطر النبي علجا لذلك بتحويل وكلاء الوزارات سلطة الوزراء ، وتجلي ذلك من ناحية أخرى في مواقف الطلبة وإصرارهم على استمرار الإضراب .

كان هؤلاء مضربين طوال شهرى مارس وإبريل ، فلما دعاهم النبي إلى المدارس ابتداء من ٢ مايو ظلوا على إضرابهم فأصدر بلغا في ذلك اليوم أنذر فيه بإغلاق المدارس إذا لم يعد العدد الكافي لفتحها ، ورغم هذا كان رد الطلبة على هذا البلاغ بإقامة المظاهرات احتجاجا عليه بدلا من الإذعان له .

ولما لم يعودوا إلى مدارسهم في الموعد المحدد في البلاغ وهو ٧ مايو ، أمر بإغلاق جميع المدارس حتى يدعو باستئناف العام الدراسي التالي فانتهر الطلبة هذه الفرصة واستمروا في إقامة المظاهرات الكبيرة وتعرض لهم الجنود البريطانيون فأصيب كثيرون ، كما قبض على آخرين .

ولما أعلن تعطيل الوزارة وسائر المصالح الحكومية في يوم الثلاثاء ٦ مايو أثار ذلك الإعلان غضب الجمهور فعمت المظاهرات نواحي القاهرة في ٦ مايو احتجاجا على ذلك .

واستمرت الثورة وإن اتسمت بأسلوب مسالم فقد كانت تتطوى على غضب
يغيم عليه سكون نسبي .

وبدأت الحكومة تشعر بوجود ذلك السكون النسبي فأرادت إصلاح معظم
الخطوط الحديدية ، وأخذت السلطات العسكرية كثيراً من الثقة وأتاحت السفر
من القاهرة ومعظم مدن الوجه البحري ، بدون جوازات سفر اعتباراً من ١٠ مايو ،
كما ألغت جوازات السفر للوجه القبلي أيضاً ابتداء من أول يونية .

ومع هذا الهدوء النسبي أخذت تنساب إليه أنباء الخذلان أمام مؤتمر الصلح
فتجلى أثارها بين الشعب . وفي ذلك الوقت من شهر مايو أعلنت شروط الصلح التي
كان الحلفاء قد قرروها وسلمت إلى الوفد الألماني في مؤتمر فرساي في ٧ مايو ١٩٢٠
لجاءت التصوص الخاصة بمصر من المادة ١٤٧ إلى المادة ١٥٤ مؤيدة للحماية التي
فرضتها بريطانيا على مصر وقد قبلتها ألمانيا ضمن ما قبلته من شروط الصلح وأصبحت
جزءاً من معاهدة فرساي التي وقعت أبضت فيما بعد في ٢٨ مايو عام ١٩١٩ .

وقد كان لاعتراف المؤتمر بذلك أثر أليم في نفوس المصريين كما كان للاعتراض
السابق على الحماية من الولايات المتحدة أن يثير الشك في نفوس الشعب من جدوى
كسب المجال الدولي بجانب القضية المصرية وما لاجدال فيه أن الثورة في صدارتها
حتى هذا التاريخ ، كانت قد خسرت بالاعتراف الدولي بالحماية البريطانية على مصر
قوة لو كانت قد توافرت في هذه الفترة لحققت كل أهدافها .

ولم تكن خسارة مصر ثمرة سيطرة بريطانيا على الموقف الدولي فقط بل أيضاً
لمعلم توافر الجوال الدولي لمصر في ذلك الوقت الذي ينظمه رأى عالمي حر أو معناد
للاستعمار على نحو تستطيع به موازنة تلك السيطرة في المنظمة الدولية مثلاً ، فقد
كانت حركة التحرر العالمي في بدايتها .

وكان من الطبيعي أن ينتهي ذلك كله بانتقال المعركة السياسية إلى ساحة مصر
مستندة إلى تماسك الوحدة الوطنية .

ولقد أخذ شعور بريطانيا بالثقة في هدوء مصر يتجلى في خطبة ألقاها
الورد كرزون بأسم حكومته في ١٥ مايو في مجلس اللوردات عن الحاجة

في مصر . فأقر بأن الحالة قد تحسنت عن دى قبل وإن لم تبعث على الرضا ، وأن النظام قد عاد . ثم أخذ يشير إلى بعض الأحداث التي حدثت كإضراب الموظفين والطلبة . . وغير ذلك ، ثم تكلم عن اعتراف ولسن بالحماية البريطانية على مصر وما سبقه من اعتراف فرنسا وروسيا بها على أثر إعلانها عام ١٩١٤ وما تضمنته معاهدة الصلح المعروضة على ألمانيا وحلفائها من الاعتراف بها ثم قال : وعلى ذلك لا يمضى زمن يسير حتى تنال الحماية الاعتراف العام ، وتساهل عن الفائدة التي جناها المصريون من الثورة ، وإنه إذا كان الغرض من هذه الثورة وما صاحبها من الخسارة في الأرواح والممتلكات لإنهاء علاقة البريطانيين في مصر وتحقيق استقلالها فقد قضى عليه بالفشل وأن حكومته لا تنوى مطلقاً أن تتخلى أو تغفل عن الالتزامات والنفقات التي تحملتها عندما وضعت مهمة حكم مصر على عاتقها وأن هذه الالتزامات والنفقات قد تأيدت بإعلان الحماية البريطانية عليها ثم أبدى عطفاً على الألمان المشروعة في دائرة الحماية . ورأت حكومة بريطانيا كعلاج للاضطرابات في مصر إيفاد لجنة برئاسة ملتر لتحقيق أسباب ذلك ، واقتراح القانون النظامي اللازم في سبيل الحكم الذاتي وضمان المصالح الأجنبية في ظل الحماية البريطانية .

ولم يأت خطاب كرزون مقرراً للواقع ، أو حقيقته ، في كل ما جاء به ، بل كان في جوهره تعبيراً عن شعور بريطانيا في ثقة بمزوجة بالتحدي من أنها قد حققت قسطاً من السيطرة على الثورة بما يعنى في نظرها تمهيد السبيل إلى حد ما لنقل الحركة السياسية إلى الداخل ، حتى لم يعد إلا الإصرار على إرسال لجنة ملتر للعمل على تثبيت الحماية ، كما كان إيداناً بانتقال الحركة السياسية إلى مصر حول الحماية .

ولقد اضطر بريطانيا إلى ذلك السلوك موقفها من الثورة في الخارج والداخل ورغبتها في استكمال نجاحها في الخارج .

وكان لزاماً على بريطانيا أن تستكمل تأييد الموقف الدولي للحماية بالحصول على موافقة المصريين عليها كي تصبح شرعية لاسيما وأن معاهدة الصلح مع تركيا لم تكن قد أبرمت فقد كان من المحتمل أن تصرح تركيا بأن مصر لم تقبل الحماية

فلا يمكن بهذا أن تعترف بها ، وبالتالي لا يمكن التنازل عن حقوق سيادتها الرسمية لدولة غير مصر إذا كان من الضروري أن تتنازل عنها . على أن ذلك لم يكن ميسوراً لإنجازه بالرغم مما قطعت بريطانيا من خطوات للسيطرة على الثورة في الخارج والداخل بمجرد إرسال لجنة ظاهرها تحقيق أسباب الثورة وباطنها العمل على الحصول على اعتراف المصريين بالحماية ومن ثم تشكيل شرعيتها فلم تكن الثورة قد قامت بعد حتى يصبح من السهل أن يوجه إليها ذلك التحدى فيتلاشى غرضها القومى الأسمى .

كانت بريطانيا قد قطعت خطوات في مواجهة الجبهة الداخلية لتقييد الخواطر لقبول الحماية ، فلم يعد ممكناً لاستكمال ذلك إلا وزارة تشرع وتميد النظام وتمهد الطريق لأعمال لجنة ملنر .

ولقد جاءت خطبة كرزون إثباتاً للعمل ونقلًا للمركة فى اليوم الذى نشرت فيه خطبته فى ٢١ مايو ١٩١٩ بدأت بريطانيا تنفذ ما اعترفت عليه ، فاستدعت رجلاً كان بينه وبين سعد جفاء وطلبت منه تشكيل وزارة جديدة فألفها بنير برنامج قومى لا يهمل شيئاً إلا دفع الشعب السكينة والقييد لتثبيت الحماية .

ولقد انتهزت بريطانيا فرصة الخلاف بين أعضاء الوفد وبدأت العمل بإرسال لجنة ملنر إلى مصر لأمور منها فى نظرها على الأقل إنه إذا لم تنته إلى تحقيق الغرض فى الحصول على اعتراف المصريين بالحماية فهى بذلك توسع رقعة الخلاف بين وحدة الوفد بما انتهى إلى تصدع الوحدة القومية .

ومع بداية التحدى البريطانى أخذت الجبهة الداخلية تتحرك لمواجهة المركة فقد كان من الطبيعى مع بداية خذلان القضية المصرية أمام مؤتمر الصلح وتسرب أنباء ذلك الخذلان إلى مصر ، أن يزداد اعتقاد المصريين بأن المسألة المصرية لم يعد فيها إلا أن نحارب على أرض مصر ذاتها وأن قوتها لتحقيق النصر هى وحدتها القومية ومن ثم بدأ الاهتمام فى الداخل بالحفاظ حول تماسك الجبهة الداخلية وما لبث ذلك عقب الإعلان عن إرسال لجنة إلى مصر لإمضاء معاهدة الصلح بما أيد الحماية البريطانية على مصر أن أصبح مسئولية تاريخية أقيمت على ماق

الوفد فقام بها الجهاز السرى بقيادة عبد الرحمن فهمى خير قيام .
وأخذ الطرفان يلتقيان فى معركة الحماية فى صراع سافر فى ظاهره منذ أن
تولى محمد سميد رئاسة الوزارة ، وفى باطنه كان نصالاً ثورياً يدعمه الجهاز السرى .
بالشدة والضراوة للحفاظ على تماسك الجبهة الداخلية بكافة الوسائل .

خرج الشعب بعد أن تألفت الوزارة يرد على تحدى بريطانيا بالاحتجاج على
تأليف هذه الوزارة (١) ويمضى فى تعبيره عن أهدافه بما يثبت استمرار الثورة
بعد ذلك ، وكان أروع تعبيراً فى مقاومته للجنة ملنر بما دفع بريطانيا أن تشعر
بقوة الثورة وبقوة تماسك الجبهة الداخلية وبفشل سياستها التى قامت على تجاهل
الوفد ، بما يدفعها لأن تتراجع عن غرورها ودعواها والاقتراب من
الامانى المصرية .

كانت مهمة هذه الوزارة الاولى : إعادة السكينة والنظام فى مصر ، فوجه
سعيد جهده كله فى ذلك ، فضى بسياسة كان ظاهرها كسب ثقة الشعب ، وباطنها
دفعه إلى الرضاء بالواقع ، لمحاول شغل الشعب عن السكتاح السياسى بالاهتمام
بالمسائل الجزئية الخاصة ، بزيادة أجور الموظفين والإفراج عن بعض المعتقلين ،
لتهدة الخواطر ، فنجح فى ذلك نجاحاً كان موضع تقدير اللبى .

ولقد كان من نتائج إمضاء معاهدة الصلح ونجاح الوزارة فى التعجيل بإعادة
السكينة أن تساهلت السلطات العسكرية وأذعنت لإقتاعه بتحويل قضايا الوطن
من المحاكم العسكرية إلى المحاكم الأهلية باستثناء حوادث الاعتداء على أفراد
القوات البريطانية وإن جاء إيقاف المحاكم العسكرية مؤقتاً ، كما استجاب اللبى
بطلب الوزارة الإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين كما ألغيت الرقابة
على الصحف .

على أن ذلك ما لبث أن تكشف مغزاه أمام الشعب فعرف باطنه من أنه لم يكن
مقصوداً لذاته ، بل كان مقصوداً لشغل الشعب عن السكتاح السياسى فكان التامس

(١) عبد الرحمن الرافى ثورة ١٩١٩ ج ٢ ص ٣٩ وما بعدها .

يستريون بنيانه حتى تقوم عليه أحد الغلاة لقبوله الوزارة وتهيئة الخواطر للرضاء
بالواقع فشار عليه ورماء بقتيلة في ٢ سبتمبر ١٩١٩ لم تصبه ولكنها هزت
أركان الوزارة .

على أن النبي مالبث أن أدرك مباشرة حقيقة الموقف ، في ضراوة المقاومة ،
من تماسك الجبهة الداخلية وذلك عندما علم الشعب بنبا لإرسال لجنة ملنر ، فسرعان
ماهاجت الخواطر فتواصى المصريون بمقاطعتها .

دور الجهاز السرى :

ولقد ظهر دور الجهاز السرى ، في معركة الحماية ، يستمر في قوته وشده لإزده
وحمايته ضد الدسائس والنصوم التي شاء الاحتلال الاستناد عليها في هذه المعركة
السياسية ، والحفاظ على الخط الثورى عموما متماسكا قويا ، والوحدة الوطنية
صاعدة بالتوجيه تارة والتنكيل بالدسائس تارة أخرى .

وصدرت الأوامر في أوائل سبتمبر عام ١٩١٩ إلى مصالح الحكومة
ودواوينها لإعداد التقارير والبيانات والإحصاءات اللازمة التي ينتظر أن تطلىح
عليها اللجنة عند وصولها إلى مصر (١) .

وأعلن رسميا في ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ في لندن تأليف اللجنة برئاسة ملنر وزير
المستعمرات ولقيف من العليمين بشئون مصر المدنية والحربية ، وقد تجلّى منذ
إنشائها البرم والسخط على تأليفها فقامت مظاهرات الاحتجاج في القاهرة
والإسكندرية منذ أوائل أكتوبر ١٩١٩ والأيام التالية (٢) لإعلانا للاحتجاج
على تأليف اللجنة وقزبلت المظاهرات بالعنف البالغ ، كما حاولت الحكومة فض
هذه المظاهرات بمختلف الوسائل ومالبث الموقف أن تفتق من هذا الهياج عن
بلاغ صادرة من دار الحماية عن قدوم لجنة ملنر وذلك في مساء ١٤ نوفمبر ١٩١٩
وحددت مهمتها بأنها ستقوم باقتراح النظام السياسى الذى يلائم مصر تحب الحماية ؛

(١) دكتور عبد العزيز رافى : ثورة مصر سنة ١٩١٩ ص ٢٠ وما بعدها .

(٢) عبد الرحمن فهمى ، ثورة ١٩١٩ ، ص ٩٣ .

وقد رد الحزب الوطني على البلاغ في بيان إلى الأمة أعلن فيه سياسة عدم المفاوضة مع المحتلين ، وأعدت لجنة الوفد المركزية بيانا أذاعته في ١٦ نوفمبر ١٩١٩ احتجاجا على صدور ذلك البلاغ وعدته مخالفا للبادئ التي أعلنها الحلفاء والبادئ التي جعلت أساسا للهدنة والصلح ، وإرادة الشعب المصري الذي يعرف ما هو مصير بلاده .

وعلى أثر صدور بلاغ دار الحماية، قامت المظاهرات في العاصمة منذ ١٥ نوفمبر واشتدت في اليوم التالي ، وانتهت إلى خسائر في الأرواح من الاصطدام بالبوليس والقوات الإنجليزية .

وحدثت في الإسكندرية مظاهرات في ١٥ نوفمبر لإثراء اطلاع الجماهير على بلاغ دار الحماية انتهت بتصادم ثوري بينا وبين البوليس والجيش البريطاني كما انتقلت المظاهرات إلى بعض الأقاليم مثل طنطا والمنصورة وشبين الكوم وغيرها . ولم يدم الوفاق بين الوزارة والنبي ، فقد اختلفا في مسألة (١) ملتر .

كان النبي يرى أن امتناع الشعب من قدوم اللجنة سبب كاف لتعجيل قدومها وإن إقناع المصريين بأن عواطفهم ومطالبهم لا حساب لها هو مقدمة صالحة لمقدم اللجنة .

شاء سعيد لإرجاء إرسال اللجنة انتظارا للقراخ من عقد الصلح مع الدولة العثمانية، تنازل فيه عن حقها في السيادة لبريطانيا ومن ثم تعلن الثورة في الصميم فأبى الضرور البريطاني في شخص النبي أن يرضى بذلك الاتهام بالضعف أمام ضجة المقاطعة وقد دفعه لتعجيل ماعله من بواجر التفكك الذي أصاب أعضاء الوفد في باريس فشاء الإسراع في استدراج العناصر المعتدلة لمزيد من الانشقاق .

وإزاء ذلك الخلاف لم ير محمد سعيد بدا من الاستقالة بعد نشر بلاغ دار الحماية عن مهمة لجنة ملتر ، واشتداد المظاهرات ورفع كتاب استقالته في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ .

(١) دكتور عبد العزيز رفاعي : ثورة سنة ١٩١٩ ص ٢٠٢ وما بعدها .

ونشطت الشائعات البريطانية في هذه اللحظة الحرجة التي كانت مصر تجمع فيها على مقاطعة لجنة ملنر التمسيد لمقدم اللجنة والعمل على نجاح أهدافها فشاء النبي محاولة ضرب الوحدة الوطنية في تماسك المسلمين مع الأقباط ، فعمد إلى تسكين أحد الأقباط وهو يوسف وهي بتأليف الوزارة فألفها في ٢١ نوفمبر ١٩١٩ بغير برنامج قومي ، ولكن عبثاً حاولت هذه السلطات بلوغ أهدافها أمام تماسك الشعب .

وإذا كان رئيس الوزراء قبطياً فقد أعلن الأقباط إذ ذاك استيائهم منه وسخطهم عليه وعمدت السلطات العسكرية أن توجه نشاطها لدعم مركز الوزارة بمناسبة قرب قدوم لجنة ملنر ولكن جاء رد الجهاز السرى عليها ردأ قوياً فوت عليها أغراضها في ذلك ، ولما كانت تستهدف من ضرب الوحدة الوطنية .

فقد حدث أن استدعى النبي قبل تأليف الوزارة محمود سليمان رئيس اللجنة المركزية للوفد وإبراهيم سعيد وكيلها وطلب منهما مغادرة القاهرة إلى بلديهما مع بقاء عبد الرحمن فهمي تحت المراقبة في القاهرة . ولما لم يذعن الأولان ، رحلتها السلطات العسكرية كما رحلت على ماهر إلى الأفصر واعتقلت غير هؤلاء من زعماء الحركة في الأزهر .

وقد رد عبد الرحمن فهمي على ذلك ردأ فوت على بريطانيا أغراضها إذ جمع اللجنة المركزية وعين مرقص حنا عضو اللجنة وكيلا لها ورئيساً بالنيابة ثم كتب إلى سعد في ٢ ديسمبر ١٩١٩ — يشرح فكرته من وراء ذلك فيقول : أعتقل صاحب السعادة محمود سليمان باشا وإبراهيم باشا سعيد (١) وقد خلا بذلك محلا الرئيس ووكيله ، ونظراً لأننا فهمنا من سياق الحديث أن السلطة المتصرفة في شئون مصر الملتفين حولها أرادت إسناد مركز الرئاسة إلى يوسف وهي باشا معللين ذلك بأن يسكون هذا سبباً من أسباب تعدد القلاقل بين صفوف الأمة .

ويستطرد فيقول : في هذه الظروف الحرجة ذاتها استصعبت ستة من

(١) عبد أنيس دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ ص ٥٠

أهوانى أعضاء الوفد باللجنة المركزية وتوجهنا إلى الكنيسة يوم الأحد ٣٠ نوفمبر
للمناظرة وأبدينا مشاركتنا لهم في تألمهم من قبول رئيس الوزراء لمركه
الجديد وأكدت لهم أن هذا لا يمكن بحال من الأحوال أن يسبب أى نفور في
علاقتنا لأنه إذا كان وجد من بينهم من قبل الوزارة في هذه الظروف الحرجة
فقد وجد بيننا سبعة بحواره من المسلمين (يقصد أعضاء الوزارة) ،

حضور اللجنة :

ولقد وصلت اللجنة مصر في ٧ ديسمبر ممثلة بجميع الاطراف الإنجليزية
ومؤلفة من رجال مشهود لهم بعرفة الشئون المصرية السياسية وبرئاسة ملزم
وزير المستعمرات البريطانية .

وكانت بريطانيا تأمل في عهد وزارة يوسف وهي أن يقابل الوفد بالترحاب
ولكنها ما كادت تستقر حتى أحست أنها في حصار لا يجد له منفذاً إلى لقاء .

فقد قابلها الشعب بامتناع ، كما كان متوقفاً ، وانتشرت الإضرابات
احتجاجاً على قدومها .

ثم قام الطلبة في اليوم التالي بمظاهرات عدة في ضواحي القاهرة ، ثم انتهالت
الاحتجاجات على اللجنة .

وكانت المظاهرات في الاسكندرية وكثير من العواصم قد قامت احتجاجاً
كما قام المحامون بالإضراب أسبوعاً من ١٧ ديسمبر احتجاجاً على قدوم اللجنة .
ثم وقع حادث أليم ولكنه غذى الثورة بالحرارة ، ذلك هو عدوان الجنود
الإنجليز على الأزهر في ١١ ديسمبر ١٩١٩ .

هذا وقد بدأت مظاهرة صبيحة ١١ ديسمبر من طلبة الأزهر وغيرهم فلما
قطعت في سيرها شوطاً أدركها الجنود الإنجليز بالسيارات فهاجموها وعادوا
إلى الأزهر ودخل كثير منهم فدخل وراهم الجنود الإنجليز بتألمهم على كل ما سادهم .
فاتحج العلماء على الحادث (١) وأرسلوا باحتجاجهم إلى السلطان ورئيسه

(١) عبد الرحمن الرافعي ، ثورة ١٩١٩ ، ص ١١٨ .

الوزراء والنبي . لحرك ذلك الحادث العلماء للعمل الجدى .

وقد كان طبيعيا أن تتجه الثورة لإبقاء على الوحدة الوطنية ، إلى استخدام أسلوب الاعتقالات السياسية ، ترهب به أعداء الثورة والمتقسمين من البخوة ، لم يعلن من قبل أن كل من يتولى رئاسة الوزارة في ظل الحماية يعتبر طائعا لبلاده . وليس في الخطابات السرية ولا في مذكرات سعد زغلول ما يدل على (١) أن سعد هو الموعز بهذه الخطوة والاعتقالات لكننا لانجد مع هذا في تعليمات سعد السرية كلمة واحدة عن رأيه ، أنه لا يوافق على هذه الاغتيالات ونحن نميل إلى القول بأن سعد كان يرحب بهذه الاغتيالات ولا يحرض عليها .

ولم يعمل الجهاز السرى يوسف وهبى رئيس الوزراء ، حتى اضطر فى النهاية للاستقالة وأرسل عبد الرحمن فهمى إلى سعد فى ٢٣ ديسمبر يخبره بأن : د ألقى طالب من طلبة الطب قبلتين يوم ١٥ ديسمبر الجارى على رئيس الوزراء ، ولكن أخطأ ، وضبط ذلك الشاب وهو يتقد خطته (٢) .

ولم يعمل الشعب اللجنة بل خرج محتجا فى مظاهرات عدة وانطلق الجهاز السرى يهدد الوزارات ، وأخذ الجهاز السرى ينظم حلقة من الأعمال لحصار هذه اللجنة ، ويحدثنا عبد الرحمن فهمى عن الأسلوب الذى اتبعه فى هذه المحاصرة فى مذكراته الكبيرة (٣) .

كان لابد للثورة أن تضحى فى معاركها حتى تحقق أهدافها القومية وكانت بريطانيا تتطلع إلى مخرج للبوقف .

ولما كانت السياسة البريطانية إذ ذاك قد عثرت على عدلى على مائدة مسرح مفاوضات بعد ملتر كأقدر رجل ترضى به ، فى استطاعته أن يمثل النواة التى تجمع حولها جميع المعتدلين بما يمكنها من بلوغ أهدافها . فقد كانت بهذا قد ضمنت وقوف هؤلاء بجانبه وضمنته زعما للمعتدلين إذ ذاك فقام به من وساطة بين لجنة

(١) د محمد أنيس ، حواصات فى وفاقى ثورة ١٩١٩ - ص ٥١ .

(٢) د مضافة دفاعي ثورة سنة ١٩١٩ ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) للرجعان السابقان .

ملئرو الوفد وما بذلهم من جهد أثناء مباحثات الهيئتين للتوفيق بينهما بما كان يرشحه لأن يكون الزعيم المصرى المنتظر .

وكانت بريطانيا تبنى خطتها على فكرة إقناع الزعماء المصريين بقبول التسوية المنترية في جوهرها كما بفتها أيضا بجانب هذا على فكرة إبدال الحماية بنظام آخر تقبله مصر .

وبدأت بريطانيا تمهد السبيل لدخول المرحلة التالية لفشل مفاوضات سعد ملئر لتحقيق أهدافها . فأعلنت الحكومة الإنجليزية السلطان في ٢٦ فبراير ١٩٢١ بقرارها الآتى نصه :

« إن حكومة جلالة الملك، بعد درس الاقتراحات التي اقترحها اللورد ملئر استنتجت أن نظام الحماية لا يكون علاقة مرضية تبقى مصر فيها تجاه بريطانيا العظمى . ومع أن حكومة جلالتهم لم تتوصل بعد إلى قرارات نهائية باقتراحات اللورد ملئر فإنها ترغب الشروع في تناول الآراء في هذه الاقتراحات مع وفد يمينه عظمة السلطان فزاد (١) .

وبدأ الحديث في أوساط مصر السياسية (٢) عن تولى الوزارة المفاوضة وهل من الخير استعطاء سعد للحضور ليشارك في المشورة . أم ينتهى الأمر إلى حل المسألة في ذلك بالتشاور ؟ وانتهى إلى علم اشتراك الوفد في الوزارة وكان الخلاف الذى بدأ بين أعضاء الوفد يجعل اشتراكهم في المفاوضة أمراً غير ميسور .

ولما كان عدلى كرشدى يشعر بأن عليه واجبا يؤديه ليخلص مصر بما ورطها فيه، من الحماية قبل الوزارة، فأأن قبل السلطان استقالة وزارة نسيم في ١٦ مارس ١٩٢٠ حتى عهد في اليوم ذاته إلى عدلى يكن بتأليف الوزارة الجديدة وضمن عدلى جوابه برنامج وزارته فأعلن أنها ستجمل نصب عينها في المفاوضات الرسمية أن

(١) محمد عفتيق فرمال ، المفاوضات المصرية ، ص ٨٤ .

(٢) محمد حنين ميسكل ، مذكرات في السياسة المصرية ، ص ١١٥ .

تصل إلى اتفاق لا يجعل مجالاً للشك في استقلال مصر. وأنها ستدعو الوفد المصرى للاشتراك فيها وأن الأمة سيكون لها على لسان ممثلها في جمعية وطنية القول لتصل في هذا الاتفاق ، إن هذه الجمعية ستكون أيضا جمعية تأسيسية تضع الدستور وستكون الانتخابات لها حرة بحيث تمثل رأى الأمة تمثيلا صحيحا . فوعد بالعمل على رفع الأحكام العسكرية وإلغاء الرقابة على الصحف وبالامتناع عن إحداث كل تغيير جوهرى قبل تنفيذ النظام النيابى (١) الجديد .

كانت الوزارة في ظاهرها محاولة لحل القضية المصرية ، ولكن على طريقة أعضاءها من الحاقدين على الثورة والناقين على الوفد والأخذ بإنصاف الحلول .

الوحدة الوطنية من جديد :

وانتظمت مصر كلها في ركب سعد موكبا واحداً الحفاوة به ، وأحسن الشعب في ذاته بقوة فانبعثت به إلى حيث يتلاقى أفواجه وتزخر أمواجه . وكان سعد هو بلا جدال تنوان تلك القوة . كان استقباله في الإسكندرية يوما مشهودا ، فلما استقل القطار إلى القاهرة تلاشت معه جموع الشعب على طول الطريق .

وفي القاهرة كان اللقاء عظيما ، حارا ، فأن لاح في ميارته حتى استقبلته القاهرة وكانت مصر في موكبه في احتفال كبير .

وعاد سعد ، واستهل جهوده في مصر شاكرًا الأمة على ثقتها وحفاوتها ثم قال :

«لنا لم تعد إلا لتقوى عزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ونشد أزرنا باتحادهم .

وتأكد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية الذى دعته الوزارة الجديدة له متفق مع المبادئ التى وضعتها الأمة وعاهدناها على احترامها . ومع الخطوة التى رسمتها وتعهدنا بتابعها ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع

(١) عبد الرحمن الرامسى ، اودرة ١٩١٩ ج ٢ ص ٢٢٣

كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة وعاملة على تحقيق غايتها السياسية (١) ،
ولقد أثبتت الحوادث ، أن الوزارة الجديدة كانت تود الاستعانة بالوفد
بغير المبادئ التي يراها كمثل للأمة .

ثبتت الثورة حفاظاً على مبادئها أمام اتجاه المنحرفين الذي يذهب به الوزارة
هادفة وضع التسوية القومية في إطار التسوية الملترية ولكنها لم تكذب تصمد
حتى أخذ ذلك الاتجاه يجذب إليه العناصر المنقسمة بين الوفد من المعتدلين فإذا
بها أمام ذلك الاتجاه في شكل تحالف رجعي يستهدف في باطنه تحوير الثورة إلى
حركة أعيان .

ووقف سعد صامداً بالاتجاه الثوري في مواجهة الرجعية مع قلة من أعضاء
الوفد ولكنه كان يستمدقونه من تأييد الأمة وثقتها الكبرى كقائد وزعيم ، وامتد
الموضوع من الوفد إلى صفوف الأمة ، فأخذت الحركة إلى القاعدة الشعبية تعبر
عن ذاتها بمختلف الوسائل ، بين مظاهرات في شوارع المدن وبين الصحف
والاجتماعات وبالخطب والمحاديث . ونهضت الثورة في مواجهة الرجعية
عموماً ، كما مثلتها الوزارة لخروجها عن إرادة الأمة وتحديها . فحدثت ثمة مظاهرات
عدائية للحكومة في طنطا في ٢٩ أبريل عام ١٩٢١ ، تعرضت لها قوات الشرطة
ولما عجزت عن تفريقهم لكثرة عددهم ، أطلقت عليهم النيران فأصاب الكثير من
المنظمين حتى لقد بلغ عدد الجرحى ٤٠ جريحاً الأمر الذي زاد من حرج
الوزارة . ولصق بها تهمة حكم الشعب بالقوة وعيبتا حاول عدلى إبراء ذمته منها
فقد تركت آثارها عميقة بين الشعب .

وسافر الوفد أول يولية سنة ١٩٢١ إلى لندن ، وبدأت المفاوضات بينه وبين
كرزون وزير خارجية بريطانيا وكانت مرهقة جداً .

وما أن علت الجماهير بتأليف ذلك الوفد الرسمي دون اشتراك الوفد ، حتى زادت
المظاهرات عنفاً ، لمواجهة أي تصدع وذلك في القاهرة والاسكندرية وفي كثير من المدن ،
وانتفضت طابع العداء لكل من يخالف سعداً في رأيه ، وانتقل الاختلاف في الرأي

(١) مبادئ الثورة القومية ، سعد زغلول ، ص ٢٥٨ .

إلى التحريض ضد الخصوم ، وازدادت المظاهرات عنفا في الاسكندرية وتحولت إلى اضطرابات بين المصريين والأجانب حتى تدخل الجيش والشرطة لقمعها، ولما انحرفت المظاهرات عن معناها لشر سعد نداء في ٢٤ مايو حث فيه الشعب على حسن معاملة الأجانب ولشر في اليوم التالي نداء آخر بوقف المظاهرات اتقاء لما يثيره أهل الفتنة فيها من الأعمال واكتفاء بما أظهرته الأمة ، وكان لحوادث الاسكندرية وقبها سوء بين انجلترا .

صممت الوزارة إذن على المفاوضة ولم تتردد في انجاز ذلك بدون اشتراك الوفد ، وسافر الوفد الرسمي إلى لندن لمفاوضة المسئولين فانصرفت جموعها في مضر بعد سفر ذلك الوفد الرسمي إلى الثقة بالوزارة ونزع الثقة من سعد وتكفل بهذا وزير الداخلية إذ ذاك عبد الخالق ثروت .

ولقد كانت الفكرة التي ألم بها المستر لويد جورج على حد تعبيره : (هي أنه وإن كان يثق بأن الاتفاق ممكن من جانب الطرفين إلا أنه لضمان الهياج الذي أحدثه زغلول في مصر وبعت الرأي العام هنا على القلق والحذر ومن شأنه أن يجعل البرلمان الانجليزي لا يطمئن إلى مد نفوذ زعمائه إلى مثل ذلك الشغب والهياج وأن يحصله على الضمانات ، بحيث يصبح الاتفاق متعذراً ، وقد تساءل هل يحسن تأجيل المفاوضات إلى وقت يسود فيه الهدوء وتكون الأحوال أكثر ملاءمة بوادعى الثقة والاطمئنان بما هي عليه الآن ، كما أنه لم يخف دهشته من ترك زغلول حراً في إيقاعه الفتن واحداث الاضطرابات .

وفي العاشر من نوفمبر ، سلم كرزون لعدلي مشروعا بريطانيا ويرأى الوفد الرسمي أنه لا يحقق الغاية التي سافر من أجلها للمفاوضة وأهم مواد المشروع :
• انتهاء الحماية والعلاقات الخارجية للإدارة القضائية بالسودان واستخدام
موظفين للإدارة المالية — والأحكام الخاصة بالمسئولية العسكرية .

الوحدة الوطنية في مواجهة التآمر :

ونجحت الوحدة الوطنية في مواجهة الاتهام البريطاني الآخذ صورة الرجعية

بما أفسد عليه خطته وأهدافه .

وبالرغم من أن الوطنية المصرية كانت قد خرجت من معركة الرجعية متصدعة الوحدة . فقد ظلت مستمرة ، وكان لها أن تمنح ، بقوة الاندفاع الأول ، حتى تحقق كل أهدافها القومية .

وكان ألمم بريطانيا إثر فشل المفاوضات خطتان : الأولى ترتيب حالة مؤقتة وفق قواعد مشروع كرزون ، والثانية وهي إخراج عدل ، لتنفيذ الأحكام التي تضمن ذلك المشروع والاعتراف بها المصريين وتأجيل ما اختلف فيه الطرفان إلى أن يتم الاتفاق عليه .

وسواء أخذت بريطانيا بالأولى أو الثانية فقد كانت إذ ذاك ترى استحالة لإنجاز ما تستهدفه ، والثورة بزعامة سعد تسيطر على مصر بما يفقدها معاونة ذوى النفوذ من المصريين لتنفيذ خطتها ، لذلك كان لابد لها من أجل أهدافها عزل سعد على رأس المتطرفين ، عن المياسة ، ثم ضمان معاونة ذوى النفوذ من المصريين على تحقيق غايتها .

وحاد عدل إلى مصر بعد فشل المفاوضات وكان الجو بعد عودته وفشل هذه المفاوضات يبنى بأنه سيكون جوا سياسيا مكفرا مليئا بالتهديد والوعيد . ولقد عبرت بريطانيا عن طريق اللبي عن ذلك في خطاب وجهته إلى السلطان قالت فيه عن اقتراحاتها :

د أنها تعتبر اقتراحاتها هذه سخية في جوهرها واسعة النطاق في نتائجها ، ثم خلصت من ذلك إلى الوقيعة بين السلطان والمتطرفين ، .

ولقد آمنت بريطانيا أنها لا تستطيع بلوغ غايتها عن طريق المعتدلين دون القضاء على الثورة في العناصر المتطرفة منها ، ويعنى ذلك وأد الحركة الوطنية وقالت عن السياسة التي تبعتها في الحاضر بأنها لا يمكنها تنفيذ اقتراحاتها بدون رضا الأمة المصرية واشترائها ولكن حكومة بريطانيا تحافظ على الرغبة التي كانت لديها على الدوام .

وهي العمل على إثناء مراهب المصريين وزيادة عدد الموظفين منهم في كل نوع
سواء الفروع الإدارية والمالية التي كثر فيها عدد الموظفين الأوروبيين .
ثم خلصت من ذلك إلى التهديد من جديد للمتطرفين فقالت :

« إذا كان الشعب المصري يستسلم إلى أمانيه الوطنية فهما كانت هذه الأمانى
صحيحة ومشروعة في ذاتها ودون أن يكثرث أكثر مما كافيا للحقائق التي تستحقكم
في الحياة الدولية فإن تقدمه في سبيل تحقيق مثله الاسمى لا يصيبه التآمر حق
لا تعرض للخطر تعرضا تاما، إذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شأن
ما على الأمم من الواجبات ومعظم ما لها من الحقوق وأن الزعماء المتطرفين الذين
يدعون إلى هذا لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون حريتها بما كان لهم من الأثر في
مجرى الحوادث وما قد يهدد أمن بعض الدول الأجنبية خوفا على مصالحها بما أثاروا وخافوها
وكذلك عملوا في الأسابيع الأخيرة على التأثير في سير المفاوضات ببنذارات
مبهمة استثاروا بها العامة، وأن حكومة جلالة الملك لا تعتبر أنها تخضع مصالح مصر
بتساهلها لإزاء تصريح من هذا القبيل ولن يمكن لمصر أن تسير في سبيل الرقي إلا متى
أظهر قادتها المسئولون من الحزم والعزيمة ما يكفل منع هذا التهيج ، لأن العالم يتألم
الآن من جهات عديدة من الاندفاع في نوع الوطنية المتعصبة ، وحكومة جلالة
الملك تقاوم هذا النوع بشكل شديد سواء في مصر أو في غيرها .
ولقد كانت النية تتجه للأخذ بالنقطة الثانية .

وكان النبي يسيطر على فكره عاملان أحدهما اعتقاده أن نفوذ بلاده
يتوقف على سيادتها البحرية في البحر المتوسط وطالما احتفظت بهذه السيادة
فلا ضير من أن تساهل مع مصر تساهلا معتولا كما كان يسيطر عليه عامل آخر
وهو ضرورة الوصول إلى مخرج من الأزمة التي أحدثتها إخماق الوفد الرسمي
البريطاني واستقالة عدلى (١) وكان هذا المخرج هو التهديد لتطبيق الخطوة الثانية
بمضى سعد وضمان التعاون مع ذوى النفوذ من المصريين .

(١) عبد شفيق غربال ، المفاوضات المصرية الانجليزية ، ص ١٠٨ .

ومهما يكن الأمر فقد استعادت بريطانيا هذا التكوين بالمتطرفين تمهيدا للسيطرة
الرجعيين على الثورة في محاولة للوصول بهم إلى مخرج من الأزمة التي حدثت من
إخفاق الوفد الرسمي في المفاوضات وكان على رأس المصريين المتطرفين سعد زغلول
ومع أن ذلك إذا كان سهلا لدى بريطانيا فقد كان متوقعا أن تكون آثاره صعبة
على مصالحها، ولما سمع الزعيم الكبير ذلك قال : «أهددونا بنصب المشائخ،
ليكن، نحن مستعدون» ولم يسمع إلا أن لشر نداء ناشد فيه الأمة على التمسك
بالاتحاد والعمل على نزع الشبهات الدثنية منها وكذلك الأسقاد، كما نادى بالتحرد
من الهوى فلا يطيب العيش للصريين حتى يطلق الوطن السجين، ويتمتع باستقلاله
التام، ولم يعتبر ثمة خصم للصريين إلا الذين أرادوا احتلال مصر.

وختم نداء بدعوة للتماسه بقوله : «انكم أنبل الوارئين لأقدم مدنية في العالم
وقد خلقت أن تمشوا أحراراً أو تموتوا كراماً، فلا تدعوا التاريخ يقول دوما
عنكم، اقسوا ولم يبروا بالقسم، فتق لاذن بقلوب كلها اطمئنان ونفوس
ملؤها استئثار بالاستقلال التام أو الموت الزؤام».

ونهض النبي بتنفيذ إجراءاته وأرسل النبي في ٢٢ ديسمبر بلسان مستشار
الداخلية إلى سعد تعليمات تحظر عليه على حسب الأحكام العرفية الخطابة في الناس
أو شهود اجتماع عام أو الكتابة في الصحافة أو القيام بأي عمل من الأعمال السياسية،
وعليه أن ينادر القاهرة ليقم في منزله في الريف تحت مراقبة المدير، وما هي إلا
ساعات حتى عاد إليه الرد (١) عن طريق مستشار الداخلية جاء فيه : أنه تسلم
خطابه ثم قال :

«... وهو أمر ظالم احتجاج عليه بكل قوتي، إذ ليس هناك ما يبرره، وبما
أني موكل من قبل الأمة للسعي لاستقلالها فليس بغيرها سلطة تخليني عن القيام
بهذا الواجب المقدس. لهذا سأتق في مركزى غلصاً لواجبي وللقوة. أن تفعل
ما تشاء إذا عقدت اجتماعات...»

(١) عباس محمود العقاد، سعد زغلول ص ٣٨٢

وانتشر الخبر في أحياء القاهرة فاجت بالحركة وعاهدت سعد على الثبات في الجهاد فكانت الجموع تتلاقى في غير اتفاق سابق متجهة إلى بيت الامة وكان سعد إذ ذاك يتوقع نفيه للمرة الثانية ولكنه كان يؤكد لإيمانه بتغلب الحق على الباطل .
شاء النبي بهذا أن يوقع اليأس في قلوب المصريين . فلقد أرسل تقريره إلى كرزن بإبعاد سعد وشركائه قائلاً : بأن سيلان أوفى مكان لأنها معروفة في الأذهان باعتقال عرابي وذلك من شأنه أن يحدث بين الشعب تأميراً عظيماً ، وأرسل كرزون إلى النبي في ٢٣ ديسمبر رسالة يعلن فيها موافقته على إبعاد سعد وأنصاره إلى سيلان في أول فرصة كافترا حله في تلغرافه المؤرخ في ٢٣ ديسمبر .
ونفى سعد ولجأت السلطات العسكرية إلى عزل سائر المتطرفين عن الميدان السياسي .

تلك كانت بداية المؤامرة التي اضطلمت بها بريطانيا لتخلص البلاد من الثورة فتعلن الرجعية التعاون معها ، وتتمكن هي بالتالي من إيجاد حل يصحح مركزها في وادي النيل على أساس اعتراف المصريين .

على أنه إذا كانت بريطانيا قد شاعت بنفى سعد وعزل المتطرفين عن السياسة وانحداد الثورة ، فقد اسرفت في سوء فهم الموقف وتقديره .

فما أن علمت مصر بنفى سعد للمرة الثانية مع صحبه ، حتى تجددت ثورتها بشكل أثبت به فشل خطة النبي بما عرض المصالح البريطانية في مصر لمزيد من الخطر . عادت نزعة توسيد الصفوف من جديد ، وأخذت هذه العناصر تستعد لمنازلة الاحتلال والمنشقين عن وحدة العمل الثوري .

وكانت مواضع الخلاف بين المندوب السامي وحكومته تنحصر في أن الحكومة كانت على استعداد لأن تلغى الحماية بموافقة البرلمان وتعترف باستقلال مصر بشرط أن يقبل المصريون شروطاً تتعلق بضمان المصالح البريطانية ، وكان النبي يرى في إلغاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ، وأن تعلن في الوقت نفسه احتفاظها بحرية العمل في بعض الشئون ، وفقاً لما تقتضيه مصالحها حتى قيام التمسوية . . .

وغيرضت بريطانيا عليه ذلك ، ورد النبي بأن تفوق دولته لا يتوقف
الحماية بل على قوتها البحرية والعسكرية المراقبة في مصر فإذا ما أبانت بريد
باحتفاظها بموقفها فلا خطر إذن من الاعتراف لمصر بالاستقلال عندئذ يمكن .
للساسة المصريين التعاون مع المندوب السامي .

وما عاد النبي إلى مصر حتى أعلن التصريح المعروف بتصريح ٢٨ ف
١٩٢٢ ، وعلى أثر إعلانه تألفت وزارة عبد الحالى ثروت في أول مارس .
ولقد اعترفت بريطانيا بالتصريح بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع احت
بصورة مطلقة ، بمسائل أربع لمفاوضات مقبلة يبقى الحال في شأنها كما كان .
وهي : الدفاع عن مصر وحماية الأجانب وحماية الأقليات والسودان .

ولقد جاء ذلك التصريح بعد اعتقال الزعماء ونفيهم ثمرة لتحالف الرجعية ،
وأمرها ثروت مع الاحتلال ، خيانة كبرى لوحدة النضال الثوري ، واستند
لسابق التآمر على الثورة بنفى زعيمها سعد زغلول انتقاما من قدر العمل الثو
وبداية تحويلها إلى حركة الأعيان بل ومسا لحقوق الأمة فيما جاء
من مميزات سلبت بها بريطانيا .

على أنه بالرغم من هذا فقد دفع ذلك التصريح مع توافقه ، مركز
السياسى القوي بخطوات إلى الإمام ، وكان من الممكن الاستفادة منه في المزيد
الجلوات الناضجة لاستكمال ما كسبته الأمة ، وإذالم يكن قد واد بين أمة قدم
بالانقسام وقد جاء التصريح يسترضى المعتدلين والرجعيين ويشير الثوريين
فكان متوقعا أن تشهد مصر في ظله مرحلة من الصراع السياسى المضطرب .

استثار التصريح العناصر الثورية والرجعية فانقسمت الأمة إلى معسكر
سعديين وعدليين وجذب عناصرهما إلى صراع في البداية حول المبدأ ، و
سعد في المنفى ، فاجاءت الأنباء برأيه في استنكار التصريح واعتباره نكبة وط
حتى بلغ الانقسام أشده ومالبت الصراع أن تحول في النهاية إلى صراع حول نظ
الحكم الداخلى في ظل الاستقلال ، ومن ثم كان التصريح بداية تحول النضال القبو
إلى نضال سياسى يتناول المسألة المصرية بالعلاج على أساس التجزئة .

وظلت ، الوحدة الوطنية رغم هذا ، متماسكة في جوهرها تلف حول مصر والمصالح العليا ، وترك آثارها على شتى مناحى النشاط في مصر بتجارها ودروسها على السواء .

ومن نبتة هذه الروح التي غرستها الثورة في النفوس قامت الدعوة المتابعة البعث الاقتصادي الذي غرست أصوله قبل الثورة فما أن ظهرت دعوة طلعت حرب إلى تأسيس بنك مصر في أغسطس ١٩١٩ حتى ناصرته الشباب تطلعا نحو الاستقلال الاقتصادي فنجحت الدعوة وتأسس البنك .

ومع هذه الروح التي بثتها الثورة ، مكنت الشعب بنتائجها السياسية من السيطرة على مقادير بلاده في ظل الحكم الدستوري ، وجدت روح الثقة والتجدد والتطلع بجالا للإنتاج وكشفت الثورة للشعب رؤية الطريق وهو ينهض في أعقاب الثورة مستغلا نواحي الضعف والقوة فيه كما عرف الخصوم والإصدقاء وعرف من تجربة الثورة ما كانت مصر في حاجة إليه لكسب الجولة الأخيرة من أجل التحرر الكامل والحاجة إلى الجيش القوي والنهضة الاقتصادية ، والقضاء على الاحتلال البريطاني .

وفي ظل الحكم الدستوري على ما كان به من عيوب تمكن الشعب من أن يقوى أدوات النضال القومي وهو الدستور كي يحمي في الدفاع عن إستقلال الأمة .

الوحدة في أعقاب الثورة

وقد ظلت القيادات السياسية الوطنية الواعية بعد ذلك تحمي هذه « الوحدة » المقدسة بكل قواها ضد كل المحاولات غير المسئولة من الداخل لتغيير شكل الدولة العثمانية أو من الخارج تطبيقا لمبدأ « فرق تسد » .

فعندما أخذ الملك فؤاد يرنو إلى الخلافة الإسلامية يريد بها توطيد سلطته الإيمانية الأتوقراطية في الداخل على حساب الحكم الدستوري ، وكان ينازعه فيها الحسين ملك الحجاز وفيصل ملك العراق ، هاجم سعد زغلول هذا الاتجاه وتبعه أنصاره والصحف الموالية له .

وكان الاتجاه أن تصطبغ حقيقة توليه العرش بالصبغة الدينية ، ولكن

مصطفى النحاس وقف في وجه البدعة التي ابتكرها ذهن الأمير محمد علي المعصب ، ورأى فيها د اقحاماً للدين فيما ليس من شئونه ؛ ولإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية ، وعبر عن رأيه في هذا التيار أمام النواب قائلاً : الإسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده .

ونلس صدى غضب النحاس لتحركات الرجعية الاوتوقراطية المفرضة في الحقل الديني ، وعلى رأسها الملك فاروق والأمير محمد علي ، وفي المراسلات السرية بين السفير البريطاني المستر مايلز لامبسون ووزير الخارجية البريطاني المستر أنتوني إيدج . ففي رسالة الأول إلى الأخير يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٣٧ كتب يقول أن النحاس باشا قال له أن الملك ديزاول أشد الأفعال خطورة في الحقل الديني ، وأنه يعمل كما لو كان أحد أئمة الدين ، وأنه (أي النحاس) قد اعتزم أن يقاوم أي ميل نحو اضطهاد الدين فإن قانون البلاد قانون مصري . وفي الوقت الذي كانت تلعب فيه الرجعية بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ م . بأمل تغيير شكل الدولة القومية الملبانية وإحياء فكرة الخلافة الإسلامية لتثبيت حكم الاوتوقراطية ، وكان السفير البريطاني يكلف أحد أعضاء السفارة البريطانية (وهو هاملتون) بدراسة شاملة لموضع الأقباط في مصر بعد معاهدة ١٩٣٦ ، لبحث امكانيات الاستفادة من أي الشقاق بين عنصرى الأمة في الظروف الجديدة التي كانت تمنع التدخل في شئون مصر الداخلية .

وقد بعث السير مايلز لامبسون بهذه الدراسة في تقرير هام يوم ٥ يولية ١٩٣٧ صدره بملاحظات . وفي هذه الدراسة التي تحفل بالمتناقضات ، اعترف هاملتون بأن الدين الإسلامى د ليس في حد ذاته عقيدة غير متساعة ، وأن القرآن قد أمر بالتساع ولكن (هاملتون) مع ذلك ادعى وجود شعور محسوس معاد الأقباط ، وفي مصر بعد الاستقلال كذلك فقد اعترف هاملتون بما يملكه كاد مسكرم عبيد ، من نفوذ في سياسة حكومة الوفد ، واعتبره د أكثر الناس نفوذا في السياسة المصرية ، ولكن من جانب آخر نسب إلى حكومة الوفد الميل إلى إصبغة الإدارة الحكومية د بلون إسلامى متزايد ، كذلك اعترف

« هاملتون » ، بأن طبقة الفلاحين الأقباط والطبقة الثرية لن تتأثر بالمبول الإسلامية المزعومة لحكومة الوفد ، وأن نفوذ الأقباط « يتجاوز كل نسبة عددية لهم » ، ولكن مع ذلك أخذ يبدى شماتته في الأقباط لما زعم من أنهم « سرف يفقدون عددا من الوظائف الحكومية خلال الأيام الأولى للاستقلال » ، وأضاف : « ألم يكونوا من بين أعلى الأصوات التي تطالب بالاستقلال ؟ وهل يمكن الآن التراجع والاهتراف بخطئهم في مساندة الحركة الوطنية ! »

ويعتبر حجر الزاوية في هذا التقرير ماورد في الفقرة الثامنة منه ، وحيث حاول « هاملتون » عبثا تليس^١ نقطة الضعف في البناء الوطني والقومي المتناسك للأمة المصرية تنفذ منها السياسة البريطانية عند اللزوم ، بعد ان استطاع هذا البناء المتناسك أن يحرر مصر من كثير من القيود في ذلك الوقت ، فقد زعم أنه يوجد في الجوّ « دون شك » شعور محسوس معاد الأقباط ، وهذا الشعور ليس خطيرا في الوقت الحاضر ، وقد لا يصبح كذلك اطلاقا ما لم يستغل لإثارة اضطرابات معادية للأجانب « ومن هنا يمكن الربط بين هذه الفقرة التي أشرنا إليها والتي يبدى فيها هاملتون شماتته في الأقباط لدورهم المؤثر في الحركة الوطنية » ولكن أعداء مصر لا يتعلمون والتاريخ يعيد نفسه . فبالرغم من أن مصر لم تنعم بحكم ذاتي مستقر في تحقيق أمانها من فبراير سنة ١٩٢٤ — ١٩٥١ فقد كانت تنعم بوحدة وطنية متناسكة وكان الحكم قاعدة نشطت بطريق مباشر على تجمد المجتمع بعناصر جديدة طليعية وبطريق غير مباشر ، أداة غدت هذا المجتمع بمكان جديدة ومكتته بالتالى عن طريق النضال الثورى ومهدت الطريق لميلاد ثورى جديد على يد جيش مصر ، وبقدر ما كانت مظهر لهذه الوحدة زادت الوحدة الوطنية به تأكداً وتماسكا .

مباحث الثاني

أصالة الطابع الوطني

في الشخصية المصرية

لشأ الطابع الوطني الشخصية المصرية وتطور عبر التاريخ ثمرة البيئة الطبيعية والاجتماعية على مراحل في وحدة من السمات مستمرة تلتهم من البيئتين قدرة على الاستمرار على نحو لا يتغير إلا بقدر تغير البيئة الاجتماعية تغيراً لا يمتد إلى الأعماق فهو طابع يكاد ينتمي بطريقة ما إلى طابع آخر دون أن يكون هناك فهو بتأثير البيئة الجغرافية يوجد في مصر ولكنه يمتد بسبب ما إلى تأثير البيئة الاجتماعية الاستعمارية عبر التاريخ وهو طابع مصرى فرعونى بالجدول لكنه عربى أيضاً بالآب . ومعنى هذا أنه خليط بين أصداد يجمع بين سمات متعددة شذية خصبة على نحو يولد فيه موازنة الوسط .

ولقد سلك الطابع القومى أساس إنسانى واحد قام جوهره عليه منذ أن نشأ، وإن اختلفت مراحل اختلافها في الدرجة وبالتالي من حيث الإيجابية والسلبية لم يكن الفرد ولا الفردية محور بناء الجماعة المصرية كأعكاس تأثير البيئتين الطبيعية والاجتماعية بخصائصها الخاصة ومن ثم قامت الجماعة المصرية على أساس النزعة الجماعية، فلا غرو أن التسم الطابع القومى بهذه السمة الإنسانية وبالرغم من ضعف الفردية منذ النشأة الأولى فقد كان الطابع القومى إيجابياً فمن خلال معايير الجماعة ومنظمتها ومنذ أن توحد الكل في واحد كان الفرد يستعيد الثقة والشعور بالذات والأمن والنظام على نحو قام على وعى إنسانى يمنح ويعطى أكثر مما يأخذ، فكان ثمة الرضا والقناعة والكرم والاستغراق في الوعي الدينى والتوحد والطاعة والتوسط والإحسان وكلها سمات تتميز بالإنسانية، ولما انتقل الطابع القومى

إلى عهد التبعية (١) السياسية أخذ يفقد في صراعه معها جزءاً من مكونات إيجابيته فبدأ إيجابياً في سلبيته من هذه البيئة في عزلة ثم تتبع ذلك بصراع مع هذه التبعية في معركة خيرة متكافئة وفي ظل كفة العدوان أخذ يتسم بخصائص من السلبية افتقد بها جزءاً من إيجابيته ، وكان من مظاهر ذلك سمة اللا مبالاة وما تفرع منها التي ظلت واستمرت بما وجدته من غذاء في العهود التالية دون تغير إلا قليلاً .

وأخذ الطابع القوي في ظل المسيحية والإسلام يتحد بنمو الفردية ولا يتغير بتغير الجوهر وهو الجماعية التي كان يقوم عليها المجتمع . وقد بدت هذه النزعة في ظل الإسلام متوازنة تسم سماته بلون جديد من الإيجابية ولكن ما كاد الإسلام يمضي في ذلك حتى كان عهد الإقطاع الشرقي بما فرضه من ألوان التبعية . إذ ذاك وجدت السلبية في ظله زاداً جديداً يتجلى بشق أساليب التعبير حتى إذا ما انتقل إلى العصر الحديث واجه تغيراً أعمق إذ أخذت الفردية تقتحم عليه مكانه ومأقوله لتغير من سماته ولكن برغم ما اعتراه من تجدد لم يبلغ التغير جوهره لأن التجديد كان يتجلى من خلال روح هذا الطابع التي نهلت أولاً من ينابيع البيئة المصرية وإن تمكن في العصر الحديث من المزيد من الإيجابية على أسس حديثة .

وقد آتسم الطابع القوي للشخصية المصرية بالوحدة والاستمرار عبر التاريخ بالإيجابية والسلبية على السواء ، ولكنه إذ يبدو اليوم في غير توازن بين الناحيتين فقد بدأ التسكافؤ يتجلى بينهما ويزداد مع الأيام طابعاً قومياً غريباً إسلامياً قاعدته من روح البيئة المصرية وسطحه مزيج من بناء عربي إسلامي حديث في صدق تاريخي ويعطيا زادا على الطريق الطويل من ناحيتها وقدرة على الاستمرار بما وطنت عليه من صلابة وإصرار وحكمة . فالشعب الذي استطاع أن يصمد محتفظاً بهذه الوحدة رغم الكوارث والغزوات الأجنبية لمقوة سرية قادرة على الاستمرار في الحاضر في مواجهة العصر الحديث على أن الأمر في حقيقته لم يقف عند ذلك بل جاوز حد الاعتدال .

(١) د . عبد العزيز رفاعي ، الطابع القومي لشخصية المصرية ، ص ٨٣٠

الفصل الأول

الوحدة الوطنية

إحدى سمات الشخصية المصرية

تجلت الوحدة الوطنية عبر التاريخ سمة أساسية من سمات الطابع المصرى قوامها: قناعة ورضا وتقدير وإعجاب وحب وطاعة وقد نبعت أصولها من الماضى العريق كسائر سمات الطابع المصرى من البيئة الطبيعية ولكن غلبت عليها أحيانا السمة الحضارية للأسرة كانت الأسرة فى الماضى ثمرة بيئة صالحة لاستنبات معايير إجتماعية مصدرها الحضارة فقد أغنى الحكيم بتاح حطب الأدب المصرى القديم بالنصائح فى آداب الأسرة حائما على رعاية الأم والزوجة بما يشع الرحمة والحب فى البيت ولقد أصل قدم مصر الزراعية بالحضارة حب الأسرة حتى غدا ذلك سمة يعرف بها كل مصرى تقريبا .

ومن خلال الأسرة تكون نظرة المصرى معبرة عن معاييرها مؤثرة بها فى السلوك الاجتماعى وهى فى نظر المصرى جوهر العلاقات كلها وقد يتمرّد المرء على كل شئ ولكن ينفى تمرده عند حدود العلاقات البيئية وتتجلى تلك النزعة بين جميع أفراد الشعب تقريبا حتى العصوص والمعوّزين والشيوخ لتأخذهم هذه العاطفة العميقة الجذور .

وتبدو الأسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ وهى قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاتهم فى الأذنب المصرى القديم تعرف وصايا الأسرة كما تجلت فى وصايا د بتاح حطب ، التى كتبت قبل أكثر من ٤٠٠٠ سنة وقد جاء فيها : إذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قريقتك الحب الجميل وأطعمها وأكسها وطيب أوصالها وأدخل السروو على قلبها طول حياتها ، ولا تنسى الوصية توقيف الأسرة وصلة الأرحام بعد ذلك وفى نسخة من وصية محفوظة فى

مخلوطات الأسرة ، يقول الحكيم : « اتخذ لك زوجة في شبابك تنجب لك ولدا
تربيه وأنت في صباك وتعيش حتى تراه في عداد الرجال . وما أسعد الرجل الذي
له أسرة كبيرة إن الناس يوقرونه من أجل بيته ، وفي هذه الوصايا يقول الحكيم
« ضاعف لأمك خيرها واحملها كما حملتك . لقد أثقلتها وظلت تحملك بعد ميلادك
وظل ثديها ثلاث سنوات في فمك فلم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط ماذا أصنع
بهذا وأرسلتك إلى المدرسة تتعلم الكتابة ووفرت لك الخبز والشراب كل يوم.
تلتظرك . وإذا ذكر إذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربّتك.
وتسعدتك بكل ما عندها من وسيلة عسى ألا يصيبك الضرر ولا ترفع يديها إلى الله
بالدعاء عليك ولا يستمع الله منها إلى شكاية . »

وبمثل هذه الوصايا التي كانت من معايير المجتمع الفرعوني القديم قويت الأسرة
ولم تتغير بهذه الوصايا فقد زادها الإسلام دعما والعصر الحديث فحما ومن حب
الأسرة نستطيع أن نفهم كيف يكون المصري محافظاً شديد المحافظة ثاراً
متأهباً للتمرد فهو عاقل كما تحافظ جميع الأسرات على ثرائها من أجل المحافظة على
التراث مستعد للثورة لصيانة العادات والتقاليد وقد يعجب المرء كيف يثور شعب
وديع . إن الذي يثور هو الوديع المحافظ المفرق في المحافظة .

إن المصري ينسى كل شيء إلا وشائج الرحم والأسرة ومن الأخلاق التي
تلازم حب الأسرة غيرة الزوجة وصيانة العرض واستهجان التعريض فيه . فالمصري
يروض نفسه على العننك ولا يروض نفسه على ابتذال البيت وثمة فرق
بين المصري في هذا وبين البدوي كلاهما يأتي أن يتنقل عرضه ويثور على من
ينتهك حرمة ولكن الأول يأتي ذلك كما تأتي أن يداس على مصادر عيشه وموارد
مياهه وهو ينعضب للزوجة وكأنه ينعضب في الحرب فالاعتداء على الزوجة عنده
هو بمثابة هزيمة في حرب أما المصري فيغار على الزوجة إبداعاً كإبداع الحضارة
اعتزازاً بصداقة وأزحاماً أمنية وضناً بملاقات ألفها وهو إذ ينعضب إنما ينعضب
لقراءة تقطع أو محراب يهان وثمة فرق إذن بين غيرة منشؤها أدب الأسرة
وغيرة منشؤها سلوكي وطبقي وهو القتال .

إن المصرى اجتماعى من ناحية الأسرة وهو أقوى ما يربطه بالمجتمع والامة فلم تمكن الحكومة لديه عموماً تتخرج بنفسه امتزاج الالفة وكان اعراضه عنها أمراً زاد اعتماده على الأسرة وحصر عواطفه الإنسانية في علاقاته البيئية في جميع العصور لأنها كانت مهرباً أميناً من القوة والمظالم وغاية ما يتظاهر به من أمر الحكومة أنها أمر يدارى . علاقته بالحكومة مهادة محتملة وليست علاقة ود إلا نادراً ثم كان محافظاً . ومتحفظاً للتغيير في وقت واحد وغاية ما يظفر منه الإصلاح بالترحيب أن يتمزج ذلك بنظام البيت والأسرة ويتسرب إلى حياته من خلال عواطف الارحام فلم يكن اشتغال المصريين بالسياسة يتعدى جانب التحرى والمصرى . إذ ينقاد للسياسة ينقاد لأن الطاعة في ذلك أشبه بنظام الأسرة .

ومن خلال الأسرة ، تكون علاقة الإنسان بالآخرين في المعاملات وشقى التقاليد ففي مراسم الزواج يحتل العزف مكان الصدارة إذ يقضى بتفضيل الزواج من الداخل على الزواج الخارجى فلا بناء العم الأولية على أبناء الخال وفى ظل ذلك كله تتجلى آثار الأقوال التى تنظم السلوك رفقة من يقول : احترم أبوك ولو كان صعلوك واحترم كبيرك يحترمك صغيرك ، ويتعدى حب الأسرة حتى النظر من خلال معايرها إلى الجيران ، فالأمثال توصى بالجار خيراً فبتها : أحسن لجارك . ولو أساء .. اختار الجار قبل الدار ، فى هذا المجتمع يسود التعاون والترابط الروحى وتذيع فيه أقوال بالتعاون مثل : الى ياكل لوحده يزور ، ولما على ليد تمكث وتزيد .

ومن خلال العلاقات الأسرية وقيمتها يكون اندماج الفلاح بأرضه حيث تستقر العائلة وتحنو عليه البيئة بخيرها فهو يرتبط بها بوشائج عميقة .

ومن خلال حب الأسرة ، كانت عنايته بالموتى والعالم الآخر عنايته بالذرية حتى لا تضعف في ظنه تماماً . وقد كان من ذلك اهتمام المصرى بتحنيط الجثة قديماً لتكون مصدر الحياة بعد الموت ولا تعدو التقاليد والمعادن الجنائزية اليوم جزءاً من حب أسلاف الأسرة ومن الوفاء للأسرة يفسر البكاء الشديداً والنحيب على المفقودين وعلى الغرباء والمسافرين وهو جزء من البكائيات الجنائزية وإذا يبدو

هذا الارتباط بالأرض والقرية مرتبطا بسكان الأسرة فإنه متصل أيضاً بذلك. عن طريق آخر وهو ارتباط الفلاح بماضيها فهو يوفر ماقاله السابقون، ويوفر كذلك حكمة الشيوخ لمستوى فعاليتها لفعالية حكمة الآباء ، فالرعاية تجمع بين الطرفين ومادام المصري محافظاً من خلال الأسرة ومجتمع القرية ومادام ميراثه من الماضي ومن مسلماته ومادامت البيئة توفر له الاستقرار لذلك فهو يتحرز عن كل جديد. وتكشف الأمثال ذلك ومنها مايقول واللى مالوش قديم مالوش جديد، واللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش ، ويتمثل ذلك بين جميع المصريين طبعاً قومياً ولكنه يتجلى واضحاً عميقاً بين الفلاحين والعمال. ويبدو خفياً بين الصفوة من سكان المدن التي لمحبب عليها الحضارة الحديثة ولكن دون أن يفقد أساساً. فمع امتداد الحضارة النصرية نشأت الفردية شعوراً ذاتياً يتجلى في البداية من خلال الولاء للأسرة وبتيماً لأن يمتد حدودها إلى الولاء للأسرة الكبرى الأمة. وغدا المرء ينظر المجتمع من خلال ذاته ومن ثم أخذت بعض العادات تتفكك وتلاشى بوصفها غير ذات موضوع وأخذت النظرة المجتمع تنقسم بالعلمانية بعد أن كانت من قبل وجدانية فحررت الأسرة من الغلو في المشاعر والعلاقات الاجتماعية. فهي تعبر عن عواطفها في حدودها ولا يمثل ذلك إلا من الصفوة فقد غدا المجتمع بهذا وذاك ينظر إلى الأمور بمعايير أحدهما تقليدى والآخر تجديدى حديث. ولكن دون انفصال لأن الحديث يقوم في أصوله على القديم وبينما نجد السريته بين الريف نجد الازدواجية في فرد المدينة على نحو لا يمثل انفصاماً مرضياً في الشخصية .

لقد عاشت الأسرة المصرية ولا تزال متماسكة فلا غرو أن تكون الوحدة الوطنية قوية وهي بعها الكبير .

الخصيل الشافى

الطابع الوطنى المصرى

بين طوابع الشعوب

يتميز الطابع الوطنى للشخصية المصرية بسماته تميزه عن غيره من شعوب المجتمع الدولى ولكنه من حيث الجزء قد يشترك مع هذه الشعوب أو تلك ببعض السمات ، وقد يختلف معها من حيث الدرجة فهو فى الغرب ولكنه ليس غربياً وهو فى الشرق ولكنه ليس شرقياً . ولكنه ككل طابع قومى متميز يتجلى ذلك إذا نظرنا إلى الشعوب المجاورة نظرة مقارنة فباختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية بين مصر والصحارى المجاورة كان ثمة اختلاف بين سكانها على نحو يتسم بطابع خاص فى نوع المعيشة والأخلاق . ويقوم الفرق بين مصر وجيرانها عموماً فى هذا المجال بمقدار الفرق بين الفردية بين الجانبين فالزوجة الفردية لدى أهل البادية واضحة لاتعلوها مسحة اجتماعية إلا فى إطار القبيلة ولكنها لدى المصرى فردية اجتماعية لسانية قبل كل شئ . فليس لدى البدوى ما لدى المصرى من سمات الرضا والقناعة . والفرق بين الاثنين ليس فرقاً بين بيئة الجنوب وبيئة الغرب . ولكنه فرق يرتكز على درجة الفردية ، فالفردية بين البدوى واضحة تؤثر فى جميع مستويات السلوك الاجتماعى بحيث الاستقرار فى نظم الحكم والحياة بين المصريين لا نرى البدو إلا متنافسين حول الرياسة وقل أن يسلم الواحد منهم الأمر لغيره . ولو كان أباه أو أخاه أو أكبر عشيرته ، تتعدد بينهم الحكام والأمراء وتختلف بينهم الأيدى على الرعية . وبيننا ينطبع المصرى على الطاعة نجد البدوى من أصعب الأمم قيادة ، فالحياة السياسية بين المصريين مستقرة طوال عهدها بالسياسة والحكم على نحو يفوق غيرها فى الشرق والغرب . إن المصرى يشور لكرامته ولكن فى غير تعصب بيننا ينضب البدوى لأقل شئ ويسرع إلى الحرب ويميل الطرفان

الحرية ، ولكنها فردية عند البدو واجتماعية لدى المصرى . وينزع الطرفان نحو المساواة ولكن الاول يمارسها في حدود القبيلة ويمارسها الثانى من خلال المعايير الانسانية والبدو شجعان كالمصريين وكلا الطرفين يقوم بالمدافعة عن نفسه ولا يكلها إلى سواه ولكن ثمة فرق بين شجاعة الاثنين شجاعة شعب مصرى مستقر في بيئته لم يكن في حاجة للعدوان إلا بقدر الدفاع ولكنها قبل كل شيء شجاعة الكريم الذى يندفع في ساوكة من خلال المبدأ لنصرة الخير فيضحي به أجل ذلك بالكثير . ويشترك الاثنان في العطاء والكرم ولكنهما يختلفان في ذلك من حيث الطبيعة والدافع .

لقد كان البؤس هو الذى جعل الكرم وإطعام الفقير في البادية وإيقاد النار ليتهدي بها الضيف في مقدمة الفضائل ، الفقر هو الذى حجب لإلهم الإغارة على ما شاءوا وقد جعلتهم الحياة في حاجة إلى أمن ومن ثم كانت الحاجة إلى الشجاعة والوفاء من كبريات الفضائل عملاً وظيفياً . فالكرم في مصر كرم في النفس والبيئة وهما أولاً مصدر العطاء الوفير يمارسه المصريون من حيث المبدأ .

ويختلف الاثنان أيضاً في النظرة إلى الإحسان فالإحسان يأخذ من المصرى مبعلاً كبيراً ولكن بينما يثير الإحسان في البدوى الحقد على مصدر الإحسان والشعور بالخضوع والكراهية نجده لدى المصرى يواجه بالامتنان والشكر وبين البدوى والمصرى حب الأسرة ولكنهما يختلفان من حيث الدرجة في الطبيعة وفي النزعة الاجتماعية ، فبينما نجد طاعة البدوى للأسرة طاعة قد تعلو عليها سلطة الفرد نجدها لدى المصرى طاعة مطلقة ومصدر استقرار وتماسك فالبدوى يدافع عن شرف الأسرة كمن يخوض في معركة يستهدف منها النصر . والمصرى عندما يدافع عن شرف الأسرة يعكس مدى إيمانه بالمبادئ وليس البدوى كالمصرى محباً للفسحة لاختلاف البيئة الطبيعية وموسيقاها ورقتها في النفوس ، بينما تبدو موسيقى الصحراء في وحدة متكررة عابثة رهبة فلا يحب أن ترى أهل الصحراء وقد استولى عليهم انقباض النفس أو الكآبة أو الوجد . والفسحة لدى المصرى دلالة ذكاه أما البدوى فيستتبع مزاجه العصبي أنه يظهر ذكاه

في تعبيراته ولكن ثمة فرق بين الذكامين فذكاء المصرى خلاق أما البدوى فلسافه
أمر من عقله .

والبدوى عكس المصرى من حيث الخيال لخيال الاول محدود قلباً يرسم له
ولكن المصرى يمتاز بمخصب الخيال وقد كان ذلك سبباً لمعرفة المثل العليا ويتجلى
خياله في شتى الفنون .

ومن الشعوب المجاورة أيضاً شعوب البحر المتوسط وهنا نجد أيضاً في الطابع
القومى المصرى تميزاً واضحاً ففيها من هذا الطابع الكثير كما في هذا الطابع منها
الكثير ولكنه يظل طابعاً مصرياً محيراً كسكل . والاختلاف بين الطرفين هو بقدر
اختلاف البيئتين لاسيما البيئة الطبيعية فمناخ مصر يدعوا للسكنية والهدوء بينما يدعو
في البحر الأبيض المتوسط إلى الإثارة ، فثمة بين سكان فرنسا رياح عاتية تلعب
دورها في حياتهم وتؤثر على السلوك الفردى ورياح شمالية تثير الأعصاب . ولكن
لا يتصف مناخ مصر بذلك ، ومن البيئة الجغرافية تكونت روح الشعوب حيث
تكونت الروح المصرية وتكونت الروح اللاتينية من جغرافية البحر المتوسط
وباختلاف الفئتين اختلافت في محور الطابع القومى وهو الفردية فبينما مصر لا تميل عامة
إلى الفردية تميل إلى ذلك بيئة البحر المتوسط بيئة الأراضى المقسمة والسهول المنعزلة
عن بعضها البعض والمحاطة بالجبال والسواحل المشابهة ، جغرافية الجفاف والفيضانات
الغزيرة وثمة بين الحضارة المصرية القديمة والحضارة اللاتينية فرق تام على أساس
الفرق بين درجة الفردية بين الاثنين وبينما تعتبر سيكولوجية الشعوب اللاتينية
سيكولوجية الشباب الذى بلغ سن الرشد نجدها في مصر سيكولوجية شعب ظهر ونضج
مبكراً لا يعد في سلوكه أراجلا في سن الوقار وتختلف السمات بين الطابع القومى
المصرى وطوايع هذه الشعوب اللاتينية من حيث الدرجة فالقناعة والرضا في
سمات الطابع المصرى موجودة ولكنها أمر لسي بين طوايع الشعوب المحيطة وكان
من آثار ذلك الكثير ، اتسام هذه الشعوب بالشك وتميز المصريين بالثناؤل
في استطاعة اللاتين التفريق بين المبادئ وطرق تطبيقها بما يباعد بينهم وبين النفاق
والمداينة والرياء وعدم المبالاة . ويدين المصريون للحضارة المصرية والإسلامية

بمبادئ الأخلاق والتكوين الإجتماعى الذى يقوم على الأسرة كأيدين اللاتين لروما :
بطابعهم الخاص فى ذلك التكوين الإجتماعى الذى يقوم على الأسرة والقبيلة وكذلك :
يدينون لها بمفهوم القانون . .

ومفهوم القانون عند الطابع المصرى غيره بين شعوب اللاتين . فالأول يقوم على
الثقة التى تعتبر أيضا جوهر القانون الانجليزى ، بينما يقوم ذلك بين الشعوب اللاتينية
على التحرر والواقعية وهو بهذا قانون مكتوب وعند اللاتين تعتبر سلطة الدولة
خارجة عن سلطة الفرد وأعلى من السلطة وكأنها سلطة عظيمة الخطر وواجب
الفرد حماية نفسه من هذه السلطة فالدول بهذا لا تبدو أمام الفرد رحيمة ومن هنا
كان سر العاطفة الحماسية التى تتسلح بها الشعوب اللاتينية فى معاركهم السياسية ، بينما
تعتبر الدولة لدى الأنجلو ساكسون تعبيراً عن الجماعة وأداة المواطنين ، ولا جدال
فى اختلاف الطابع الوطنى المصرى فى ذلك حول مفهوم الدولة فرغم امتداد
الحضارة الغربية لإينا لا يزال ذلك الخلف المنحدر من القديم ممثلاً فى سمات ذلك
الطابع القوى والفرد ينظر إلى الدولة من خلال نظريته للأسرة ويجد من المعايير
القديمة ما يعمل على إدماج الكل فى واحد إذا ما كانت الدولة امتداداً لهذا الكل ،
عندئذ لا يحاسبها وقد يختلف معها فلا يملك من موقف غير العزلة منسحباً إلى
داخل ذاته فهو لا يهتم صلاحها بقدر ما يهتم صلاح الأسرة ولكنه يحاسبها إذا
ما امتدت بالمساحات بمقدسات هذه الأسرة لأنها عندئذ تكون ، قد خرجت على
معاييرها . والشعب اللاتينى أقدر من المصرى فى القدرة على التحليل لأن المصرى يميل
إلى البساطة والوضوح ولا يميل فى تفكيره إلى الالتواء ، فنظرته إلى الأمور بهذا
تبعد عن الفلسفة وهو بهذا أبعد عن التعميم أما فيما يتعلق بالمصالح المادية فالمصرى
لا يميل بذلك الوضوح إلى الانتهازية الرخيصة كما يميل إليها اللاتينى ، ومن هنا
الفرق الأساسى بين الشخصين يتميز الطابع المصرى متمسكاً بالكرم والعطاء أكثر
من الأخذ على نحو لا يعرفه اللاتينى قدراً لا نوما وعلى ذلك تجد الفرد فى مصر
فى إطار الفردية الاجتماعية يتنم بالتواضع بينما يتسم اللاتينى من خلال نظريته
الفردية بالكبرياء والزهو قد يضحى فى سبيل نجاحه الشخصى غير متورع بنجاح

الجماعة أياً في طريقة الخاصة فيؤمن بالشك ويملك الإحساس بالواقعية وهي سمات يأخذ منها المصري بتدر ومتدار واسكنها ليست من سماته، وثمة سمات مشتركة بين الشعبين بين عنصرى الفلاح والسككى الفرنسى، فكلاهما يرتبط بشده بأسرته وأرضه وبكل ما يشده إلى بيته . وكل ذلك يتجلى (١) فى فرنسا فى الحياة الخاصة ويتجلى فى مصر على أوسع الحدود وكل من الشعبين يحب الأسرة كسائر الشعوب، ولكن حب مصر الأسرة فياض بالإلحاح، فتجد الفرنسى كرب عائلة وعنو فى هذه الأسرة يحرص على المصلحة المادية فى عاطفة مشبوبة تجاه الملكية الفردية ، وينسجم بروح الادخار التى قد تتحول إلى ضيق فى الأفق وهو أمر يناقض اتجاهها واضعاً نحو الجماعة المثالية، وهو إذا ما اطمأن على مصالحه يسمو إلى التحرر الفكرى ، أما المصرى فسمح فى العطاء ولا يحرص كثيراً على المال ، والفرنسى بفرديته يفكر بنفسه ولا ينحنى أمام سلطة ، إذن فهو ليس من أولئك الذين يؤمنون بالديكتاتورية ، ولكن المصرى لو اتبع أمراً أقامة بنفسه لاساق إليه بطبيعته الطيبة لانخفاض مستوى الفردية عند الشعوب اللاتينية ، فلا عجب إذن أن ينسجم الحكم فى مصر بالاستقرار والدوام والبعد عن الاضطراب، وبينما يميل الشعب المصرى إلى مخاطبة الوجدان والعقل ، يتميز الفرنسى بمخاطبة العقل والمنطق. فثمة فرق بين شعب يقدم العقل على العاطفة وآخر يفعل العكس ، وبينما يتطلب العرف فى مصر أن يكون الفرد طيباً أولاً يجرى العرف فى فرنسا على أن يتكون عاقلاً أولاً .

لقد خضعت فرنسا للدين كما خضعت مصر ولكن كان ثمة فرق فى التزعتين انعكاس للفرق بين طبيعة الشخصيتين ، كان خضوع مصر ولا يزال استغراقاً فى الوعى الدينى ولكن فرنسا قاومت الدين عن طريق مذهب الشك وهو إذا كان متشككاً فى الدين فإنه يتصرف فى حياته ويعيش فى إطار الفكر الرومانى بينالم يسكن المصرى متزماً متشككاً ، لأنه يعيش فى الحاضر من خلال قيم القديم، وكما يختلف الطابع القومى بين مصر والشعوب اللاتينية، عامة كما تجلى على سبيل المثال فى فرنسا يختلف أيضاً مع الطابع البريطانى والالمانى وغيره ، فالشعب البريطانى

(١) ستيفن ر. سيكلوجيا بعض الشعوب ص ٤٧ مترجمة

وهو جماع من السكت والساكسون يقوم بناؤه على تكوين تاريخي لهذه الشعوب ، وهي بيئة الطبيعة فبينما يمثل طابع مصر طابعاً عريقاً يتمثل طابع بريطانيا بالحدامة في الوجود ، ويختلف المصري عن الإنجليزي كلية فقد طبعه المناخ البحرى على سمات خاصة والإنجليزي لا يتواضع في أن يصور نفسه بالغباء ولكنه ذا طبيعة خاصة فهو ينفر من الذكاء القائم على المنطق كذكاء الفرنسي، ويرى أن المشا كل لا تحل بطريقه هندسية ، وهو عكس التفكير المصري فالإنجليزي وهو من بيئة بحرية يتصرف في حياته تصرف ربان السفينة بتطور في جو من عدم الاستقرار ويؤمن بالتطور في غير عنف ، والمصري فردى اجتماعي خلقيا والإنجليزي فردى ذاتى ، وثمة فرق بين الذعتين ، والمصري مطيع عن طابع طبيعة الإنجليزي مطيع برغبة ، والمصري يميل إلى النظام في إطار الولاء نحو النظام أما الإنجليزي فولاؤه للنظام في حرية ، والفردية في مصر إجتماعية وهي مغايرة لوجود الفردية بين الإنجليزي والفرنسيين.

ويختلف الطابع المصري أيضاً عن الطابع الألماني تميزاً لأن لم تعرف العنصرية ولا التعصب الديني ولا رفضت الاختلاط الصحى بالغير. كان التسامح الديني أسلوبها ولا يزال والتعصب الديني والحروب الدموية الداخلية لم تعرفها . كما عرفتها أوروبا وكان التشيع والإضطهاد يأتيها من الخارج كما حدث في فترة الإضطهاد الديني في المسيحية الأولى وكما حدث في عهد الفاطميين عندما أدخل هؤلاء الشيعة .

ويبرز التوازن والاتزان عن طريق الاستعانة والتعايش بين القديم والجديد ، وأصبح من الممكن أن ترى كيف يعيش الماضي في حاضر مصر ، إن الطريق المصري هو التوسط تقبل التجديدات دون نبذ القديم والتسك بالاثنين جنباً إلى جنب والتوسط والاتزان سمات عامة في كل جوانب الوجود المصري ، وقد تجلت هذه السمة على التوازن بين سائر السمات فزعة القديم بل عن حذر وتقدير ، والبساطة ليست في غلواء والطاعة ليست خضوعاً وسلباً ، والامبالاة ليست مطلقة والفكاهة ليست هذراً ، وانك لتجد هذه الملاسكة في مجرى التاريخ واضحة . فلم تجدى في الثورات غلوا وكانت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ أروع مثال على ذلك التوازن فهي تركيب بين القرار والتقيض وسط يجمع بين التقيضين لاهى باليمينية ولاهى باليسارية بل تأليفاً بين تقيضين في تطور جديد لخدمة مصر والعروبة .

الباب الثالث

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

والوحدة الوطنية

انطلقت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ امتدادا لدقوى ضارب بجذوره في أعماق التاريخ .

وما انطلقت ... حتى لقيت تأييدا شعبيا نم عن تماسك شعبي كبير ووحدة وطنية صادقة .

وبفضل تماسك هذه الوحدة الوطنية نجحت الثورة في تحقيق أهدافها ، وقد سارت تحقيقا لإنجازاتها الثورية في المجالات المختلفة .

وحفاظا على هذه الوحدة الوطنية . قامت الثورة في ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ بإلغاء الأحزاب السياسية باعتبارها أوكارا للفساد السياسي والتلاعب بحقوق الوطن ، ثم قامت بإنشاء هيئة التحرير في ٢٣ يناير سنة ١٩٥٣ لمواجهة الاحتلال المتربص وتكتلات القوى المضادة للثورة ، وخاصة بعد حل الأحزاب السياسية ومتطلبات الهدف المشترك الاسامي والعاجل وهو تحرير الأرض وتمكين كل العناصر الوطنية من وجودها داخل إطار واحد ، ثم ظهر الاتحاد القومي في ١٩٥٧/٥/٢٨ كضرورة لمرحلة تدعيم الاستقلال الوطني في أعقاب المدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ ، وبعد تمصير الشركات والمؤسسات الرأسمالية الفرنسية والبريطانية أي جاء في المرحلة التي كانت المهمة الأساسية فيها هي التنمية الاقتصادية وبناء اقتصاد قومي قوي والبدء في الانتقال بالمجتمع من حالة التخلف إلى حالة التقدم ، ثم تبلورت هذه التجارب في عام ١٩٦٢ في تجربة أخيرة هي الاتحاد الاشتراكي العربي باعتباره الممثل لتحالف قوى الشعب العاملة ، وقائد العمل الوطني ، والتجسيد الحلي للوحدة الوطنية المقدسة .

الفصل الأول

إنطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

نهاية مدد قومي

من أصول كانت تنبأ وتختصر مع الأيام في أعماق المجتمع العربي في مصر الحديثة ، وتعبّر عن ذاتها في سلسلة من الانبثاقات القومية ، انطلقت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ مرحلة عليا كذروة لنضالنا القوي ، نضالا مصرياً ثورياً عربياً في أسلوب جديد ومنهج جديد وأبعاد لمرحلة جديدة في مجرى القومية العربية .

وكان النضال القوي من قبل نضالا بضرورة التماسك والوعي السياسي القوي ، لا تكاد تنبثق حتى تنال منه قوى معادية كانت انعكاساً لتكوين المجتمع القائم وقوى الاستعمار .

بدأ ذلك لإشراقاً قومياً في مصر الحديثة في بداية القرن التاسع عشر ، وما لبث أن منى بالنكسة ، ثم تجلّى في ثورة عرابي التي كانت ذروة ذلك المد القومي في علاج النكسة . ونظراً لحاجة ذلك النضال إلى مزيد من الوعي القوي السياسي بالذات جاءت النكسة باحتلال مصر . ولكن ما لبث الروح القوي أن عاد في نهاية هذا القرن وطلیعة القرن العشرين ، يكافح الاحتلال حتى تجلّى على يد المثقفين بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم انتهى بامتداد تجدد المجتمع المصري بثورة عام ١٩١٩ الشعبية ، ثورة مثلت مرحلة أعلى في مجرى نضالنا القوي ، وهي وإن لم تحقق أهداف ذلك النضال كلها إلا أنها نقلته إلى مشارف ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . وكان طبيعياً أن يستمر الاتجاه القوي في نموه قدماً وهو ينبعث من أعماق المجتمع العريق إلى غايته حتى يحققها ، فلما تعالفت في نهاية الشوط قوى الاتجاه المعادي له وبلغ ذلك التحدي ذروته كانت حتمية التاريخ في مجرى المد القوي أن يكون في مراحله العليا ، كاستجابة لهذا التحدي ، ثورة يكون مركز الثقل فيها

طليلة ثائرة من الجيش وبأسلوبه بعد أن توافرت لديه حوافر الثورة لمعالجة الموقف كله علاجاً جذرياً .

ولإذ تمثل ثورة ٢٣ يوليو نهاية مد قومي فقد مثلت قيادتها ومنهجها وأسلوبها بداية حقبة لنضال ثوري يفرضه الوجود العربي ومن مستلزمات بعثه ، ولقد نشأت عناصرها من صميم المجتمع العربي المعاصر في مصر نشأة ثورية من وحدة بناء الجيل الصاعد الذي لشأحراً فيما بين الحربين يحدد من الطبقة المتوسطة ويتأثر بالحوادث آنفئالاً ، يراقبها ويتابعها تحفراً لمعالجتها .

ومن خلال المبدأ القوي أخذ أفرادها يتابعون سير الأحداث من خلال مبادئهم القومية ويدركونها وزناً من خلال معايرهم القومية فيتأثرون بها بأسلوب خاص ، ويضعون أيديهم على عناصر الداء ، من تحكّم الاقطاع والاستعمار والسرّاء والرأسمالية ومدى حرمان سواد الشعب من خبرات بلاده . ويتابعون بألم فساد الحياة النيابية وحرمان البلاد من حرية الرأي وانحلال المجتمع وانسحاب ذلك الفساد إلى الجيش . مستنداً إلى الاستعمار .

وكانت حرب فلسطين عاملاً كبيراً في تغذية الشعور القومي بين الجيش ، فقد أتمد الجيش من خلالها يدرك إدراكاً مباشراً مدى فساد نظام الحكم ، وتحكّم الاقطاع ثم يحس بقبضة ذلك الاستعمار التي حالت دون تطور الجيش .

وفي حين كان هؤلاء من الطليعة يرقبون الأحداث من خلال المبدأ القوي كانوا يشهدون كفاح الطليعة من المدنيين من الشعب في كفاحها من أجل الجلاء واستعدادها على مر الأيام لتضحيات كبرى ، وإصرار الاستعمار على البقاء مما اضطر الحكومة لإلغاء معاهدة ١٩٣٦ في عام ١٩٥١ ، الأمر الذي زادهم شعوراً بالواجب وفتح أمامهم الطريق للعمل فاسهموا في الكفاح المسلح الذي بدأ في أعقاب إلغاء هذه المعاهدة .

وفي حين كان ذلك المد يعضى قدما كانت الأحداث تفتح أمامهم الطريق لأن يتقدموا الصفوف ويتزعموا الشعب للنضال ضد الاستعمار والرجعية وتنادى الاستعمار في تصديه لمصر ، ذلك لإنقاذ الموقف جذرياً ، وما لبث أن أعلن الجيش ولادة النضال القوي وتزعمه ، تحت قيادته ، وفي خدمة أهدافه ، متحدياً لإرادة القومي

الحاكمة التي شاعت عزل الجيش عن هذا النضال ، ومن ثم فتح الطريق أمام
لإرادة التغيير العربى ، فانبثق على يديه فجر النضال الثورى .

ولإذ تمثل الثورة نهاية مد قومى فقد جاءت فى ذاتها أثبت مكانة فى مجرى
النضال منذ أن استهدفت معالجة ما كان فى ذلك المد يعاينيه أثناء سيره ، كما جاءت
نضالا ثوريا جديدا فى منهجها وأهدافها منذ أن أخذت تجدد من المجتمع المعاصر
فى مصر ، حتى غدا ذلك مجتمعا متحررا فى أمن اقتصادى وسياسى واجتماعى بما
جعل منه نواة بناء لمجتمع عربى حديث .

وكانت الثورة فى أسلوبها ترشيدا عليها لما يجب أن يكون عليه
النضال العربى .

ورغم ما واجهته من شدائد وصعاب ومؤامرات فقد مضت بقوة تمثل
بداية النضال الثورى العربى فى انتصارات متوالية وقد توافر على يديها ما كان
المجتمع العربى فى حاجة اليه ، قوة ثورية تجددية وتحميه وتقوده إلى النصر فى
مواجهة الصهيونية والاستعمار .

الفصل الثاني

الوحدة الوطنية

وتصفية الاستعمار

وبينما كانت الثورة تتجه للقضاء على السيطرة الداخلية ، ومعالجة المسائل الداخلية ، كانت تعمل على مواجهة السيطرة الخارجية ، كما كان يمثلها الاستعمار البريطاني ، وقد انتهت محاولاتها في ذلك إلى صدام مسلح بين الطرفين بالعدوان الثلاثي عقد النصر فيه لمصر الثورة .

وأخذت مصر تستعد لمقاومة الاحتلال البريطاني ومنازلته واحباط خطته ، فتوجهت في القضاء على القوة الداخلية المتحالفة مع الاستعمار عندما خلعت الملك وألغت الملكية وضربت الروح الاقطاعي والرأسمالية المستغلة ، اقتصادياً وسياسياً .

كما نجحت الثورة في شل نشاط الانجليز في البلاد بفضل ما اتخذته من تدابير الرقابة على نشاط العناصر الانجليزية في البلاد وحصر التعاون مع الانجليز في نطاق محدود وإلغاء الصحف الحزبية المسيرة للاستعمار كما لشطت في مراقبة القوات البريطانية في القناة .

بجانب هذا ، أخذت مصر تستعد عسكرياً لمنازلة القوات العسكرية إذا حدث ورفضت بريطانيا الجلاء ، فأنشأت مراكز لتدريب الحرس الوطني والفدائيين لخوض حرب نضال ضد الانجليز في القناة ، والاهتمام بمصانع الاسلحة وتخزين كميات كبيرة من البترول .

ولشطت مصر في مكافحة الاستعمار ولقد بدأت في دعوة بريطانيا لتصفية قضية الجلاء إبان محاولاتها لتصفية قضية السودان .

فبينما كانت مصر الثورة تستعد للمركة الفاصلة مع الاستعمار ، كانت تتجه نحو

السودان بنظرة جديدة تقوم على الايمان بضرورة منح السودان حقه في تقرير المصير ، فقامت اتفاقية السودان في ١٢ فبراير عام ١٩٥٢ بين الحكومة المصرية وبريطانيا بشأن الحكم الذاتي ، وقد انتهت بتقرير المصير للسودان .

وقد قضت الاتفاقية بانهاء الحكم الثنائي المصري — البريطاني وتقرير حق شعب السودان في تقرير مصيره ، وممارسة السودانيين لثئون الحكم في بلادهم أثناء فترة الانتقال السابقة على تقرير المصير ، ثم الاحتفاظ بوحدة السودان بوصفه إقليماً واحداً .

وسرعان ما انتهزت الثورة فرصة إبرام اتفاق السودان فدعت الانجليز للدخول في مفاوضات لتصفية القضية الثانية الخاصة بمسألة القناة والجلاء .

ولقد وقعت مصر أثناء مفاوضات الجلاء ، مع التداير التي تتخذها استعداداً للحركة مع الانجليز ، موقفاً ينطوي على شيء من الرغبة في التفاهم ولكنه لم يكن مرضياً لبريطانيا ، الأمر الذي جعل المفاوضات — وكانت قد بدأت في ٢٧ أبريل عام ١٩٥٢ — تمتر ثم تنقطع في ٨ مايو من نفس العام بسبب تمسك وفد مصر بتحقيق مطالبه التي كان أهمها الجلاء التام ، وتسليم القاعدة العسكرية ووضعها تحت إشراف مصر وغير ذلك .

وأ سرعت قيادة الثورة بتنظيم المقاومة المسلحة في منطقة القناة ، ولكن لم يحض وقت طويل حتى عقد في ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤ الاتفاق النهائي بين مصر وبريطانيا المتضمن تنظيم عملية الجلاء عن "منطقة القناة وكان أهم نصوصها : —

١ — جلاء القوات البريطانية جلاء تاماً عن الأراضي المصرية خلال فترة عشرين شهراً من تاريخ التوقيع على الاتفاق الحالي .

٢ — انقضاء معاهدة التحالف الموقع عليها بلندن في ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ ، وكذلك جميع ما جاء فيها من اتفاقات أخرى .

وقد جاءت النصوص الأخرى تنظيمية وقد اشترط أن يظل الاتفاق نافذاً مدة سبع سنوات ، ولقد حققت اتفاقية الجلاء ، جلاء القوات البريطانية عن مصر كما أعفتها من الارتباط بمعاهدة الدفاع البريطاني عن الشرق الأوسط .

ورغم ما جاء في الاتفاقية من التزامات فرضت على مصر ، خاصة ما جاء فيها بعودة القوات البريطانية في حالة وقوع هجوم مسلح على مصر من دولة في الخارج ؛ أو في حالة حدوث تهديد بهجوم مسلح من دولة من الخارج ، فإن ذلك لم يدم طويلا ، فقد أدت الأحداث التي أعقبت الاتفاقية إلى تصادم بين مصر وبين بريطانيا-متحالفة مع إسرائيل وفرنسا ، تصادما أنهى هذه الاتفاقية واستكمل حرية مصر في معركة حاسمة فقد انتصرت فيه مصر الثورة على ذلك العدوان الثلاثي الذي وقع عاها عام ١٩٥٦ .

العدوان الثلاثي وانتصار الوحدة الوطنية :

كان الاستثمار الغربي ، منذ أن ثبت أطباعه في الشرق ، يسوء أن يرى مصر قوية منيعة عزيزة الجانب لأنه كان يدرك أن الحفاظ على هذه الأطماع هو في الإبقاء على مصر في حالة من الضعف والتدهور .

وكانت سياسته إزاء مصر أن يعطى ويمنح على شرط ألا يهدد ذلك مصالحه فإذا ما نهضت مصر تهدد مصالحه لا يجد مناصاً من التآمر عليها بشتى الوسائل . ليوقف ذلك المد القوي ، فإذا لم يجد ذلك لديه وأحسن بالخطر الدائم من مصر المناهضة على مصالحه فليس لديه من سبيل غير استخدام السيف حيث لم ينفع السوط .

ولقد عاضت مصر مع ذلك الاستثمار معارك هامة في كفاحها من أجل الحرية والقومية تفاوتت في درجات النجاح وكانت معركة السويس عام ١٩٥٦ إحدى أهمها ولكن أعظمها نصراً ونجاحاً .

ولقد درج الغرب الاستثمارى على سنته إزاء مصر ، فلما كانت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ فتح عينيه على بحث قوى جديد كان امتداداً لمد قوى سابق ، فصر التي أرادها الغرب في حالة من الضعف قد استطاعت فك القيود والتحرر وزادت في قوتها لتحتل مكاناً مرموقاً .

وعند الاستثمار إلى التجرش بمصر على يثير في طريقها المصاعب والاضطراب فدفع بإسرائيل للقيام بسلسلة من الاعتداءات على الأراضي العربية اتسمت

بالغزو المسلح ، ولكن لم يكن ذلك ليرد هذه الثورة عن طريقها بقدر ما كان نقطة تحول ، فبدأت توفق في كسر احتكار السلاح ، وقد أصبح بهذا من مستلزمات وازن القوى في هذه المنطقة .

وحاولت مصر أن تستكمل جيشها بالسلاح فاجأت في البداية إلى الغرب تطلب السلاح من إنجلترا فأخذت تلك تراوغ وتشتط شروطاً تمس حصرية مصر ، كطالها انضمام مصر إلى حلف بغداد ، ثم لجأت إلى الولايات المتحدة الأمريكية فوضعت أمامها الصعاب في إتمام ذلك ولم تستطع مصر الحصول على السلاح من فرنسا ، فلما تعذر على مصر الثورة الحصول على السلاح من الغرب انجذبت إلى الكتلة الشرقية ، إذ ذاك وقت إلى عقد صفقة لشراء ما كان يلزمها من السلاح من تشيكوسلوفاكيا مقابل تزويدها بالقطن والأرز المصري في عام ١٩٥٥ .

كسرت مصر الثورة احتكار السلاح فارتبط ذلك بتأمين سلامة الدول العربية من الخطر الصهيوني وذلك بدعم الوحدة العسكرية في الشرق العربي ، إذ أبرمت مصر مع سوريا عام ١٩٥٥ ومع العربية السعودية في نفس العام ومع اليمن في العام التالي أحلافاً عسكرية موجهة ضد إسرائيل ، اعتبرت بها الدول العربية الأربع أن كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة منهم يعتبر اعتداء عليهم ، ثم عقدت عام ١٩٥٦ في عمان اتفاقية نصت على إنشاء قيادة موحدة لجيوش سوريا والأردن ومصر ، وقد نهضت مصر تلشء لنفسها سياسة مستقلة وتقضى على احتكار السلاح وتقيم اقتصاداً نامياً ومجتمعاً حديثاً ثم تصعد في مذقوى لتكوين للعرب ولافريقيا والحرية في كل مكان متاراً .

لم تسترح القوى الاستعمارية والصهيونية إزاء ذلك التطور الذي بدأ مع فجر الثورة ناهضاً لتحقيق مجتمع أفضل فكان طبيعياً أن تلشط لتواجه ذلك المد حفاظاً على أطماها .

شعر الاستعمار بالتهديد فبدأ يواجه الموقف بالمؤامرات ، وكان متوفماً بعد هذه البداية إذا مضى ذلك الجد القوى إلى غاية العظمى ألا يجد الاستعمار مناصاً من تطبيق سننه التقليدية باستخدام القوة الحفاظ على أطماعه .

وجه الاستعمار حملات شديدة ضد مصر الثورة، فلم تجد بعد أن مضت في سبيلها التحرري ، وجه في البداية حرباً نفسية موجهة من جميع محطات الإذاعة لإثارة الأكاذيب ضد الثورة والدعوة صراحة إلى التآمر والتمرد .

وحاول الاستعمار باسم التحالف مع الدول الكبرى أن يربط مصر بركابه بمحاولة ضمها إلى حلف عسكري للشرق الأوسط لكن الثورة ظلت متمسكة بما رآه من أن الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط ، لابد أن ينبثق من داخل المنطقة ذاتها .

ولجأ الاستعمار إلى فرض الحصار الاقتصادي حول مصر ، فاستطاعت حكومة الثورة أن تقوت على الاستعمار أغراضه ، فخطمت ذلك الحصار الاقتصادي وفتحت آفاقاً جديدة للاقتصاد المصري في الخارج والداخل بتصدير الشركات والاستثمارات الأجنبية الاحتكارية . . . وغير ذلك .

ثم جاءت معركة تمويل السد العالي لحاولت القوى الإستعمارية ، بعد أن فشلت في مؤامراتها السابقة ، أن توجد وسيلة للنسأومة حول تمويله يحدوها الأمل في تكبيل مصر بأغلال تشغيلها عن اتجاهها الثوري المساعد .

كانت الثورة قد أدركت مع نشاطها الثوري في شتى الميادين أن تطور الاقتصاد في المجتمع هو الأساس الراسخ لاقامة الحرية السياسية والحرية الاقتصادية فقامت ببناء سد يتحكم في مياه نهر النيل بما ينتهي إلى تدعيم الاقتصاد الزراعي وبالتالي تطور الصناعة من مساقط مياه السد .

وكان لا بد لها من الحصول على قرض خارجي لمباورتها في بناء ذلك السد وما يستلزمه من مشروعات شتى فدت يدها إلى البنك الدولي للإنشاء والتعمير ، وكان موقفه لا عوناً ، ولكن محاولات لفرض السيطرة الإستعمارية على الاقتصاد فكان من شروط هذا البنك والتي طالب بها :

- ١ — الاتفاق على تقام لفرض وصاية على المصروفات العامة للدولة .
- ٢ — علم لإبرام أية اتفاقية دولية تحمل الدولة ديناً خارجياً إلا بعد التفام مع البنك الدولي أولاً قبل الاتفاق على أى مشروع .
- ٣ — أن تكون لإدارة المشروع عاصمة للاتفاق مع البنك الدولي .

ورفضت مصر ذلك بطبيعة الحال ، وأعلن البنك الدولى إيقاف الاعتماد الذى كان يقدر بمائتى مليون دولار لتمويل مشروع السد تنفيذاً لرغبة الاستثمار مثلاً بصفة خاصة فى إنجلترا والولايات المتحدة .

ولقد ظن هؤلاء أنهم قد حاصروا الثورة فى الراوية التى أرادوها أن تكون من أمد طويل ولكن عبثاً ما حاولوا فقد جاء ذلك استثناء زادت الشعور العام غضباً ضد ذلك الاستثمار .

وكان الرد على ذلك الاستثمار الأحق رداً بطولياً بحق ، ففي مساء ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ ، ومن ميدان المنشية بالاسكندرية ، وقف قائد الثورة البطل يتحدث إلى « الاخوة المواطنين » ويرد على خيانة الغرب لعموده ويعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس .

وقد أوضحت المذكرة الإيضاحية للقانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ الخاص بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ميزات ذلك التأميم وحق مصر فى ممارسة هذا الإجراء الذى مارسه من قبل الدول الأوروبية كفرنسا وإنجلترا .

كان الغضب فى قلوب الدول الاستعمارية يستشري كل يوم حثواً وبنصاً للثورة ومبادئها فى احساس بالكبرياء الاستعماري الجريح ، وكان قرار التأميم عاملاً جديداً زاد من تيران الغضب السكامن تأججاً ثم فجره تفجيراً .

مس القرار الكبرياء الاستعماري فى الصميم عند ما بلور أمامه قوة الثورة القومية ، ثورة لا تأخذ بالمصالحة ولكن بمثالية تسعى إلى استكمال الوجود المصرى الحر الكريم ، فازداد الغرب شعوراً بتهديد مصالحه على يديها ، وأخذ يشعر بانهداز هيئته على يد الثورة وكأنما أصابه من من الشيطان ، فعزى يتخذ سبيله إلى الحرب .

وكان لا بد للاستثمار من تمهيد لذلك العمل ولكن فى اعداد قد يهيء الجو لحل الموقف جزئياً .

وبدأت طلائع ذلك فأسرعت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية باتخاذ اجراءات اقتصادية ضد مصر : لجمعت بريطانيا أرصدة مصر الاسترلينية

وحلت فرنسا حذوها لجمدت جميع أرصدة مصر وأموالها لديها ، وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي لندن اجتمع وزراء خارجية هذه الدول للتشاور فيما يجب عمله من إجراءات لاحتواء قرار التأميم ، وأصدر وزراء خارجية الدول الثلاث في أغسطس عام ١٩٥٦ بياناً حولوا فيه على قيام دولة واحدة بالاستيلاء التعسفي على هيئة دولية ، وطالب البيان بمقعد مؤتمر عاجل يجمع بين الدول الموقعة على اتفاقية القناة والدول الأخرى التي لها مصلحة حيوية في استخدام القناة ، وذلك من أجل إيجاد تدابير فعالة لإدارة القناة تحت إشراف جهاز دولي ، ولقد تضمن هذا البيان إجراءات تهديدية عسكرية للضغط على مصر ، وقامت إنجلترا ومعهما فرنسا بتحركات وتدابير برية وبحرية وجوية ردت عليها مصر بإنشاء جيش التحرير الوطني في ١٩ أغسطس عام ١٩٥٦ وتوزيع السلاح على المتطوعين فأقبل هؤلاء على حمل السلاح في حماس استمداداً للقتال .

ومع شعور الغرب بخطورة الموقف أخذ ينقسم على نفسه ، ومع الانقسام بين صفوف الشعب البريطاني حول استخدام القوة والتدخل العسكري ، لم يلبث أن تجلّى الموقف لإزاء هذه المسألة بانقسام آخر بين بريطانيا وأمريكا منذ أن صرح ايزنهاور بأن بلاده لا تقر حليفها بريطانيا في استخدام العنف ضد مصر ، وتفضل أن تحل مسألة القناة بالطرق السلمية ، كما عارضت بعض دول الكومنولث البريطاني كالهند وسيلان على السياسة الاستعمارية العنيفة كما أن الاتحاد السوفيتي وأندونيسيا وغيرهما أقروا حق مصر الشرعي في تأميم القناة ، وكذلك أعلنت الدول العربية وقوفها بجانب مصر ، ومع هذا مضى أيدن في سياسته الطائشة في تعبئة قوى بريطانيا العسكرية .

وبين ألوان هذا التهديد اجتمع مؤتمر لندن في الفترة من ١٧ - ٢٣ أغسطس عام ١٩٥٦ لبحث مسألة القناة وقد تمخض المؤتمر عن انقسام في الرأي ، فرأت ١٨ دولة (من بين ٢٢ دولة وافقت على حضور المؤتمر) تكوين لجنة دولية لإدارة القناة ، فعارضت في ذلك كل من الهند وأندونيسيا وسيلان والاتحاد السوفيتي

حيث أيدت كلها بحق مصر في التأميم والإشراف على قناتها كدولة ذات سيادة ،
وأخيراً قررت الثمانية عشرة دولة أن توفد لجنة خماسية لعرض مقترحاتها على
مصر وليكن ما كادت هذه اللجنة تصل مصر ، حتى اشتدت مظاهرات العدوان
المسلح ضدها من الدولتين الاستعماريتين : فرنسا وإنجلترا .

نزلت فرقة من جنود المظلات الفرنسيين في ٢٩ أغسطس في قبرص وتحركت
موحدات فرنسية بحرية إلى شرق البحر الأبيض وتجمعت قوات بحرية وبرية
و جوية في بريطانيا ، ثم فرنسية بالقرب من قبرص ومالطة كل ذلك للضغط
السياسي غير المباشر على مصر ، ولكن ذلك لم يكن له أثر فقد زادت الثورة
إصراراً على موقفها الثوري وعندما اتجهت بريطانيا وفرنسا إلى رسم خطة
غزو مصر ، لم تسكن تلك من أجل القناة ، بل كانت من أجل القضاء على المبادئ
الثورية التحررية التي تنبثق من مصر الثائرة .

لقد أصبح تأميم القناة في أعماقه في عين الاستعمار البريطاني ; أمراً خطيراً لأنه
يهدده في منطقة تعتبر حساسة لديه ، وينزل من هيبة الامبراطورية البريطانية
ويهدد أصدقاء بريطانيا وبتحول الشرق العربي .

وقد تجلى ذلك في أحد خطابات لوردن السرية لايڤنهاور أول أكتوبر عام
١٩٥٦ إذ أوضح لوردن كل هذه المعاني فقال : « إذا لم نستطع إسقاط عبد الناصر
فلسوف ينتهي مركز بريطانيا الخاص في المنطقة ، وتصبح قواعدها كلها تحت
درجة النفوذ ويختفي أصدقاؤها واحداً بعد واحد ثم يمتد النهب العربي إلى موارد
البترول ذاتها وحينئذ تنتهي بريطانيا ويتحطم التحالف الغربي العظيم
من أساسه » .

ولقد التقت رغبة إيدن ووزير خارجيته سلوين لويد مع رغبة جى موليه
وزير خارجية فرنسا في القضاء على حركة الثورة العربية ، وقد كانت فرنسا
تعتقد إذ ذاك أنها لا تستطيع اتحاد ثورة الجزائر بغير اتحاد ثورة مصر ، وفي
لقاء مع سلوين لويد في بداية عام ١٩٥٦ قال كريستان بينو رئيس وزراء فرنسا
بصرامة : « ان فرنسا مصممة على إسقاط النظام الحالي في مصر ، لأنه غير قابل

للغنام. وإننا الآن ندرس خطة تستطيع إسرائيل بمقتضاها أن تهاجم مصر وتغزوها ، إن الإسرائيليين لديهم هذا الاستعداد ، وهم يرون مصر تسليح ، ولا يمكن أن يقبلوا الانتظار حتى تتم مصر استعداداتها وتنقض عليهم ، وهكذا صممت فرنسا على غزو مصر بمعاونة إسرائيل فقدمت لإسرائيل أسلحة من غير حساب كما تعهدت لإسرائيل بالآتي :

١ — تقوم فرنسا مباشرة بحماية المذن الاسرائيلية والساحل الاسرائيلي من هجمات الطيران المصري والبحرية المصرية .

٢ — تقوم فرنسا بالمعاونة التكتيكية بالطيران فوق ميدان القتال في سيناء لمساعدة القوات البرية الاسرائيلية ولتنج هجمات الطيران المصري عليها .

٣ — تقوم فرنسا بعملية ضرب الاهداف الاستراتيجية في قلب مصر ذاتها على المرافق والمطارات وغيرها .

ثم تحولت هذه المؤامرة الثنائية إلى مؤامرة ثلاثية بدخول بريطانيا طرفا ثالثا ، ثم رسمت خطة العدوان على مصر على الوجه الآتي :

١ — تعرض بريطانيا وفرنسا بمسألة القناة على مجلس الأمن لبحث الموقف الذي ترتب على انتهاء النظام الدولي لإدارة القناة وذلك حتى تتم التعبئة العسكرية اللازمة لضرب مصر فرفضت أزمة القناة فصلا على مجلس الأمن في سبتمبر عام ١٩٥٦ ، وفي ١٣ أكتوبر وافقت أغلبية أعضاء مجلس الأمن على أن تدور مفاوضات مباشرة بين بريطانيا ومصر وفرنسا لحل مشكلة للقناة بالطرق السلمية .

٢ — محاولة تعطيل الملاحة في القناة باستدعاء المرشدين الأجانب حتى تجسم بريطانيا وفرنسا ذريعة للهجوم العسكري على مصر وقد باء ذلك بالفشل .

٣ — تقوم إسرائيل بهجوم مفاجيء على شبه جزيرة سيناء في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ لإبان الشغال أمريكا بانتخابات الرئاسة وفي الوقت الذي يكون فيه الاتحاد السوفيتي منشغلا في ثورة المجر ، فتسرع بريطانيا وفرنسا بغزو القناة بحجة التدخل لوقف الحرب بين الطرفين .

وقد ثبت ذلك التواطؤ بين الدول الثلاث ، أولئك المؤامرة الثلاثية التي مهدت

العدوان الثلاثي في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ بعد أن قام ثمة اجتماع بين سلويد لويدي ودافيد بن جوريون وكريستيان بينو وقد أصر بن جوريون في هذا الاجتماع على أن يوقع الثلاثة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل اتفاقاً يرسم دور كل منها في خطة الهجوم على مصر وقد حرر هذا الاتفاق فعلاً من نسخة واحدة مبالغة في السرية ، وقد احتفظ بهذه الاتفاقية بن جوريون ، وقد كانت إسرائيل هي الطرف الذي أقر عليها حتى تطلعت وتبدأ الهجوم على مصر في الموعد المحدد .

وقد هاجمت القوات الإسرائيلية الحدود المصرية في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦ فأسّرت بريطانيا وفرنسا بالاشتراك في العمليات الحربية بعد أن قدمتا ائذاراً إلى مصر بوقف الأعمال الحربية في مدة ١٢ ساعة ، والانسحاب مسافة عشرة أميال غرب قناة السويس والتسليم بأحتلال بورسعيد والاسماعيلية والعريش بحجة الفصل بين المتقاتلين ، وحماية القناة غير أن حكومة الثورة فوّت على الاستمرار أغراضه ففوّرت الانسحاب من شبه جزيرة سيناء والاحتفاظ بسلامة القوات المصرية وحشدتها مع الشعب .

وفشل العدوان الثلاثي على مصر ، بفضل صمود المقاومة المصرية وتضامن الشعب مع الجيش في مواجهة العدوان أولاً ، ثم من مساندة الأمة العربية ودول آسيا والشعوب المحبة للسلام ، والرأي العام المعادي للاستعمار ، وكان ائذار الاتحاد السوفيتي للدولتين الاستعماريتين المعتديتين باستخدام الصواريخ الموجهة ضدهما من أكبر المواصل التي أكدت ذلك الفشل وعجلت به ، وقد أئذار الاتحاد السوفيتي أيضاً إسرائيل بإعادة النظر في موقفه من وجودها .

وأخذت قوى العدوان في التراجع ثم تجل الموقف في قرارات الأمم المتحدة بوقف القتال والانسحاب من الأراضي المصرية ، ودخلت الأمم المتحدة في المنطقة للإشراف على عمليات الانسحاب وللاستقرار على خطوط الهدنة بين إسرائيل والبلاد العربية وأسّرت القوات البريطانية والفرنسية في الانسحاب ثم تلتها القوات الإسرائيلية .

وفشل العدوان الثلاثي وسقطت معه سياسة الاستعمار التقليدية إزاء مصر

وخرجت منه مصر الثورة تستكمل وجودها الحر بشئى الوسائل فى الداخل والخارج .

وألغت مصر التزاماتها المقررة بمقتضى اتفاقية الجلاء، وتم ذلك بمقتضى القرار الجمهورى بقانون رقم ١ لسنة ١٩٥٧ الصادر فى أول يناير عام ١٩٥٧ ، وقد نص ذلك على اختيار اتفاق أكتوبر عام ١٩٥٤ كانه لم يكن ، ابتداء من ٣١ أكتوبر عام ١٩٥٦ فقطح ذلك آخر خيط يربط مصر ببريطانيا .

واتجهت مصر المنتصرة ، تقضى على الاستثمار الاقتصادى فى سيطرته على الاقتصاد المصرى ، وبفضل قوانين التمصيل والتأمين اختصت مصر بأرباح الشركات الاجنبية السابقة لكى تعافى على رءاء البلاد .

ولقد كان انتصار مصر انتصاراً عربياً وأفريقياً بل انتصاراً للشعوب المناهضة ضد الاستعمار من أجل القومية والحرية .

انتصرت مصر فضت وهى تستكمل وجودها فى الداخل تؤيد حركات التحرر عموماً وتزعم النضال العربى وتشد أزره ، وترى فى معاونة النضال الأفريقى المهادف إلى تحرير القارة جزءاً من أهدافها فى نضالها من أجل التحرر ، فأخذت تمدها للناضلين فى القارة بشئى الوسائل ، وقد جاء انتصارها على الاستثمار تمشيداً عملياً لما يجب أن يكون عليه النضال ضد الاستثمار ، فقد عبأت بانتصارها الشعور المعادى له ، وأنزلت من هيئته فلم يعد رهيباً كما كان ، ومن ثم كان انتصاراً عربياً وأفريقياً من أجل الوجود الحر الكريم .

الفصل الثالث

الوحدة الوطنية في مصر

وهدوان ٥ يونيو ١٩٦٧

منذ أن تحالفت الإطامع الاستعمارية الصهيونية قبلورت ، في إقامة إسرائيل ، كان الغرب الاستعماري يعمل جاداً لتمكين هذه الدولة المصطنعة من القوة والوجود ليصبح أقدر على تحقيق مطالبه في تحقيق أحلامها على حساب العرب .
وكان طبيعياً لكي تبقى وتحقق أهدافها كما أرادها الاستعمار وهو يلفظ أنفاسه بأن يمكنها من القدرة في الوقت الذي يمكن العرب من التفكك والضعف :
بمشق الوسائل .

ومنذ طلائع النضال الثوري أحس الاستعمار وإسرائيل بالخطر الدائم ، ومضت طلائع النضال الثوري تجدد من التضامن العربي ، وتعيد بناء المجتمع بما يحمل من القوة نزعة ثورية ، ثم كان الهدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ في جوهره هادفاً إلى القضاء على ذلك النضال في مهده ويسند أطماعه في الوطن العربي ويصون وجود إسرائيل كضمان لهذه الإطامع ، فلما فشل وانحسر النفوذ البريطاني عن المنطقة العربية تقدم النفوذ الأمريكي للملء الفراغ وحمل الرسالة ، فدأب على القضاء على النضال الثوري بمختلف الوسائل ، فلما تجدد النضال الثوري وتعزز ضاعداً من الوطن العربي أحست السيطرة الأمريكية بذلك الخطر على مسيرة القضاء على معيثر إسرائيل ، عندئذ وضعت خطة لهدوان ثلاثي جديد يأخذ بحظاظا جديداً في أساليبه مستترا وراء إسرائيل للقضاء على النضال الثوري ، وذلك منذ أن عادت القوى الثورية إلى سوريا لتعزيز وحدته في كيان النضال الثوري بعد سأن امتد إلى العراق والجزائر .

كان بهم قوى الصهيونية والاستعمار أن يقضى على ذلك النضال ، وذلك بأن

تفكك هذه القوى الثورية حتى لا تتجمع فتعود سوريا إلى ما كانت عليه من قبل، كان من شأن هذه القوى إذن أن تتمكن سيادة الرجعية من سوريا كي تضمن إسرائيل 'أمناً' واستقراراً يخدم أغراضها في خدمتها لأغراض الاستعمار وكان طبيعياً لدى هذا الاستعمار إذا ما سيطرت هذه القوى الثورية من جديد في سوريا، أن يلب في وجهها ليميد أمنه الذي لا يرى وجوده إلا في ظل القضاء على هذه القوى الثورية في تساندها في وحدة مع مصر .

ومنذ أن عادت القوى الثورية العربية تسيطر على سوريا بعد أن طرحت بالسيف الرجعي فيها وأخذت تنشط ، بدأت الدسائس للقضاء عليها فأخذ الاستعمار يوجه إسرائيل للحيلة دون تماسك القوى الثورية وأخذت إسرائيل تستجيب من خلال أطرافها لأغراض الاستعمار في نشاط انتهى إلى إعلان عزمها على توجيه عدوان ضد هذه القوى الثورية مباشرة في سوريا استناداً إلى الرجعية العربية ، وما أن أدركت سوريا الخطر حتى التفت مع مصر الثائرة في معاهدة دفاع مشترك بينهما ، صيانة لوحدة المصير العربي .

واقعة اعتقدت الدوائر الصهيونية والاستعمارية ، رغم ذلك ، ملازمة الوقت لتوجيه ذلك العدوان فالموقف الدولي في رأيها يحول بين سوريا وبين القوى التقدمية في الجمهورية العربية المتحدة وكذلك فإن قوات الأخيرة منشغلة في حرب اليوم ، ومن ثم لاح لهذه الدوائر أن الجمهورية العربية المتحدة أبعد من أن تهيب لنجدة سوريا عند الهجوم المزعوم .

وكانت الخطة أن يوجه الهجوم الإسرائيلي على سوريا ، فيمضي الزحف حتى قرب دمشق على نحو لا ينسحب فيه العدو إلا بشن اقتتال أجزاء من الوطن الجمهوري ذات مواقع استراتيجية هامة ثم احتلالها والمطالبة بوضع نظام البوليس الدولي ، الذي يشابه ما تم وضعه في الجنوب بينها وبين مصر ، وبهذا وذلك تحقيق الخطة أغراضها وتمكن العناصر الرجعية من السيادة والتهوين من النضال للثوري العربي التحرري ، وضمان أمن إسرائيل من الشمال ومن الجنوب فتتمكن بالتالي من تحقيق أغراضها في تحقيقها لأغراض الاستعمار البغيض .

وبما دفع إسرائيل لهذا الموقف أيضا فشل السياسة الأمريكية والانجليزية
في ضرب الثورة اليمنية وفشل السياسة البريطانية في الجنوب المحتل وازدياد
المقاومة الشعبية المسلحة بها ثم مساندة القوى الرجعية في ثورتها المضادة والمحافظة
على بقاء إسرائيل قاعدة استعمارية .

الصمود الوطني ورفض الهزيمة :

ومع المعركة وقف الشعب في مصر موقفاً بطولياً موحداً خلف قواته المسلحة،
وقد جمعت له زاداته قوة وصموداً فلما حدثت الهزيمة العسكرية ، هب يوم ٩ ،
١٠ يونيو ١٩٦٧ ليعلن رفض الاستسلام ورفض الهزيمة وأصر على أن يعتبر
الهزيمة العسكرية في ٥ يونيو ١٩٦٧ هزيمة في معركة واحدة من معاركه بفضاله
الطويل في مواجهة إسرائيل والاستعمار .

ولقد أثبتت جماهير شعبنا وهياً وصلابة ومقدرة على الحركة تتفوق كل
تصور ، حين خرجت هذه الجماهير لتعلن رفضها للهزيمة ، واستعدادها للتضال
والنضحية من أجل أن تبقى الثورة وتبقى الاشتراكية .

وصمد الشعب وتجلت وحدته حين استعاد بناء جيشه وراء زعيم ثورته
جمال عبد الناصر واستعد للتضال والصمود من أجل إعادة الحق العربي .

الفصل الرابع

ثورة ٢٣ يوليو

ومتطلبات الوحدة الوطنية

أدركت الثورة منذ قيامها أن التنمية الوطنية لكل فئات الشعب هي الوسيلة الوحيدة لدفع التطور في جميع مجالاته بسرعة وكفاية . . . ولذلك اتخذت الثورة عدة إجراءات الغرض منها حماية الوحدة الوطنية وتعبئتها لمواجهة أعداء الثورة في الداخل وفي الخارج . . . وتحقيق أهداف الثورة .

١ - إلغاء الأحزاب والتنظيمات السياسية

واستكمالاً لإصلاحات الثورة الهادفة لتصفية السيطرة الداخلية ، كما تمثلت على يد الرأسماليين والملوك الزراعيين . . . اتجهت الثورة إلى إصلاح الأحزاب . وكان معظم الأحزاب والتنظيمات السياسية إذ ذاك في حقيقتها ومبادئها تمثل المصالح الخاصة بكبار الملوك وكبار الرأسماليين ، فلما رفضت تلك الأحزاب السير والإصلاح ، لم تجد الثورة بداً من حل هذه الأحزاب كلها وإبعاد جميع السياسيين والثواب الذين تعاونوا مع السراى والاستعمار للقضاء على سيطرتهم السياسية .

ولقد بدأت الثورة منذ قيامها في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في دعوة الأحزاب أولاً لتطوير نفسها وتحديد برامجها وأهدافها تمهيداً لإعادة الحياة الدستورية الكاملة في مصر ، ثم صدر في ٩ سبتمبر ١٩٥٢ قانون تنظيم الأحزاب ، فألزم كل حزب أو جمعية أو جماعة منظمة بضرورة الحصول على ترخيص من وزير الداخلية وبيان السياسة وأسماء الأعضاء والموارد ، ثم لإيداع الأموال في المصارف فبلغ عدد الأحزاب التي طلبت التسجيل ١٦ حزباً ، ولقد خطت الثورة بعد ذلك خطوة أخرى في سبيل إصلاح الحكم فأصدرت في ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٢ قراراً بإلغاء دستور عام ١٩٢٣ لعدم صلاحيته لتطوير الجديد .

وقد تبع إلغاء الدستور تشكيل لجنة لوضع مشروع دستور جديد يناسب العهد الثوري ، لكنها لم تحقق ماكانت ترجوه البلاد منها ، فقبل أن تقدم اقتراحتها كانت الثورة قد حلت الاحزاب لمجودها والتنظيمات السياسية بعقليتها الرجعية عن قبول الإصلاح فقد أصدرت قيادة الثورة في ١٦ يناير عام ١٩٥٣ قراراً يحل جميع الاحزاب السياسية ومصادرة جميع أموالها لمصلحة الشعب وحظرت تكوين أحزاب سياسية جديدة (١) .

وجدير بالذكر أن حل الاحزاب السياسية في مصر تؤكد عديد من الحقائق منها :

١- ان الاحزاب السياسية في مصر كانت تمثل المصالح المختلفة لطبقة الملاك الزراعيين المستقلين والرأسماليين ، وكان هدفها الوحيد هو الدفاع عن هذه المصالح وتنميتها ، وبمعنى آخر فإن هذه الاحزاب كانت تجسد المصالح الطبقية لفئة النصف في المائة ، وكانت بالتالي بعيدة كل البعد عن اتجاه الجماهير ولم تكن تمير إلا عن إرادة الإقطاعيين والرأسماليين ، وكان طبيعياً أن تكون سلطة الحكم كما قال الزعيم جمال عبد الناصر في بيانه أمام مجلس الأمة في ٢٦ مارس سنة ١٩٦٤ قد استقرت بصفة دائمة بين ست عشرة أسرة مصرية من كبار ملاك الأراضي .

٢- إن الاحزاب السياسية في مصر ظلت من غير نظرية سياسية وظلت بعيدة عن ممارسة الأساليب التنظيمية الحزبية ، ذلك أنها في الواقع لم تكن تستطيع أن تسمح بتنمية الوعي الاجتماعي للجماهير أو تتيح لها الفرصة للمشاركة الفعالة في العمل السياسي الحقيقي ، مما أتيح للاقطاع والرأسمالية السيطرة على المجتمع والحكم (٢) وظل الارتجال والتهريج السياسي والفوقانية طابع العمل الحزبي .

من هذا يتبين أنه حتى بالمعنى الحزبي الصرف فقد فشلت الاحزاب المصرية

(١) عبد الرحمن الرافعي : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تاريخها القومي في سبع سنوات

مكتبة النهضة المصرية ص ٥٤

(٢) جاء بالميثاق في هذا الصدد (ولقد ظلت الطبقة السياسية الحاكمة تعطل كل سعي سلسل من الظروف الموضوعية القصد منها من قيام أية حركة شعبية ذات مستوى جدي) .

في إيجاد الشكل التنظيمي العلوي للحزب ، وفي إيجاد تقاليد حزبية راسخة يمكن في إطارهما ممارسة العمل السياسي ومشاركة الأعضاء الحزبيين في رسم وتوجيه سياسة الحزب .

٣ - هذا إلى جانب إن صلة الجماهير بالحزب سواء كانت من بين أعضائه الرسميين أو من المشايخين له ، لم تكن تتعدى التجمهر في السرايدات والمواكب أو الإدلاء بالأصوات في صناديق الانتخاب مرة كل عدة سنوات .

٤ - كما أن الأحزاب المصرية فشلت في إيجاد التنظيم الحزبي الذي يتيح لأعضائها ممارسة العمل السياسي ، شأن كل الأحزاب على اختلاف مبادئها وأشكالها التنظيمية ، وبالتالي فشلت في إيجاد أى أساس صالح لبناء تنظيمات سياسية ، وبما يجدر ذكره في هذا الصدد أن هذه التنظيمات الحزبية كانت انعكاساً للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع ما قبل الثورة (مباشرة) وهي تعبير عن طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة وقتئذ (١) .

٥ - أن الوعي بضرورة التغير في مصر سبق الوعي التنظيمي بمراحل طويلة بتأثير الرواسب العميقة التي تخلفت بسبب السيطرة الطويلة للأحزاب المصرية ، وأن الجماهير لم تستطع أن تلمح أن تحقق آمالها في الحرية والعدل مرتبط بقدراتها على الانضمام في تشكيل سياسي قادر على قيادة تضامها والتصدى للقوى المضادة ، وحتى البوادر الأولى التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية لإيجاد شكل تنظيمي للجهود الوطنية التي كانت قد بلغت ذروة الحماس في أعوام ما قبل الثورة استطاعت الأحزاب أن تعزقها وتخربها من الداخل ، فالقوة المستنيرة لم يكن لها من الفعالية بحيث تستطيع التجمع داخل شكل تنظيمي يدافع عن مصالح الجماهير ، بل لم

(١) جاء في هذا الصدد بالميثاق (أه النظام السياسي في بلد من البلدان ليس إلا انعكاساً للمصالح المعكسة في الأوضاع الاقتصادية ولذلك فلا بد كانت الأحزاب في واقع الأمر انعكاساً لتطور الاجتماعي في مصر وانعكاساً لتجارب التي تحدثت في العلاقات الاجتماعية في المجتمع المصري تحت تأثير التأثيرات الاقتصادية السريعة والملاحظة التي بدأت مصر تفهمها خلال الحروب العالمية الأولى)

يمكن لها من القوة ما يمكنها من الحفاظ على المحاولات الأولى في هذا الاتجاه .
وهذه الحقائق في مجملها تقصر لنا لماذا اتجهت الثورة إلى تصفية الأحزاب
تصفية نهائية وشاملة ، ولم تكف بمجرد تصفية القيادات الحزبية الموجودة ،
تقد كان أمام الثورة مهمة رئيسية وهي لسف الظروف الموضوعية السابقة التي
أقامها حكم الطبقة المستغلة لكي تمنع قيام الحركة الشعبية المنظمة وإيجاد المناخ
المصالح لقيام هذه الحركة .

قال الزعيم جمال عبد الناصر وهو يقدم في ٢ يوليو عام ١٩٦٢ إلى المؤتمر
الوطني للقوى الشعبية مشروع التنظيم السياسي :

(... وقد كانت هناك تنظيمات شعبية سبقت قيام الثورة، ولكن هذه التنظيمات
حاضت قيمتها بسيين رئيسيين هما :

(١) أن معظم هذه التنظيمات خصوصاً تلك التي مارست الحكم منها ، قبل
الثورة ، كانت تعمل لمصالح طبقية ، وكانت كلها تستند على تحالف الإقطاع
ورأس المال المستغل ، ومن ثم فإن هذه التنظيمات لم تكن قائمة على أساس
جماهيرى ، وإن كان بعضها قد استطاع في سنوات النضال الوطني من أجل
الاستقلال أن يحرك جموعاً من الجماهير إلا أنه لم يستطع مواصلة النضال إلى
نهايته ، لارتباط مصالحه بطريقة غير مباشرة مع مصالح الاستعمار . . ومن ثم
انتهى إلى مهادنته ، ومن ناحية أخرى ، لأن النضال الوطني من أجل التحرر
الاجتماعى ، لاحت مقدماته حتى خلال معركة الاستقلال ، الأمر الذى جعل
هذه التنظيمات السياسية تقلب على قواعدها الجماهيرية ، وتحاول صرف أنظارها
عن معركتها الحقيقية .

(ب) أنه كانت هناك قبل الثورة تنظيمات سياسية لانعبر عن مصالح الطبقة
الحاكمة ، لكن فعالية هذه التنظيمات كانت في معظم الأحيان محدودة أو سلبية
بسبب تحفظ للمصالح الطبقيّة الحاكمة عليها ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن
هذه التنظيمات حركتها دوافع انفعالية عاطفية أو حركتها قوى بعيدة عن القومية
القومية ولم يكن لديها على أى حال من التعمق ما يكفل لها مواجهة ضمنية التغيير.

الاجتماعى واتخذوا الواقع الوطنى بداية لها) .

ثانيا : - التنظيمات السياسية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ووحدة تحالف

قوى الشعب العاملة .

حرصت حكومة الثورة منذ قيامها على تمكين كل العناصر الوطنية من وجودها داخل إطار واحد وتمكينها من السيطرة على الاقتصاد الوطنى فى إطار من الوحدة الوطنية الفادرة على مجابهة التحالف الاستعمارى الصهيونى الرسمى بالإضافة إلى تمكينها من مجابهة القوى الرجعية التى تجمعت لحماية الأوضاع الاجتماعية القديمة . . . وتوفير متطلبات التحول الاشتراكى . حتى يصبح تحالف قوى الشعب العاملة هو قائد العمل الوطنى .

ولقد ظهرت عدة تنظيمات سياسية بدأت بهيئة التحرير ثم الاتحاد القوى . . وانتهت بالاتحاد الاشتراكى العربى الممثل من تحالف قوى الشعب العاملة .

وفى الحقيقة أن كل شكل من هذه الأشكال التنظيمية كان لابد وأن يظهر فى المرحلة التى ظهر فيها وكان لابد أن ينتهى حيث انتهى بغض النظر عن ثورية هذا الشكل أولا ثوريته وبغض النظر عن معيار الفشل أو النجاح ، فالثورية ليست حالة دائمة وإنما هى مرتبطة بالمرحلة التى يمر بها المجتمع ، والاجراء أو التنظيم الثورى فى مرحلة معينة إن لم يتطور ويتكيف وفق مقتضيات ومتطلبات المرحلة التالية ، فقد ثورته وأصبح إجراء أو تنظيمًا رجعيًا متخلفًا ، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن كل مرحلة من مراحل التغير الاجتماعى التى شهدتها مصر بعد الثورة كانت تعكس بالضرورة شكلا معينًا من أشكال التنظيم يعبر عن طبيعة المرحلة . . بما فيها من علاقات اجتماعية . . وتناقضات . . وصراخ طبقى وفكرى . . وبكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات .

٢ - هيئة التحرير

بعد حل الأحزاب فى مصر فى ١٤ يناير عام ١٩٥٣ كانت الثورة تواجه
الغزوف والعوامل الأتية : -

(أ) الاحتلال الاجنبي المتربص الذى يهدد كل عمل ثورى يسعى لتغيير الواقع المتفهم المفروض على البلاد .

(ب) افتقار الثورة الى نظرية سياسية متكاملة ولإلى تنظيم سياسى يحول الجماهير الشعبية المتحمسة إلى قواعد منظمة تستطيع مساعدة الثورة والإندفاع معها فى طريق التحرير .

(ج) تيارات وطنية مختلفة من المثقفين تمزقهم الخلافات الفكرية

(د) مجموعة من الرأسماليين وكثير من ملاك الاراضى ممن لم ينطبق عليهم قانون الإصلاح الزراعى .

وفى ٢٢ يناير عام ١٩٥٣ أعلن ميثاق وأهداف وطريقة تنظيم هيئة التحرير كتفصيل جماهيرى يعنى جميع طبقات الشعب وقبائمه المختلفة على ما بينهم من تناقض لمواجهة متطلبات المرحلة الأولى فيما بعد الثورة .

وكان على هيئة التحرير أن تعي كل هذه القوى من أجل :-

(أ) مواجهة جيوش الاحتلال الرابضة على أرض القتال

(ب) مواجهة الاحزاب والجماعات الرجعية المصحلة .

(ج) إيجاد الإطار الواحد الذى يمكن الثورة من حشد وتنظيم كافة القوى الوطنية لحماية البناء الثورى الوليد .

وكان شعار هذه المرحلة هو وحدة كافة الفئات الوطنية من أجل تحقيق الاستقلال . ومن هنا كان لابد أن تدخل القوى المعادية للاستعمار فى هيئة التحرير رغم اختلاف آرائها حول مستقبل العلاقات الاجتماعية ، وحول اتجاه التطور الاجتماعى فى مصر بعد الاستقلال (١) .

(١) لم تكن هيئة التحرير أول شكل من أشكال التنظيمات السياسية يظهر فى ظل الثورة ، فلقد سبق هيئة التحرير شكل آخر من هذه التنظيمات هو تفكير الضباط الأحرار وكان الجيش هو المجال العليوى فهو هذا التشكيل .
أنظر مجموعة محاضرات التنظيمات السياسية والجماهيرية - الدورة الثالثة للمعهد لعالى لدواست الاشتراكية ١٩٦٦/٦٥

ونستطيع القول أن هيئة التحرير قد أتاحت الفرصة لالتحام قوى الشعب بقيادة الثورة ، كما استطاعت أن توجد نوعا من التنظيم للقوى الشعبية ، وتعبئة هذه القوى في اتجاه التوعية الوطنية وتفتحهم مشا كل المجتمع الجديد والاستعداد لخوض المارك القادمة على الطريق .

والفقرة التالية من ميثاق هيئة التحرير توضح أهم أهداف هذا التنظيم في المرحلة الأولى من الثورة :

« نحن أعضاء هيئة التحرير قد آلينا على أنفسنا أن نجلى الفاصب عن وادى النيل بلا قيد أو شرط .. وأن نكفل للسودان تقرير مصيره دون مؤثر خارجى .. وأن نقيم فى وطننا مجتمعا قويا ، أساسه الإيمان بالله وبالوطن، والثقة بالنفس وأن نكفل الحقوق والحريات للمواطن ، وأن نجعل نصب أعيننا وحدة الوطن المقدسة .. وتعبئته فى تنفيذ برامج التعمير والإشياء ، وأن نعمل على ما من شأنه قيام مصر برساتها العالمية .. دولة قوية تحمل مسئولية العدل والحرية .. ونعنى بخير الإنسان وتعاون الشعوب العربية . »

وهكذا تكونت هيئة التحرير .. وشعارها (الاتحاد والنظام والعمل) وكانت العضوية فى هيئة التحرير مفتوحة لكل مواطن .. ولكل عضو أن يمارس حقه داخل الجمعيات العمومية للقرية أو المركز أو المديرية والمحافظة .

ومن أعضاء مجالس إدارات الجمعيات العمومية تتكون الجمعية العمومية العامة.

ومن بين أعضاء الجمعية العمومية العامة ينتخب المجلس الأعلى الذى يدير أعمال الهيئة ويشرف على فروعها ولشاتها .. ويراقب تنفيذ رغبات أعضائها .

ولقد نص قانون الهيئة على أن يراعى عند تشكيل المجلس الأعلى أن يكون من ٤٠ عضوا يمثلون مختلف المديريات والمحافظات .. والباقيون يمثلون مختلف المهن والمهن الأخرى .

ولقد تأسست هيئة التحرير كما قال الزعيم جمال عبد الناصر رغبة فى إيجاد تنظيم لقوى الشعب واعادة بناء مجتمعه على أسس جديدة قوامها الفرد .

ولقد أثبت الشعب خلال فترة الانتقال التي أعلنت في ١٦ يناير سنة ١٩٥٢ بعد حل جميع الأحزاب .. تفاعله مع الأهداف التي رسمتها الثورة .. وكان واضحاً أن الجماهير بدأت في التصنوج الفكري .

وبدا إحساسها بالحاجة إلى علاج ثورى جديد .. يزل الطبقات المسيطرة في الماضي ليبدأ إحساس جديد بالمستقبل .

ولإزاء هذا كان لا بد من تنظيم قوى جديد يجمع الشعب بأكمله ويحمي مكاسبه الثورة .. ويحمي الجماهير من أهداف الانتهازية .. ويمكن كل العناصر الوطنية في وجودها داخل إطار واحد حيث تتفاعل بما يقرب بينها ويحل التناقض الواقع بينها بطريقة سليمة، ويرفع من كفاءتها في مواجهة بداية المرحلة الجديدة في إرساء قواعد الاقتصاد المصري، وإيجاد نواة القطاع العام ليصبح نقطة البداية في الانطلاقة نحو ملكية الشعب لوسائل الانتاج .

٣ — الاتحاد القوي .

في ٢٨ مايو عام ١٩٥٨ صدر قرار تشكيل الاتحاد القوي — العمل كما جاء في المادة الأولى من القرار — على تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها الثورة ولحكت الجهود لبناء الأمة بناء سليماً من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وجاء الاتحاد القوي في مرحلة تدعيم الاستقلال الوطني في أعقاب العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ وبعد تمجيد الشركات والمؤسسات الرأسمالية الفرنسية والبريطانية أي جاء في المرحلة التي كانت المهمة الأساسية فيها هي التنمية الاقتصادية، وبناء اقتصاد قوى قوى ، والبدا في الانتقال بالاجتمع من حالة التخلف إلى حالة التقدم .

وكانت أهداف الاتحاد القوي (١) :

(١) أن يكون التعبير السياسي عن الوحدة الوطنية التي تأكدت بدحر العدوان الثلاثي وأثبتت صلابتها .

(ب) دعم الثورة الوطنية وهي تنهج نحو التطوير الاجتماعي .

(١) المربع السابق . محاضرات الدكتور محمد الحنيف ص ١١ .

- (ج) مواجهة تحديات الإستعمار في مصر والعالم العربي .
- (د) لإرساء دعائم الممارسة الديمقراطية القائمة على العدل الاجتماعي .
- (هـ) حل التناقضات بين طبقات الشعب بطريقة سليمة .

وقال الزعيم جمال عبد الناصر في هذا الصدد :

« يمكن أن يقال أن فكرة الاتحاد القومى كانت الوسيلة، لتكثيل جهود الشعب والسير به في الطريق المؤدى إلى تحقيق أهداف الثورة. وتجهيزه زيلات الخلاف ،
تأتى قاسينا منها ما قاسينا بعد اتحاد الشعب في ثورة ١٩١٩ .

لقد كان الاتحاد القومى تنظيما يحقق على أكل صورة ممكنة في هذه المرحلة الديمقراطية الاشتراكية التعاونية .

ومن هذه النقطة كان ارتباط الاشتراكية بالديمقراطية التعاونية في شكها القائم على زيادة الانتاج وعدالة التوزيع .

وعلى هذه القاعدة صدر قانون الاتحاد القومى وتضمنت لائحته الأساسية :
« اشتراك جميع أبناء الشعب في اختيار أعضاء الاتحاد .. والمشاركة الإيجابية في عضوية اللجان العامة » .

ويبدأ تكوين هؤلاء المواطنين ، ويتدرج التمثيل والتشكيل في عدة مستويات تبدأ من القرية بثلاثة أعضاء كحد أدنى ولا يزيد عن ثلاثين عضواً في المناطق الكبيرة يفتخبهم المواطنون انتخاباً مباشراً .

ومن هذه اللجان تتكون اللجان التنفيذية في القاعدة وهي القرية والمركز ثم اللجنة العامة .. البندر أو المركز .. ثم لجنة المديرية أو المحافظة .. ثم مؤتمر المديرية أو المحافظة ممثلاً لجميع أعضاء اللجان التنفيذية داخل حدود المحافظة والمديرية ثم المؤتمر العام على مستوى الجمهورية .. ومنه تنبثق اللجنة العامة للمؤتمر .

ولكن اتضح خلال التجربة العملية لتشغيل الاتحاد القومى كتنظيم شعبي لحماية أهداف الثورة أن هناك عناصر مستغلة تسالت إلى صفوفه في محاولة لتشكيل قاعدة رجعية داخل هذا التنظيم، لحماية بعض التركيبات الاقتصادية والاجتماعية التي تخدم مصالحها المستقلة .

ومن جهة أخرى ذابت في الاتحاد القوي العناصر الثورية الواعية
لقضية الثورة ولأهدافها ومبادئها . وظهر أيضاً افتقار الاتحاد القوي — في
غياب دليل العمل والنظرية الثورية — إلى الوضوح الفكري بحيث يمكن القول
بأن الاتحاد القوي أصبح يضم مجرد ممثلين عن الشعب بغض النظر عن وعيهم
ولإيمانهم بالثورة واستعدادهم للنضال من أجل أهدافها .

وفي تقييم الزعيم جمال عبد الناصر لهذه التنظيمات في خطابه أمام المؤتمر الوطني
الليقوي الشمسية (٢ يوليو ١٩٦٢) حدد ثلاثة أسباب لعجزها عن مواكبة التطور
الجلدري السريع في المجتمع : —

الاول : قوى الثورة في مواجهتها لخصمية التغيير الاجتماعي ، لم تكن قد
استطاعت أن تحدد دليلاً للعمل الثوري تلقى عليه الجهود . ومن نتيجة ذلك أن
التجمع الشعبي مع النوايا الطيبة التي توافرت له .. كان اقتراباً غير منظم من مجموعة
من الإيماني العامة ليس لها مناهج تفصيل تلتقي عنده جهود جماعية على أساس
فكري واضح واحد لتصدر عنه إرادة شعبية عميقة ومؤثرة .

الثاني : أن الفكر الثوري في تلك الفترة وهو يتطلع إلى الوحدة الوطنية
ويدرك ضرورتها الحيوية داخل الوطن وفي مواجهة الظروف المحيطة به وقع في
الخطأ حين توهّم أن الطبقة المحترقة التي كان لا بد أن تسلبها الثورة امتيازاتها
الاستغلالية ، يمكن أن تقبل الوحدة الوطنية مع قوى الشعب صاحبة المصلحة
في الثورة .

ولقد كان من أمر ذلك أن محاولات التنظيم الشعبي التي جرت في ضباب هذا
الظلم حدث في داخلها من عوامل الصدام بين القوى الثورية بالطبيعة والقوى
المضادة للثورة بالطبيعة ما أصابها بالشلل وأقعدتها عن الحركة ، بل وكاد أن
ينحرف بها في بعض الأحيان عن الاتجاه الثوري الاصيل .

الثالث : أنه نتيجة لما سبق من غياب دليل العمل الثوري ومن خطأ جمع
المصالح المتصارعة في وحدة وطنية موهومة ، فتأخر عنصر الالتزام في التنظيمات
الشمسية .

غير أننا إذا نظرنا إلى النواحي الإيجابية نجد الاتحاد القوي قد استلزم أن يحقق نتائج إيجابية في مجال تنظيم قوى الشعب ولشرب مناخ اشتراكي عام ، وبوضع المساس الأولى للممارسة الديمقراطية في نطاق الجماهير .

ومن هنا فإن الاتحاد القوي كان يمثل جزءاً من مرحلة انتقال ، لها دوافع وظروفها وتناقضاتها .

وعلى أية حال فلقد ظهر بعد التحولات الاشتراكية العميقة في المجتمع بـ يوليو عام ١٩٦١ وعامة بعد أن حدثت نكسة الانفصال نتيجة وثبة الرجوع في سوريا ، أن مرحلة التحول الاشتراكي بحاجة إلى تنظيم شعبي اشتراكي يكون هو صاحب المصلحة الحقيقية في حماية الثورة والسر عليها والالتحام معها وبذلك كل طاقاته من أجل الاندفاع بها . فإذا كانت قوانين يوليو ١٩٦١ قد أسقطت تحالف الرجعية والرأسمالية . فإنها في نفس الوقت قد عبرت عن نجاح تحالف قوى الشعب العاملة وأظهرت ضرورة تنظيم هذا التحالف ، وعلى هذا الضوء وبجانب استقراء الوقائع التاريخية . وانتقال الثورة إلى مرحلة الحياة الاشتراكية الكاملة ، كان من الضروري تنظيم الشعب من جديد بحيث تصبح القوى العاملة فيه داخل إطار تنظيمي قادر على الحركة وقادر على مواجهة القوى الرجعية التي تحاول أن تتجمع لحماية الأوضاع والعلاقات الاجتماعية القديمة القائمة على الاستغلال وتحاول أن تعوق إتمام التحول الاشتراكي .

وهكذا تم تنظيم الشعب للرحلة الثالثة على طريق الثورة . في الالتحاق الاشتراكي العربي ليكون الإطار الذي يضم قوى الشعب العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية في الاشتراكية ولينتقلنا إلى مرحلة التحالف بين القوى الشعبية العاملة التي لا تسمح للعلاقات فيما بينها بلى لون من ألوان الاستغلال .

٤ - الاتحاد الاشتراكي العربي :

تكون الاتحاد الاشتراكي العربي في ظل أوضاع اجتماعية جديدة شقت له الطريق قيادتنا الثورية بضربات يوليو ١٩٦١ وأغسطس ١٩٦٢ ومارس ١٩٦٤ وهذه الأوضاع هي :

(أ) الاستقلال السياسي والاقتصادي .

(ب) عزل كبار ملاك الأرض وكبار الرأسماليين عن السلطة السياسية وتصفيتهم اقتصادياً .

(ج) وصول قوى الشعب العاملة إلى السلطة السياسية والاقتصادية .

(د) تصفية الملكية الفردية كأساس للعلاقات الاجتماعية وقيام قطاع عام مسيطر على أهم وأغلبية وسائل الإنتاج وتملكه قوى الشعب وإلى جواره قطاع خاص خاضع لتوجيه الدولة والرقابة الشعبية .

(هـ) تسليح العمل الثوري ولأول مرة بدليل العمل أفرته قوى الشعب هو الميثاق :

وهذه الأوضاع حتمت أن يكون تحالف الشعب هو تحالف خمس قوى اجتماعية دون غيرها : تحالف الفلاحين والعمال والمثقفين والجنود والرأسماليين بوصفهم جميعاً هم وحدهم أصحاب المصلحة الحقيقية في المضي بعملية تطوير المجتمع وتغييره إشتراكياً ، ومن هنا كان لا بد لل مؤتمر الوطني للقوى الشعبية أن يحدد من هم أعداء الشعب حتى يقطع عليهم جيل التحايل على الانضمام إلى التحالف .
من هذا فإن الاتحاد الإشتراكي يمتاز عن الشككين السابقين للتحالف في النواحي الأساسية التالية :-

(أ) وجود الميثاق كبرنامج ودليل عمل واضح ومقرر من مؤتمر القوى الشعبية .

(ب) وجود خطة قومية شاملة للتنمية .

(ج) تجديد قاطع لقوى الشعب بأنها هي فقط القوى التي تستهدف فعلاً بناء مجتمع إشتراكي وبالتالي وضوح نقطة في غاية الأهمية وهي أن هذا التحالف بهذا الوصف لا بد وبالضرورة أن يكون قوة ضاربة ضد كل القوى المعادية للإشتراكية . فلم تعد الوحدة الوطنية هي وحدة كل المعادين للاستعمار ؛ بل أصبحت بالتحديد وحدة كل الراغبين في الإشتراكية ضد غير الراغبين فيها .

ولقد شرح الراحلون جمال عبد الناصر في جلسات المؤتمر الوطني هذه النقطة

بقوله : « قبل ذلك قلنا الاتحاد عموماً ، أما الآن فإننا نعتني بخلقنا
لا بد أن نتخلف عليه ، فأصبح الاشتراكي ، أي أن الرجعيين لا بد أن يتخلوه
الاشتراكي . . هكذا بوضوح » .

(د) ونتيجة لوضوح مفهوم التحالف وضعت أيضاً فكرة الصراع بين
والتعاون بينها ، فهناك نوعان من التناقض . تناقض عدائي وكان لا
الثورية أن تتدخل لحسمه ، وهو التناقض بين قوى الاشتراكية وقوى
الاشتراكية ، وتناقض غير عدائي وهو ما بين قوى الاشتراكية نفسها .
فرضتها طبيعة مرحلة التحول . فعند ما يتحدث الميثاق عن « الصراع
والطبيعي بين الطبقات ووجوب حله سلبياً في إطار الوحدة الوطنية
واضحاً أية طبقات يعني وأية وحدة وطنية يقصد .

(هـ) غير أن هناك إلى جانب هذا كله نقطة على أكبر جانب من الأهمية
الاتحاد الاشتراكي دون غيره من الأشكال السابقة وهي أنه يحكم الميثاق
العمل الذي يلتزم به (تحالف يضمن فيه فريقان بالذات من القوى المتحررة
لها وهما الفلاحون والعمال كحد أدنى نصف عدد مقاعد لجان المنتخبين
المستويات . . تحالف محوره الفلاحون والعمال .

ولكي تلقى ضوءاً على الاتحاد الاشتراكي العربي باعتباره التنظيم
للشعب العاملة لنا أن نتساءل ما هو تعريف الاتحاد الاشتراكي العربي ؟
مراحل تكوينه . . حتى وصل إلى المرحلة الحالية بعد تصفية مراكز
كانت تعوق تأدية رسالته ؟

جدير بالذكر أن الاتحاد الاشتراكي العربي يعتبر التنظيم السياسي
يمثل قوى الشعب العاملة وهي :

الفلاحون - العمال - المثقفون والجنود والأعمالية الوطنية داخل
من أجل حمايتها من أي مؤامرة في الداخل وفي الخارج ومن أجل تطويع
إلى صورة أفضل .

ويعتبر الاتحاد الاشتراكي الطليعة الاشتراكية لقوى الشعب

يعرف متطلبات الجماهير واحتياجاتها ومشاكلها وهو بمثابة الوعاء الذي
تلقى فيه آمال الجماهير .

مراحل التكوين التنظيمي للاتحاد الاشتراكي العربي :

اللجنة التحضيرية :

وفي ٤ نوفمبر عام ١٩٦١ أصدر الزعيم جمال عبد الناصر بياناً سياسياً حدد
فيه خطوات تنظيم العمل الشعبي في المرحلة الجديدة مرحلة التحول الاشتراكي ..
وفي ١٨ نوفمبر أصدر قراراً بتشكيل اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى
الشعبية من ٢٥٠ عضواً لتكون مهمتها دراسة الطريقة التي يمكن أن يتم بها اختيار
ممثلين للقوى الشعبية في مؤتمر وطني بطريق الانتخاب .

وقد حددت اللجنة التحضيرية القوى الحقيقية الأصلية للشعب ضمن الفلاحين
والعمال والرأسمالية الوطنية وأعضاء النقابات المهنية وهيئات التدريس بالجوامع
والمعاهد والطلاب والقطاع النسائي .

المؤتمر الوطني للقوى الشعبية :

وفي ٢٧ يناير ١٩٦٢ أصدر الزعيم جمال عبد الناصر قراراً بدعوة الناخبين
لاختيار أعضاء المؤتمر الوطني للقوى الشعبية وتمت الانتخابات فيما بين يومى
٥ : ١٩ فبراير ، وأصبح المؤتمر يضم ٢٧٥٠ عضواً بينهم ١٥٠٠ أجرى انتخابهم ،
٢٥٠ هم أعضاء اللجنة التحضيرية .

الميثاق الوطنى :

وقدم الزعيم جمال عبد الناصر في ٢١ مايو عام ١٩٦٢ مشروع الميثاق إلى
المؤتمر وتم إقراره في ٣٠ يونيو عام ١٩٦٢ ليصبح النظرية الثورية للقوى الشعب
العامة التي لا بد لها أن تجد تحالفها بعد أن تم إسقاط تحالف الرجعية والإقطاع
والرأسمالية المستغلة .

مراحل تشكيل الاتحاد الاشتراكي :

في ٢ يوليو ١٩٦٢ تقدم جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية

بم شروع للتنظيم السياسى يتضمن الاسس التى يتعين أن يقوم عليها هذا التنظيم .
وفى ٢ يوليو أصدر المؤتمر قرارا بتفويض الزعيم جمال عبد الناصر فى
تشكيل اللجنة التنفيذية العليا المؤقتة للاتحاد الاشتراكى العربى وتم ذلك فى
٦ نوفمبر ١٩٦٢ وضمت ١٨ عضوا بخلاف الزعيم جمال عبد الناصر .

وعقدت اللجنة التنفيذية العليا أول اجتماع لها فى نفس اليوم وقررت تشكيل
الامانة العامة المؤقتة من ١٢ عضوا .

وفى ١٨ ديسمبر ١٩٦٢ صدر النص الكامل للقانون الاساسى للاتحاد
الاشتراكى العربى .

وبدأت انتخابات لجان الاتحاد الاشتراكى للوحدات الاساسية فى ١٢ مايو
عام ١٩٦٣ ، وتم انتخاب الامناء والامناء المساعدين فى ١٠ يونيو ١٩٦٣ ،
ثم شكلت اللجان المؤقتة للاتحاد الاشتراكى العربى بالمحافظات بقرار من اللجنة
التنفيذية العليا بإعادة تشكيل الامانة العامة بحيث تقسم إلى أمانات فرعية .

ودخلت منظمات الاتحاد الاشتراكى العربى فى مرحلة جديدة ، بتشكيل المكاتب
التنفيذية للمحافظات عام ١٩٦٥ ، واستدعت طبيعة المرحلة التفرغ الكامل للعمل
السياسى . ومع بداية عام ١٩٦٦ بدأت تشكيلات المكاتب التنفيذية على مستوى
الأقسام والمراكز . ومن ديسمبر عام ١٩٦٦ بدأت محافظة القاهرة تشكيل المكاتب
التنفيذية على مستوى الوحدات على ضوء ما أسفرت عنه التجارب الناجحة فى
تشكيلات الجماعة القيادية .

وفى ديسمبر عام ١٩٦٦ أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بإعادة تشكيل
اللجنة التنفيذية العليا وأصبحت تضم ٦ أعضاء بخلاف الزعيم جمال عبد الناصر .
وهكذا أصبح الاتحاد الاشتراكى العربى هو إطار هذا التحالف الشعبى الذى
يعبر عن مرحلة البناء الاشتراكى الذى عبر الميثاق عن أسسه النظرية : فالالاتحاد
الاشتراكى أصبح التنظيم السياسى الذى يقود العمل الشعبى ويتفاعل مع
هذا العمل ومع احتياجات الجماهير عن طريق منظماته فى المستويات المختلفة ، بحيث

يصبح السلطة العليا فوق جميع الأجهزة التنفيذية والأجهزة التشريعية .

إعادة بناء الاتحاد الاشتراكي العربي بالانتخاب :

بعد عدوان يونيو ١٩٦٧ . . والوقفة التاريخية لجامعير الشعب في ٩ ، ١٠ يونيو بالاصرار على الصمود ورفض الهزيمة والاصرار على الاستمرار في المعركة حتى النصر . قدم الرئيس جمال عبد الناصر بيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ كمنهج للتغيير والتصحيح وأجمعت عليه الإرادة الشعبية في إستفتاء عام (١) كان من أهم النقاط التي تعرض لها بيان ٣٠ مارس هو أن يكون الانتخاب الحر هو الوسيلة الوحيدة لإعادة بناء الاتحاد الاشتراكي العربي .

فلقد كان الاتحاد الاشتراكي العربي في بداية تشكيله يقوم على التمييز (٢) . ولقد أبرزت التجربة العملية للاتحاد الاشتراكي وخاصة بعض المراكز القيادية ، أن التمييز لا يمكن أن يكون هو الوسيلة المثلى ، فلم يكن يصل إلى المراكز القيادية في كثير من الحالات إلا من تدفع بهم "وتقدمهم مراكز القوى المتصارعة .

ولقد ترتب على هذا أن كثيرا من ذوى الكفاءة السياسية العالية والإخلاص الوطني لم يتمكنوا من أخذ فرصتهم في العمل السياسي وذلك لابتعادهم عن مراكز القوى .

ولقد كان من مساوئ التمييز كطريقة للوصول إلى المراكز القيادية أن كثيرا من الموجودين في مراكز القوى كانوا يشعرون بالولاء إلى من أوجدتهم في مراكز السلطة ، ولقد استتبع ذلك عدم فاعلية المراقبة وهي العمل الأساسي للأجهزة الشعبية .

(١) وضع الزعيم جمال عبد الناصر : أن بيان ٣٠ مارس هو في الواقع من وضع ومن صنع جامعير الشعب : (البيان تركيز وخلاصة الحوار الذي دار في وطننا منذ يومى ٩ ، ١٠ يوليو إلى ٣٠ مارس . كل ما صنعته البيان هو تركيز لـ شكل ما هو لإيجاز في هذا الحوار وكل ما هو غلط وكل ما هو أصيل) .

(٢) كان هناك انتخاب في حدود بسيطة لا يحقق الأهداف الديمقراطية التصحيح .

ولقد أدى ذلك إلى أن ارتفعت أصوات تنادى بضرورة أن يكون الانتخاب هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه المراكز القيادية داخل الاتحاد الاشتراكي .. ولقد استجاب إلى ذلك الزعيم جمال عبد الناصر في بيانه الصادر في ٣٠ مارس ١٩٦٨ والذي يجتهد وثيقة هامة في حياتنا السياسية .

ولقد كان من أهم ما جاء في بيان ٣٠ مارس في هذا الخصوص :
« إن علينا أن نعيد بناء الاتحاد الاشتراكي عن طريق الانتخاب من القاعدة إلى القمة » .

وسدنت الانتخابات من القاعدة إلى القمة للاتحاد الاشتراكي العربي ، فلقد شملت الانتخابات كافة تشكيلات الاتحاد الاشتراكي العربي المختلفة من النجان الأساسية في القرية إلى اللجنة التنفيذية العليا . إلا أن مراكر القوى استطاعت بالنساليها الخادعة وبناصرها المشبوهة أن تغير نتيجة الانتخابات لصالحها . .
ولقد أوضح السيد الرئيس أنور السادات هذه الحقيقة في خطابه أمام مجلس الشعب يوم ٢٠ مايو ١٩٧١ حيث قال : (لما حصلت الانتخابات من القاعدة للقمة حصل فيها أخطاء كلنا عارفينا .. دونها الرئيس جمال عبد الناصر عنده وقرر أنه لا بد من تصحيحها ، بس لأن المعركة والبناء العسكري وحرب الاستنزاف داخلين عليها وكنا في ٦٩ قال بتيجي مرحلتها ، إنما لا بد من تصحيح كل هذا .

حركة مايو ١٩٧١ وإعادة بناء الاتحاد الاشتراكي العربي :

وبقيام حركة التصحيح في ١٥ مايو ١٩٧١ بقيادة الرئيس أنور السادات . أمكن تصحيح مسار الثورة باستبعاد مراكر القوى وبتأكيد إسيادة القانون . وبالمعمل على أن يكون للوحدات الدستورية والسياسية الكلمة الفصل في تقرير مجريات المجتمع ومواصلة مسيرة الثورة قدما إلى الأمام في طريق التحرر الوطني والتحول الاجتماعي .

وفي خطاب الرئيس أنور السادات أمام مجلس الشعب قرر سيادته إعادة بناء الاتحاد الاشتراكي من القاعدة إلى القمة بانتخاب حر .

ولقد أعيد بناء الاتحاد الاشتراكي العربي من القاعدة إلى القمة لأول مرة في

تأريخه عن طريق انتخابات حرة بعيدة كل البعد عن أية تدخل من جانب السلطة وهو ما يحق لنا جميعاً على حد تعبير السيد الرئيس أنور السادات أن نفخر به (١) . إن هذا في حد ذاته خطوة بالغة الأهمية ، لذهاب الجماهير فرسية اختيار قيادتها بنفسها ، غير أن هذه الخطوة على أهميتها لا تكفي وحدها ضماناً لأن يكون الاتحاد الاشتراكي التنظيم الذي نريده ، التنظيم الذي يقود نهضات تحالف الشعب في المعركة المصرية ضد العدو ومن أجل البناء .

إن الضمان الحقيقي هو أن يرتبط العمل السياسي ارتباطاً كاملاً بالعمل على تنفيذ الخططة والتزام كل وحدة أساسية ، وكل مستوى من مستويات التنظيم بتحقيق أهداف محددة في فترات زمنية محددة ، ويجب أن يكون هذا هو أساس تقييم الأفراد والهيئات والمستويات ، الأمر الذي يفتح طريقاً طبيعياً ومورياً لبروز العناصر القيادية على أساس من الاستحقاق والجدارة وثمة الجماهير . بهذا الأسلوب للعمل السياسي وبالسلوك الاشتراكي الصحيح يصبح التنظيم يحق تنظيم الجماهير الخادم لها لا المتسلط عليها .

إن العمل السياسي كما قال الرئيس أنور السادات ليس شعارات ترفع في تفتيح ، وليس إصلاحات وتعبيرات تردد عن ظهر قلب دون فهم أو وعي ، وليس حشد الناس في اجتماعات يتبارى فيها الخطباء بالكلمات ثم ينفض الناس فلا هم تكلموا ولا هم استمعوا إلى من تكلم .

لأن العمل السياسي عمل ، ولكل عمل برنامج ، ولكل برنامج أهداف وميائل ، والأهداف لا بد أن تكون أهداف الجماهير ، والجماهير هم ميائل تنفيذها ، فإن لم تكلم لغتهم وإن لم نعرف أهدافهم وإن لم نحس آمالهم وآلامهم كنا كالخشب المستند ، ولن نعرف ولن نحس إلا إذا عشنا بينهم وآمننا بقدراتهم .

أسلوب العمل السياسي للاتحاد الاشتراكي العربي :

جهد الرئيس أنور السادات الأسمى التالية لتحقيق أسلوب العمل السياسي المطلوب :

(١) من برنامج العمل الوطني المقدم من السيد الرئيس أنور السادات إلى المؤتمر القومي العام الثاني في دور انعقاده الأول ٢٣ يوليو ١٩٧١ .

١ - الوضوح الفكري الكامل لطبيعة المرحلة التي نمر بها وما تفرض من مهام وواجبات ، وما يسودها بحكم طبيعتها من عوامل مساعدة ومضادة . وكيفية التصرف لإزاءها . حتى يكون الخط السياسي استراتيجياً وتكتيكياً ، واضحاً وضوحاً كاملاً أمام المستويات القاعدية والقيادية على حد سواء .

٢ - إقامة البناء الداخلي للتنظيم بحيث يخدم الخط السياسي ويضمن للوحدة التنظيمية والتسلسل الطبيعي للمستويات القيادية والاتصال الدائم والفوري بين المستويات المختلفة ، وبين التنظيم وال جماهير وتكوين مكاتب فنية متخصصة في مختلف أوجه النشاط تمتد الأجهزة السياسية بالمعلومات والدراسات اللازمة التي تعاون على اتخاذ القرارات .

٣ - سيادة مبدأ الديمقراطية في الحياة الداخلية للتنظيم السياسي ، بحيث يكون أسلوب الحياة والعلاقات داخل التنظيم هو الذي يحدد بالتبعية أسلوب تعامله وعلاقته بال جماهير ، والديموقراطية تعنى حرية الرأي والتعبير لكل عضو ولكل مستوى ولكل قوة من قوى التحالف وإيجاد الظروف الملائمة لممارسة هذه الحرية ، كما تعنى حق النقد وممارسة النقد الذاتي ، والديموقراطية هي الضمانة الموحدة ضد ظهور مراكز القوى وضد الشللية وضد الولاء لفرد أو لمجموعة من الأفراد .

٤ - وضع نظام ثوري للرقابة والمحاسبة يحدد الحقوق والواجبات لكل عضو وكل مستوى ، ويحدد طرق الثواب والجزاء ويقيح الفرص كاملة للدفاع عن النفس بحيث لا يؤخذ العضو بالشبهات والشائعات أو بمدى قربه من هذا المستول أو بعده عن ذلك .

٥ - وضع خطة لتثقيف الأعضاء وتربيتهم سياسياً وتنظيمياً وفكرياً ودخولياً . فالأساس الفلسفي للتثقيف هو الانتماء الكامل لل جماهير والتوحد معها الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق إلا إذا ارتبط التثقيف بالواقع وبالمشاكل البعيدة والمشاكل اليومية . وبالظروف التي يعيشها الناس ويتحركون في ظلها ويتصرفون بتأثير منها .

٦ - قيام تنظيم حليمي - كائن الميثاق - داخل الاتحاد الاشتراكي بجمع العناصر القيادية التي ظهرت أثناء العمل بين الجماهير من أجل تنفيذ مهام البرنامج في إخلاص الوطن والتفكير في الذات وتغير تطلع إلى جزاء أو جاه أو منصب ، تحقيق به الجماهير ، وتلف من شعوره ويجب أن يكون جهازا عليا .

المهام الرئيسية للاتحاد الاشتراكي العربي :

وقد حددها الرئيس أنور السادات في برنامج العمل الوطني الذي قدمه إلى المؤتمر القومي العام الثاني في دورة انعقاده الأولى في ٢٣ يوليو ١٩٧١ بمهمتين محددتين هما : محو الأمية وتنظيم الأسرة لما لهما من أهمية بالغة وأمر مباشر لحل تطوير اقتصادنا القومي بالإضافة إلى أنهما لا يمكن أن تتولاهما أجهزة الدولة وحدها ، ولا يمكن أيضا أن تتركهما للجهود الفردية للجماهير .

وإلى جانب هاتين المهمتين حدد الرئيس أنور السادات ثلاث مهام أساسية أخرى للاتحاد الاشتراكي العربي وهذه المهام هي : -

أولا : التوعية بخصائص المرحلة الحالية.

فالمرحلة الحالية من مراحل نضالنا تتطلب من كل مواطن أن يكون على إدارته تام من هو العدو ومن هو الصديق ، هذا إلى جانب اليقظة والنضال ضد المخططات الصهيونية الإمبريالية في الخارج والقوى الداخلية المعادية للتقدم والاشتراكية وأن تقض على الفور ماثبة من سموم بيننا وأن نحمل بحبات حيوتنا وحدتنا الوطنية .

ثانياً : التوعية بالتنمية والمشاركة فيها :

فنجاح التنمية رهن بإيمان الجماهير بها وحاسم لها والإيمان والحاسة لا طريق لهما سوى الفهم العلي لمهام الاقتصاد ، والوعي بأعباء المرحلة . وقضايا التنمية لا بد أن تحتل مكان الصدارة من اهتمام الاتحاد الاشتراكي والحكومة على حد سواء فإذا كان التنظيم السياسي هو المدرسة النظرية التي يتعلم فيها الشعب السياسة الاشتراكية فإن القطاع العام هو الميدان الذي يضع فيه النظرية موضع التطبيق .

الثالث : بناء الإنسان الجديد :

إن بناء الدولة لا يمكن أن ينجح بدون الإنسان الجديد ، الأمر الذي ي
إلى عمل تربوي مبني من قبل الاتحاد الاشتراكي بكافة مستوياته وتنظ
للمعاونة ، وإنها مهمة صعبة تتطلب عدة سنوات من العمل الجاد المتأثر ، إلا
مهمة نبيلة تستحق أن تكرر لها الجهود .

إن تكوين الإنسان الجديد لا يمكن أن يتم بمجرد الوعظ والإرشاد وبه
لذلك كان الوعظ بعيداً عما ينطوي عليه ولا يمازج من خلال القدوة ومن خلال الله
بقيتها الروحانية النبيلة ومن خلال الصراع الدائم بين القيم العالية التي فرضتها
حياتها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . ومن خلال العمل من أجل حل مشا
الجمهير والاشترك في تنفيذ أهداف الخطة .

إن الاستمرار علماً منه بما للقيم الثورية من أثر ، يشن ضدياً وضد قيمنا -
فكرية يستخدم فيها أحدث الوسائل ، وإن علينا أن نواجه هذه الحرب .

إن تقديس العمل واحترامه لا بد أن يكون القيمة الأولى في حياتنا ولي
لنا أسوة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول لبنائنا (لا يأتيك الناف
بأعمالهم وتأنوني بالسباكن) إن أشرف سبب لا يفضي عن العمل .

إن القيمة الثانية هي حب الوطن ، بأرضه ونيله ، وبشعبه وما بناه ، بحاض
وماضي ومستقبله .

لنا يجب أن نقف بشدة ضد الجشع والرشوة والطفيلية والوشاية والكذب
ضد السلبية والتلق والتشهير بالناس والادعاء عليهم بما لم يقولوه أو يفعلوه .

لنا يجب أن نربي في أنفسنا حب الناس والثقة بهم ، والإيثار والتشدد
النفس والوقوف مع الحق . وحسن الاستماع إلى الغير ، والثقة بالنفس بغير غرور
وتحمل المسؤولية .

إن للأدب والفن ووسائل الاعلام دورها الكبير في هذه القضية ، فقد
تكوين الإنسان الجديد في مواجهة حرب الدعاية التي تهيئها ضدياً قو
الأمبريالية والصهيونية .

الاهتمام بالتنظيم الجماهيري للاشتراكي :

كما تضمن بيان الرئيس أنور السادات ضرورة إعطاء التنظيمات الحزبية :
التنظيم الشبابي - التنظيم النسائي - النقابات العمالية - لجان الحركة : أهمية
كبيرة في هذه التنظيمات من أهمية في تدعيم قيادة وفمايلية الاتحاد
الشراكي العربي .

ولقد عهد السيد الرئيس أنور السادات إلى السكرتير الأول للجنة المركزية
بمهمة أساسية تستهدف تدعيم قدرة الاتحاد الاشتراكي وزيادة فاعليته وإثباته
على الجماهير ، وحدد سيادته لهذه المهمة خطوطاً أربعة رئيسية هي : (١)

- ١ - حشد طاقة كافة جماهير الشعب عن طريق وضعها في الصورة دلائماً .
- ٢ - إدارة الحوار الديمقراطي بين قوى الشعب العاملة ، لكي يتحقق
مشاركتها الإيجابية في النضال الشامل لامتنا .
- ٣ - فتح أبواب الاتحاد الاشتراكي ليكون مجالاً للتفاعلات الصحية بين كل
القوى الشعبية ، ولتكون كل خطوة للامام متصلة بعملية ديمقراطية سليمة .
- ٤ - إعداد الجماهير نفسياً وفكرياً وعملياً لآعباء مسئولياتها ، وعلى أن
يكون واضحاً أن الناس يتقبلون مسئوليتهم إذا حلوا أمأنتها وإذا أمسكوا بأيديهم
حقوقهم بما في ذلك حقهم في توجيه السلطة الوطنية التي لم تقم إلا للصبر
عن إرادتهم ،

وقد عرض السيد الرئيس تفاصيل هذه المهمة ودوايحها على المؤتمر القومي
العام الثاني في جلسته الافتتاحية يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٧٢ .

وقد سبق أن أوضح السكرتير الأول للجنة المركزية في البيان الذي ألقاه في
تلك الجلسة تصور الذي استخلصه من الاستطلاع الواضح لرأي ممثلي قوى الشعب
العاملة في الاجتماعات العديدة التي عقدت داخل التنظيم وخارجه مع النقابات

(١) راجع تقرير الأمانة العامة التي أقرتها اللجنة المركزية بشأن تطوير أسلوب العمل في
الاتحاد الاشتراكي - اللجنة المركزية يوليو ١٩٧٢ .

عالمية، والمهنية والطلبة والشباب وأساتذة ورجال الفكر والصحافة ، وجرى من خلالها حوار عميق حول التنظيم السياسى وسبل تطويره ومشكلاته ووسائل علاجها .

وانتهى من ذلك كله إلى أن الأوعية التنظيمية أصبحت تضيق — بعد مرور عشرة أعوام على قيام الاتحاد الاشتراكي ، وإزاء المتطلبات الخطيرة لمركبة التحرير — عن استيعاب وتميئة كل القوى الجديدة وللشابة والصاعدة ، فضلا عن طاقات أخرى وطنية ومناضلة ، وذلك إما لسلبات ذاتية وإما نتيجة للسبيين مجتمعين ، الأمر الذى يقتضى مزيداً من الانفتاح على الجماهير وفتح أبواب التنظيم أمام قوى الشعب العاملة ليستوثق الجميع أن تنظيمهم هو أداتهم الشرعية للتعبير عن الرأى .

كما عرض تصوره لوسائل تحقيق هذا التطوير التى تتمثل فى :

- ١ — تحديد وتوضيح المنهج السياسى الفكرى والتنظيمى للاتحاد الاشتراكي ودوره وتطبيق هذا المنهج على واقع الاتحاد .
- ٢ — رصد هذا فى وثيقة تنظيمية تكون دليلا سياسيا فكريا وتنظيميا للاتحاد.
- ٣ — تعديل قانون الاتحاد الاشتراكي تعديلا يحقق هذا التطور ، ويعبر عما انتهت إليه الدراسات والاقتراحات والتوصيات .

ولأنهى من هذا التصور بأجزائه الثلاثة إلى تشكيل لجنة عمل ، ولجان تسع متفرعة عنها تضم أصحاب الرأى والخبرة من أعضاء المؤتمر القومى واللجنة المركزية والأعضاء العاملين بالاتحاد الاشتراكي العربى ، تكون مهمتها ترجمة هذا التصور وصياغته ، بعد الدراسة والمناقشة الواسعة إلى مجموعة اقتراحات ومشروعات محددة تعارح بعد ذلك على القواعد الجماهيرية ، ثم تعرض على اللجنة المركزية لدراستها وإقرارها .

وقد وافق المؤتمر القومى العام بمجاسته المنعقدة فى ١٨ فبراير سنة ١٩٧٢ على هذا التصور وعهد إلى السكرتيز الأول للجنة المركزية بتشكيل هذه اللجنة .

وقد روعى في تشكيل اللجنة واللجان الفرعية أن تكون انعكاساً لمختلف الاهتمامات العامة في المجتمع، فشمّل التشكيل مسئولين متفرغين للعمل السياسي داخل التنظيم وآخرين يتولون جماعات مسئولياتهم في التنظيم السياسي مسئولياتهم في الجهازين التنفيذي والتشريعي، كما شمل عدداً من المتخصصين في مجال الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون والسياسة الداخلية والخارجية والدين فضلاً عن العاملين في مجالات الفلاحين والعاملين والرأسمالية الوطنية والشباب والجامعات، وتوسيعاً لقاعدة المناقشة والحوار، فقد شكلت لجان استشارية تمثل مختلف قوى الشعب العاملة تعاون لجنة العمل في مهمتها.

وقد أوضح السكرتير الأول للجنة المركزية للجنة العمل منذ اجتماعها الأول أموراً ثلاثة رئيسية حددت طبيعة دورها وحدود مهمتها.

١ - أنها لجنة فنية مهمتها الإعداد والدراسة، وأن عملها سيطرح على تنظيمات الاتحاد الاشتراكي في مستوياتها ثم يرفع بعد ذلك إلى اللجنة المركزية وبذلك تكون لجنة خبرة ومشورة تسهم بفكرها في دعم حركة التنظيم ونشاطه وسلطته واختصاصه في مجالات عمله،

٢ - لأنها أخذت بما جاء في بيان السيد رئيس الجمهورية أمام مجلس الأمة في ١٩٧١/٥/٢٠ تتحرك في إطار الأحكام والمبادئ الرئيسية لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ كما عبرت عنها الوثائق الرئيسية للثورة وهي ميثاق العمل الوطني - وبيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ وبرنامج العمل الوطني والدستور.

٣ - أن مهمتها الرئيسية هي المساهمة في إنجاز أمرين رئيسيين:

الأول: وضع تنظيم سياسي فكري وتنظيمي لأعضاء التنظيم على ضوء الميثاق ووثائق الثورة.

الثاني: التقدم بمشروع لتعديل القانون الحالي للاتحاد الاشتراكي.

وقد وافق المؤتمر القوي العام للاتحاد الاشتراكي العربي في دورته الثانية في المدة بين ٢٣ يوليو إلى ٢٦ يوليو ١٩٧٢ على إحالة مشروع دليل العمل السياسي الفكري والتنظيمي وكذا مشروع تعديل النظام الأساسي للاتحاد الاشتراكي العربي.

الذي تم إعدادهما بناء على توجيه المؤتمر القوي العام في دورته الخاصة في ١٨ فبراير ١٩٧٢ إلى تنظيمات الاتحاد ومؤتمرات المحافظات على أن يكون لها حق اقتراح التمهيلات التي تراها عليهما ثم يجرى عرضهما بعد ذلك على اللجنة المركزية لأقروهما في صورتها النهائية .

ويمكن تحديد خطوط الإصطلاح والتطوير الرئيسية التي أمكن استخلاصها من تقرير أعمال لجنة العمل واللجان الفرعية الاستشارية ولجان اللجنة المركزية في خمسة موضوعات رئيسية هي (١) :

- ١ — أهمية الوعي بطبيعة المرحلة التي يجتازها نضالنا الوطني القوي .
- ٢ — موقف التنظيم من الجماهير وموقف الجماهير منه .
- ٣ — تحديد الخط الفكري للتنظيم .
- ٤ — المبادئ التنظيمية .
- ٥ — إعادة النظر في بناء الاتحاد الاشتراكي وأساليب عمله .

أولاً: فيما يخص أهمية الوعي بطبيعة المرحلة التي يجتازها نضالنا الوطني والقوي:

وحول هذا الموضوع ورد بالتقرير أن المرحلة الدقيقة التي تمر بها أمتنا اليوم ، تحتم إصرار الجماهير للشعب — أكثر من أي وقت مضى — على الوحدة الوطنية باعتبارها الطاقة الخلاقة التي تدفع العمل الوطني وتحركه ، وتضمن ألا يذهب سدى أو يتهتك في معارك الصراع أو التناحر والتفرقة ، وعلى أن الترجمة الحقة لهذه الوحدة الوطنية هي الصيغة التي قيام عليها تنظيمنا السياسي وحرصت عليها الجماهير ورفضت ماعداها ، وهي صيغة تحالف قوى الشعب العاملة على أن يكون تحالفا حقيقيا وواقعا بين القوى الاجتماعية وليس تحالفا شكليا بين أفراد ينحرفون بالسلطة أو يقيمون مراكز قوى تبطل بالشعب أو تتخذ من العمل السياسي وسيلة لتحقيق مآرب ومصالح ذاتية .

(١) التقرير الأمين الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي الذي أقرته اللجنة المركزية بشأن تطوير أساليب العمل في الاتحاد الاشتراكي يوليو ١٩٧٢ .

ولذلك يجب إدراك الانحياز العالمية داخل تحرك بإطار العمل السياسي فكرياً وتنظيياً وعملاً :

الأول : تعاطف التجدي الذي يواجه الشعب العربي في مصر نتيجة لتوقيع التحالف ما بين الاستعمار والصهيونية . وهو التحالف الذي استتاع عام ١٩٦٧ أنه يصل إلى احتلال جزء من أراضينا بما يوجب علينا أن نحول جزءاً هاماً من ممتلكاتنا الوطنية ومن مواردنا لتحرير الأرض وإزالة آثار العدوان .

الثاني : ضرورة استيعاب التغير المتواصل في الظروف العالمية التي تهيئ بالانضال الوطني في هذه المرحلة من نضالنا الخارجي والداخلي على السواء وهو تغير يشبه الثورة في العلاقات السياسية والدولية وفي ميزان القوى والمصالح بين أطراف هذه العلاقات ، وفي العلاقات الاقتصادية وموازينها بين الدول المتقدمة والدول النامية . وفي مجال التطورات الاجتماعية والثقافية والعلمية العميقة التي تشكل بعداً أساسياً بالغ التأثير في مسيرة النضال الوطني والقوى وأساليبه ووسائل حركته .

الثالث : وقفة مع النفس بعد عشرين عاماً من بدء الثورة لمراجعة أساليب العمل لمراجعة تستهدف تخليصها من الشوائب وجعلها أكثر قدرة على خدمة الأهداف الرئيسية للنضال الوطني بمعديده السياسي والاجتماعي . وعلى مستوياته الوطنية والقومية والدولية . وهي الوقفة التي عبرت تعبيراً مباشراً عن نفسها بحركة التصحيح الثورية في مايو الماضي .

على أنه بالموافقة على هذه الأمور ، فإن الأمر يقتضي وضع برنامج مفصل يحدد الخطوات التي يجب اتخاذها لكي يوجه الاتحاد الاشتراكي العربي . في مسيرته - بفاعلية - كل هذه الظروف على ضوء المبادئ التي قررتها ثورة ٢٣ يوليو وميثاق العمل الوطني وقررها الدستور وأقرها الشعب في الاستفتاء ، وهي تحرير الأرض والاشتراكية والوحدة العربية .

بمعنى أنه ينبغي على الاتحاد الاشتراكي العربي أن يحدد مدلول هذه المبادئ باستمرار على ضوء الظروف المتغيرة ، ثم وضع البرنامج السياسي لترسيخها ووضعها موضع التنفيذ باستمرار .

وينبني أيضاً أن يكون هذا البرنامج بخطواته التنفيذية في تناول كل فئات الشعب على جميع المستويات الثقافية .

والهدف من كل هذا هو أن يكون الاتحاد الاشتراكي العربي هو الموجه السياسي للشعب في كل الظروف .

ثانياً : فيما يختص بموقف التنظيم من الجماهير .

وعن قول قضية موقف التنظيم من الجماهير وموقف الجماهير منه ، ذكر التقرير أن هذه القضية تتلخص في أن الجماهير لأسباب عديدة لا تحس إحساساً كافياً بأن لها دوراً فعالاً في الحياة العامة تستطيع أن تمارسه من خلال التنظيم ، وقد كشفت الدراسات حول هذه القضية من أن الإصلاح لا بد أن يسير — في وقت واحد — في خطوط ثلاثة رئيسية :

الخط الأول : نقل مراكز الثقل الجماهيري الحقيقية من خارج التنظيم إلى داخله ، عن طريق الربط بين التنظيم والمؤسسات الشعبية والنقابات والاتحادات العمالية والمهنية والشبابية والطلابية .

وقد طرحت لتحقيق هذا الربط فكرتان :

الأولى — تهدف إلى الربط العضوي بين هذه النقابات وبين اللجنة المركزية بأن تنتخب النقابات والاتحادات أعضاء يمثلونها في اللجنة المركزية .

الثانية — وتهدف إلى تكوين د لجان رأي متخصصة ، تنبع من قطاعات الإبداع المادي والفكري في الحياة اليومية ، تكون بمثابة نوافذ مفتوحة للتنظيم على مختلف الأنشطة الجماهيرية واتجاهاتها ، وصور التفاعل بينها وبين المؤسسات النقابية والمهنية ذات التأثير في مجالاتها ، ويمكن أن تتكون لجان الرأي هذه ، في مجالات التعاونيات الزراعية والنقابات ، واتحادات الكتاب والادباء والفنانين واتحادات جمعيات العلماء ، واتحادات الطلبة والجمعيات النسائية والغرف التجارية والصناعية .

وينعقد كل ستة شهور مؤتمر لكل لجان الرأي برئاسة السكرتير الأول للجنة

المركزية لتبادل الرأي في الأمور ، تأكيداً لوضوح الرؤية السياسية لبلد
كافة الأطراف .

وأخيراً فإن الاتحاد الاشتراكي باعتباره تنظيماً سياسياً فإنه لا يتدخل في
إدارة شئون تلك النقابات والمؤسسات ، وإن كان يحرص على سلامة السلوك
ووضوح الرؤية .

الخط الثاني : وضع هيئة مناسبة للممارسة الديمقراطية داخل التنظيم ، عن
طريق الانفتاح للأفكار والمصالح المختلفة لتعبر عن نفسها داخل إطاره ، ولتأمين
هذا التعبير وضمان استمراره .. وذلك بتدعيم المناخ العام الحرية وسيادة القانون
في الحياة السياسية كلها ، وداخل التنظيم بصفة خاصة .

كذلك يحقق الانفتاح على الجماهير بالحرص على عقد مؤتمرات التنظيم على
مستوى المحافظات والمراكز والأقسام والوحدات الأساسية في مواعيد
منتظمة ومجدول محددة ، وبحيث ينتهي عملها بإصدار توصيات وقرارات محددة .
وبهذا تتاح لقاعدة عريضة من الجماهير فرصة التعبير المنظم والمشاركة المستمرة
في القضايا العامة واليومية .

الخط الثالث : تحديد العلاقة بين التنظيم السياسي ووسائل الإعلام المختلفة وعلى
رأس تلك الوسائل الصحافة والإذاعة والتلفزيون ، هذه الوسائل هي أداة
التعبير عن الخط السياسي والفكر الاشتراكي ، وهي أداة نوعية جماهير الشعب
العامة وتمثيلها . وتحديد العلاقة المذكورة تحديداً حاسماً أو تهيئة الوسيلة لذلك
إنما يضمن سير الأمور في الطريق المرسوم وعلى ألا يحد ذلك من حرية وسائل
الإعلام في التعبير وفي المناقشة المشروعة فيما بينها .

الخط الرابع : ضبط علاقة الاتحاد الاشتراكي بوسائل الأجهزة في الدولة ،
وخصوصاً السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية ، بحيث يؤدي هذا الضبط في النهاية
إلى تأكيد سلطة الجماهير بما يكفل للشعب السيادة التي قررها الدستور .

وفي مقام هذا الضبط أقترح :

١ - اتباع التقليد الذي أرساه السيد رئيس الجمهورية - بسمية رئيس

مكوزراء في اللجنة المركزية قبل تعيينه .

٢ — أن تختص اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي بمناقشة الخطوط الأساسية للخطوة القومية للتنمية ، والخطوط العامة للسياسة الداخلية والخارجية ، على ضوء المبادئ الواردة في وثائق الثورة .

٣ — إيجاد نوع من الربط بين مستويات التنظيم المختلفة والمستويات المقابلة لها في الجهاز التنفيذي ، وذلك ابتداء من الوحدة الأساسية .

وعقيداً لذلك اقترح تشكيل لجنة بالقرية تسمى « لجنة العمل الوطني » تتكون من الأعضاء الفشرة للجنة الوحدة الأساسية ، وينضم إليهم ممثل عن الجمعية التعاونية الزراعية وممثل عن مجلس القرية ، ومناظر المدرسة وطبيب الوحدة الصحية ورئيس اللجنة النقابية وخطيب المسجد والمشرف الزراعي وممثل عن الشباب وآخر عن المرأة ، على أن يكون رئيسها هو أمين لجنة الاتحاد الاشتراكي المنتخب بالقرية ولا يكون لممثل الجهاز التنفيذي حق التصويت على القرارات في هذه اللجنة .

ويجوز على المستويات الأعلى ربط مماثل بين لجان الاتحاد الاشتراكي والأجهزة التنفيذية لاقتراح السب الحلول .

٤ — وفي مجال الصلة بالسلطة التشريعية : فإن مجلس الشعب هو مرآة الديمقراطية التي تمارسها جماهير الشعب ومناقشته العلنية المفتوحة تثرى العمل السياسي الذي يقوده الاتحاد الاشتراكي وتدعم حركته .

ومن ثم فإنه ينبغي دعم الدور الذي كفله الدستور لمجلس الشعب ، على أن يكون دور الاتحاد الاشتراكي هو التوجيه إلى الخطوط السياسية الرئيسية في إطار الالتزام بمبادئ الثورة .

ويتحقق ذلك عن طريق الهيئة البرلمانية التي ينبغي دعمها بضم الأمانة العامة وأمناء المحافظات إليها . كما ينبغي أن يوفر لأعضائها مقر في الاتحاد الاشتراكي وأن تتوثق الصلة بينهم وبين الأمين الأول وأعضاء الأمانة العامة ، وأن يزودوا بكافة الوثائق والبيانات التي توزع على أعضاء اللجنة المركزية وأمناء الاتحاد الاشتراكي بالمحافظات .

كما يكون من اختصاص الهيئة البرلمانية مناقشة المسائل الهامة المتصلة بالتشريع . والتداول في المسائل التي تهم أعضاء مجلس الشعب كانتخاب رئيس المجلس ووكيلين ورؤساء اللجان وغير ذلك من الموضوعات ذات الأهمية ، وينبغي إنشاء مكتب للهيئة البرلمانية ولشئون المجالس الشعبية يتبع الأمين الأول .

ومن ناحية أخرى يلزم تدعيم التعاون والارتباط التنظيمي بين المجموعات الإقليمية وأمناء المحافظات في ضوء مسئولية أبناء المحافظات عن قيادة العمل السياسي في محافظتهم ومشاركة عضو مجلس الشعب في العمل السياسي على مستوى المحافظة .

ثالثاً — فيما يخص تحديد الخط الفكري للتنظيم :

وحول تحديد الخط الفكري للتنظيم ذكر التقرير :
أن وثائق الثورة قد حددت بشكل واضح أن الحرية والاشتراكية والوحدة هي المبادئ التي تشكل فكر الثورة والتزامها وحركتها ، ومع أنه هذه المبادئ واضحة في ضمير شعبنا ولها جذورها الأصيلة من فكره الذاتي وخصائصه المتميزة إلا أن الممارسة اليومية للعمل السياسي عبر فترة طويلة قد كشفت عن بعض المحاولات لتفسير هذه المبادئ تفسيرات لا تلتزم الواقع المصري والعربي الأصيل وإنما تحاول الاستناد في مضمونها إلى عقلانيات ومذهبيات وأفدة ومطروحة على الساحة العالمية ربما كانت صالحة في بعض المجتمعات ولكنها عندنا لا تتلاقى مع المقومات الذاتية لشعبنا وبالتالي فإن استيراد مبادئ من هذا النوع لا تكون عامل توضيح وتحديد لرؤيتنا ولخطتنا ونقل هذه المبادئ من الخارج يؤدي إلى التشكيك أو إضعاف الحركة أو في النهاية يؤدي إلى ليس بين الهدف والفكر .

كذلك فإن التحديد القاطع لما تضمنته وثائق الثورة حول قضايا الفكر الأساسية يحسم كثيراً من التفرعات النظرية أو الجدلية ويكشف جهل الجماهير على

طريق العمل الذي يجب أن ينطلق إليه ويقوده أعضاء التنظيم .
إن مثل هذا التحديد — كما دلت التجربة — شرط أساسي لقوة الحركة
وإدفاعها ولحماس أعضاء التنظيم وارتباطهم به ، ومن هنا كان من الضروري أن
يعرض دليل العمل السياسي لهذا الإطار الفكري ، إلى جوار ما يتعرض له من
قواعد العمل التنظيمي وأسايبه .

وفي سبيل ذلك عهدت اللجنة إلى بعض أعضائها بمهمة إعداد مشروع لدليل
العمل السياسي الفكري التنظيمي ، ومشروع للنظام الأساسي ، وهو التعبير الذي
أطلقه الدستور على قانون الاتحاد الاشتراكي ، كما عهدت إليهم إعداد بيان
بالقوانين المنفذة للدستور في مجال حماية الحقوق والحريات .

رابعاً : فيما يختص بالمبادئ التنظيمية :

وعن المبادئ الأساسية ، أشار التقرير إلى أن التنظيم السياسي في حاجة ماسة
إلى استقرار عدد من مبادئ الحركة التنظيمية داخل مستوياته المختلفة ، ذلك
لأن الاتحاد الاشتراكي كت تنظيم سياسي لتحالف قوى الشعب العاملة ، يحتاج إلى
القدر الضروري من الانضباط التنظيمي ودقة الحركة الداخلية ، حتى يستطيع
أن يؤدي دوره السياسي في استيعاب حركة الجماهير وتنظيم تعبيرها عن آرائها ،
ومن هنا كان من الضروري أن يقدم دليل العمل لأعضاء التنظيم تحديداً واضحاً
لأهم أصول العمل التنظيمي ومبادئه ، يرجعون إليه في ممارستهم اليومية ، على أن
تتلقى قيادات التنظيم ، في المستويات المختلفة بعد ذلك ، قدراً أكبر من التعرف
الدقيق على هذه الأصول والمبادئ ، عن طريق دراسات ودورات تدريبية
أكثر عمقاً

خامساً : فيما يختص بإعادة بناء التنظيم :

وفي مجال إعادة النظر في بناء الاتحاد الاشتراكي وأسايب عمله تحدت
عدة خطوط رئيسية هي :

١ - صيغة التحالف :

أجمعت الآراء على أهمية الحفاظ الكامل على صيغة التحالف باعتبارها أنسب الصيغ للعمل السياسي التنظيمي ، وذلك انطلاقاً من معنى الوحدة الوطنية التي لا يجوز النيل منها أو المساس بها خلال المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو ، وتأكيذاً لمبدأ إمكان حل التناقضات بين قوى الشعب العاملة سلباً داخل إطار التنظيم السياسي - بالوسائل السلمية الديمقراطية .

٢ - حق العضوية :

اتفقت الآراء بشأن عضوية الاتحاد الاشتراكي والحقوق المترتبة عليها ومنحها وسحبها ، على مبدأين أساسيين :

٢ - أن تكون العضوية اختيارية ... بحيث لا ينضم للتنظيم إلا الراغبون حقيقة في المشاركة السياسية الإيجابية ، فلا يرغم أحد على عضويته في الاتحاد دون اقتناع أو لجرد الحصول على منصب في إحدى المنظمات الجماهيرية .

(ب) توفير الضمانات الكافية لمنح العضوية وسحبها ، وأن تكون تلك الضمانات سياسية وعامة ، فلا يتوقف منح العضوية أو سحبها على رأي فرد أو أفراد داخل التنظيم أو في قياداته .

٣ - الوحدة الأساسية :

اتفق على أهمية تدعيم وتنشيط الوحدة الأساسية للتنظيم باعتبارها القاعدة الرئيسية والحركة التي تربط بين قيادة التنظيم والجماهير واتفق على أهمية التدعيم المادي والفني للوحدة الأساسية وتدريب الأعضاء ثقافياً وتنظيمياً وتفرغ بعضهم للعمل السياسي .

٤ - اللوائح الداخلية :

رؤى وضع نظام عمل ثابت لمستويات التنظيم المختلفة وبخصوصاً في المستويات العليا - المؤتمر القومي واللجنة المركزية - بأن يكون لكل منهما لائحة عمل داخلية تنظم أسلوب عملها وما يقتضيه العمل من تشكيل لجان دائمة أو فرعية

ووسائل الاتصال بالأجهزة المختلفة في الدولة .

٥ - الكفاءة الفنية :

اتفق على أهمية رفع الكفاءة الفنية للتنظيم عن طريق تزويده بعنصر الخبرة الضرورى ، خصوصاً في مستوياته العليا والمركزية ، بتدعيم الأجهزة الإدارية والمعاونة بالمتخصصين في الشئون الفكرية والتنظيمية والسياسية ، إيماناً بأن قدرة التنظيم على التعبير عن آراء الجماهير وتوجيه دفة الحكم كله في اتجاه مصالح تلك الجماهير رهن بتوافر الرؤية العملية الدقيقة داخل التنظيم لكل ملاسات العمل .
الظروف الموضوعية المتغيرة التي تحيط بحركة الجماهير في نضالها اليومى .

٦ - تكوين مؤتمر الأمانة (أو مؤتمر الكوادر)

في مجال ضمان انفتاح التنظيم المتجدد والمستمر على حركة الجماهير ، قدمت عدة اقتراحات بإنشاء أوعية تنظيمية جديدة تكفل هذا الانفتاح وتحقيق أهمها اقتراح بعقد مؤتمر دورى بكل ثلاثة أشهر لضم أمناء المحافظات والمراكز والبنادر يرأسه السكرتير الأول للجنة المركزية ويحضره أعضاء الأمانة العامة ، لمناقشة المشا كل والقضايا العملية للنشاط السياسى التى يواجهها التنظيم في المواقع المختلفة ، ولتبادل الخبرات بالنسبة لاحتياجات ومطالب الجماهير .

٧ - الشئون السياسية :

نظراً للأهمية الخاصة لأمانة الشئون السياسية ، فإن زيادة قدرتها في المجالين الداخلى والخارجى تعتبر مدخلاً أساسياً لرفع كفاءة التنظيم السياسى كله ، وذلك بإعادة تكوين مكاتبها وشعبها المختلفة وفى هذا المجال اقترح أن تشكل الأمانة من أربعة مكاتب أساسية :

(أ) مكتب الشئون الداخلية : ويضم شعبتين ، تختص الأولى بإعداد الخطوط السياسية التى يجب أن تتخذ من قيادة الاتحاد الاشتراكى وتختص الثانية بمتابعة قرارات المؤتمر القومى .

(ب) مكتب العلاقات الخارجية : ويختص بمتابعة تطورات ومواقف واتجاهات التنظيمات السياسية في بلاد العالم ، وتوضيح الخط السياسى للاتحاد الاشتراكى لهذه التنظيمات السياسية .

وينقسم هذا المكتب إلى أربع شعب [شعبة للدول العربية . شعبة للدول الاشتراكية — وشعبة لدول غرب أوروبا وأمريكا واليابان — وشعبة لدول العالم الثالث] .

(ج) مكتب الخبراء المركزي : ويقوم بإعداد الدراسات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي يتطلبها العمل السياسي ويتكون من ثلاث شعب : [شعبة لمتابعة الأحداث السياسية اليومية . وشعبة لقياس الرأي العام واتجاهاته وشعبة لل نشرات المركزية] .

(د) مكتب الاتصال : وتكون مهمته الاتصال بالامانات النوعية واللجان الرئيسية للجنة المركزية ، وكذلك بالمستويات التنظيمية المختلفة وتشكل أمانة الشؤون السياسية مجلساً مشتركاً لهذه المكاتب من المسئولين عنها .

٨ — نشاط التنظيم في الخارج :

اتفق على أهمية توسيع نطاق علاقة الاتحاد الاشتراكي بالتنظيمات والقوى السياسية في الخارج ، وعدم قصر هذه العلاقات على منطقة دون منطقة أخرى في العالم العربي الاسلامي ، وبلدان العالم الاشتراكي ، وأحزاب المنسكرك العربي وأحزاب العالم الثالث .

وأستقر الرأي على ضرورة إنشاء لجنة خاصة تعنى بقطاع المغتربين من الشعب المصري المنتشرين ما بين أقصى غرب الولايات المتحدة إلى أقصى الشرق في جزر المحيط الهادئ .

٩ — التنظيم الشبابي :

اتفقت الآراء على أهمية وجود تنظيم قوى للشباب ، وأهمية تحقيق التوازن بين ضرورة إرتباط هذا التنظيم بالتنظيم الأم ، وضرورة تمنعه بقدر من الاستقلال وحرية الحركة وطرحته لذلك فكرتان مختلفتان :

الاولى : تقضى بإقامة تنظيم شبابي متكامل المستويات ابتداء من الوحدة الأساسية إلى اللجنة المركزية ، على أن يكون إرتباطه بالتنظيم الأم من خلال وجود ممثلين له في اللجنة المركزية .

والثانية : تقضى بعدم تشكيل لجنة مركزية للشباب ، اكتفاء بتمثيل عدد من قياداته في اللجنة المركزية للتنظيم الأم .

واتفقت الآراء على ضرورة تجنب الازدواج في تحديد الهيئات المشرفة على الشباب ، وأهمية التنسيق الكامل بين منظمة الشباب والأجهزة التنفيذية المختلفة التي يتصل لشاؤها ببعض قطاعات الشباب.

١٠ - التنظيم النسائي :

وفيما يتعلق بالتنظيم النسائي فقد اتفق على ما يأتي :

- (أ) تأييد قيلم التنظيم النسائي والعمل على دعمه واستمرار نموه .
- (ب) وجوب توفير إمكانية الحركة الذاتية للتنظيم النسائي على أن يعمل في تآزر وترايط وتعاون مع التنظيم السيامي الأم .
- (جـ) أن يكون للتنظيم النسائي قياداته المعبرة عن فروع القطاع النسائي المختلفة .
- (د) العمل على تمثيل العنصر النسائي في الشعب والمكاتب المنبثقة عن الأمانات الفرعية المختلفة .

الباب الرابع

حماية الوحدة الوطنية المصرية

في هذه المرحلة التي يلبث فيها الشعب المصري أصالته وحموده ضد الاستعمار والعدو الصهيوني وعملائه ... تحاول أجهزة الحرب النفسية المعادية تركيز هجماتها ضد وحدتنا الوطنية .. مستخدمة سلاحين خطيرين هما : إثارة الفتنة الطائفية بين المصريين من المسلمين والمسيحيين ، وحرب الإشاعات . بهدف تفكيك الشعب المصري إلى شيع متحيزة يشغلها التناحر الداخلي عن معركة التحرير الوطني ، ولإظهار المصريين أمام الرأي العام العالمى فى صورة الأمة المتخلفة

ولكن الشعب المصري كان على وعى كامل وإدراك تام بحقيقة هذه المحاولات وسرطان ما التفت الجماهير حول بعضها ممثلة فى ممثلها أعضاء المؤتمر القومى وزعماء الطوائف وقادة الرأي ، تؤكد على ضرورة الوحدة كأساس لدعم الجبهة الداخلية فى مواجهة التحديات . فشعبنا يؤمن دائماً بأن سلامة الوحدة الوطنية أمانة فى عناق كل مصرى وكل مصرية ، وأن مصر وشعبها لم ينجز مجدداً إلا فى إطار الوحدة الوطنية .

وهكذا جاءت محاولات أعدائنا للنيل من وحدتنا الوطنية ، فكما قال الرئيس أنور السادات : إن أرض هذا الوطن واحدة وأن سماءه واحدة وأن شعبه واحد ، فالوحدة الوطنية حقيقة قائمة ومستمرة .

وجدير بالذكر أن أى ادعاء يشكك فى الوحدة الوطنية المقدسة من شأنه أن يعضف الوحدة الوطنية ذاتها ويهدد قدرة الشعب على خوض المعارك المرتقبة تحريراً للأرض ودفاعاً عن الحرية وتأميناً للتقدم ،

ولذلك فإن حماية الوحدة الوطنية والحفاظ عليها .. وصيانتها من حملات التشكيك والتضليل والدعايات الكاذبة يعتبر أمراً ضرورياً تحتمه طبيعة ممرتنا ضد العدو الصهيوني ومن يسانده خاصة وأنه بفضل الوحدة الوطنية يمكن الحفاظ

على المنجزات الثورية وتحقيق المزيد منها ، بالإضافة إلى أنها تكفل حشد القوى الوطنية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو .

ولهذه الأسباب جعل الرئيس أنور السادات موضوع الوحدة الوطنية الهدف الرئيسي لل مؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي الذي عقد أخيراً في الفترة من ٢٤ يوليو إلى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٢ ، ومن أجل صيانة الوحدة الوطنية ، دعا سيادته مجلس الشعب لدورة طارئة في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ . للتشريع قانون لحماية الوحدة الوطنية .

الفصل الأول

الحرب النفسية

ودورها في زعزعة الوحدة الوطنية

تمارس الحرب النفسية ضد المدنيين والعسكريين في أوقات السلم والحرب على السواء ، ولكنها تصبح أشد لبشاعاً وأقوى خطراً قبيل الحروب وإثناءها .

ولقد حظيت الحرب النفسية في السنوات الأخيرة بأهمية بالغة ومتزايدة من جانب الدول الكبرى وخاصة بين معسكرات الرأسمالية والاشتراكية في العالم ، فالحرب النفسية لم تعد مجرد حرب شكلية على هامش الحياة ، بل هي في الحقيقة والواقع صارت حرب حياة أو موت (١) وخاصة بعد أن أصبحت شعوب العالم ، تنظر إلى الحرب الدعوية سواء كانت بأسلحة تقليدية أو غير تقليدية على أنها أكبر حافة ترتكب ونوعاً من الجنون لا يفكر ، وأنه من العبث أن يرى الإنسان بنفسه ودنياه إلى الدمار والفناء بيديه لقاء فكرة عارضة ، أو اختلاف على مساحة من الأرض ، أو تشاخن على نصيب من الثروة ، أو تشبث بنفوذ واستعلاء .

أهمية الحرب النفسية في العصر الحالي :

إن دور أهمية الحرب النفسية قد زادت بسبب التغيرات الكبيرة التي طرأت على المعدات والأسلحة والفن القتالي ، فقد وضعت الأنواع الجبارة من الأسلحة اعتبارات ومبادئ جديدة لسلوك وتقسيمه المقاتل في الظروف القتالية ، ولقد أكد كثير من علماء النفس الحربيين في الغرب فكرة مؤداها أن الوحدات القتالية تحت تأثير الصدمة ستصبح عاجزة ليس بسبب الخسائر الفادحة في الأرواح

(١) المجلة العسكرية للقوات المسلحة العدد ١٤٩ مارس ١٩٧٠

والمعدات وإنما بسبب تأثير الصدمة النفسية وهندلذ يفقد الجنود تحت تأثير
الفرع القدرة على التفكير والتصرف الذاق فيتجاهلون مطلقاً أوامر القادة
وبالتالى لن ينفذوها .

وعلى ذلك فإن معظم النجاح فى الأعمال الحربية يعتمد اعتماداً أساسياً على
العوامل النفسية ، فقد يصيب الموت غالبية جنود العدو ، وقد يحل الدمار
بممتلكاتهم وموارده ، ومع ذلك فإننا نرى البقية الباقية من قواته العسكرية وأفراد
المدنيين يستميتون فى الدفاع والمقاومة ، ويأبون الخضوع أو الاستسلام ، لأنهم
يعلمون أن الغاية التى يسعى إليها العدو ، هى إخضاع قواتهم العسكرية ، وأفراد
الشعب المدنيين ، لإرادته وسلطانه لاستغلال مواردهم وجهودهم لمصلحته الخاصة .
فالقوات الروسية التى دافعت عن استالجراد ، وقاومت الهجوم الألمانى
الوحشى ، ووقفت فى وجه معدات التدمير الألمانية ، من مدافع حصار ، وقذائف
طائرات لمدة ثلاثة أشهر ، لم ترضخ أو تستسلم ، بل قاومت إلى أن تحقق لها النصر
على القوات الألمانية ، فى الوقت الذى تمكنت فيه هذه القوات من التغلب على مدن
روسية أخرى أكثر عدة وعدداً ومناعة وتحصينا ، لجميع قذائف الطائرات
وجيران المدفعية ، والهجمات المتوالية التى وجهت إلى استالجراد ، فشلت ولم تحقق
هدفها لأنها لم تحطم روح القتال والثقة بالنصر لدى المدافعين (١) .

ونفس الشيء عندما وقع عدوان ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، حيث فوجئت
جماهير شعبنا بلطمة الهزيمة السريعة ، ولكن صرعان ما استعادت توازنها مدركة
بوعيا وأصالتها أن العدو لن يستطيع بحال من الأحوال أن يخضع إرادته ..

فكانت الوقفة التاريخية لجماهير شعبنا العاملة فى ٩ ، ١٠ يونيو التى فرضت
بها إرادتنا بشكل قاطع بالنسبة لسكل القضايا التى تخلق بكيانها ومستقبلها :

— لإصرار على الصمود ورفض الهزيمة .

— لإصرار على الاستمرار فى الحركة حتى النصر .

(١) علم النفس السكرى وفن القيادة . القاهرة ١٩٤٩ ص ١٥١ .

— استمرار على التمسك بالثورة وبقيادتها من أجل استمرار التحول الاشتراكي نحو مجتمع أكثر تقدما :

مفهوم الحرب النفسية :

وَضُمَّتْ عدة تعريفات لمفهوم الحرب النفسية لا يخرج عن كونها : الحرب التي تعتمد على نقل أفكار ومعلومات معينة إلى العدو من شأنها أن تضعف روحه المعنوية وتنهط إصراره على مواصلة القتال وتجعله يعتقد أن من الأفضل أن ينهي الحرب على أية صورة .

فالحرب النفسية إذن هي حرب تستهدف الروح والعقل ، وسلاحها الفكر . توجه إلى المواطنين والحلفاء من جهة وإلى الأعداء وشبه الأعداء المحايدون من جهة أخرى ، ومبادئها ليست أرض المعارك والمحاربين لحسب وإنما يتعدى أمرها إلى شعوب هؤلاء المحاربين وشعوب غير المحاربين ، ولا تحكها قوانين أو عادات أو تقاليد أو عرف .

وتستخدم الحرب النفسية في تأثيرها المستمر على العدو كل وسائل الاتصال والإعلام لإشاعة التلق والاضطرابات في صفوفه وإضعاف تماسكه ، وتعطيل روحه المعنوية .

ويعني المفهوم العسكري للحرب النفسية أننا نتجه مباشرة إلى معنويات العدو ، أي إلى إرادته وعزمه على مواصلة القتال ، فإذا استطعنا أن نهبط بمعنوياته تمكننا من أن نغلب إرادتنا عليه بقدر أن نضعف إرادته وعزمه على مواصلة القتال .. ولهذا تعتبر الحرب النفسية جزءا مكملا للعمليات الحربية (١) .

وتدار عمليات الحرب النفسية في تنسيق محكم مع الخطط العسكرية الموضوعة في مختلف مستويات القيادة . (٢)

نظرية الحرب النفسية :

تقوم نظرية الحرب النفسية على أن الائتمان هو محور الحركة أو القتال وأن الأسلحة والمعدات سواء كانت برية أو جوية هي وسائل المعاونة على التفوق أو النصر .

(١) راجع لوبون السكورت ولويو وستان أنشيكولوجيا الإشاعة ترجمة صلاح غنيو ومراجعة سيد مرسي ص ٤ .

(٢) راجع لقواء عبد الرحيم عجاج : دور الحرب النفسية في المعركة - ص ١٥ .

فلا قيمة للتفوق المادى منها كانت أشكاله ودرجاته إذا لم يصاحبه تفوق معنوى .
وعلى قدر ما يتمتع الفرد أو للعنصر البشرى بمقدرة ذهنية وحسية تتوقف
تفتح الصراع الذى يخوضه بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة .

وحين نقول الفرد ، فلا ينبغي أن تنصرف الأذهان تلقائيا إلى المقاتل
بغنى المعركة لحسب ، سواء كان جندياً أم قائداً ، وإنما كل فرد فى المجهود الحربى
سواء كان مزارعاً أم عالماً أم مفكراً أم طبيباً وما إلىهم من أبناء الشعب المحارب
بأسره من رجال ونساء .

وميزة الحرب النفسية أنها أقوى مفعولاً وأبرع تأثيراً من الحرب الدموية
وأيسر استخداماً ، وفوق كل هذا أنها لا تكبد مثلاً تكبد الحرب الدموية من
جهود طائلة ونفقات باهظة وخسائر فادحة فى كيان الدول وحضارتها .

أهداف الحرب النفسية :

١ — التأثير على الكفاءة القتالية للعدو باستغلال أوجه الضعف السياسية
والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية الموجودة لديه . هذا بالاضافة إلى بث اليأس
عن النصر فى نفوس القوات المحاربة .

٢ — التأثير على الآراء والانفعالات والاتجاهات والسلوك بالنسبة للعدو
وما يساعد على هزيمته فى المستقبل .

٣ — وتسعى عمليات الحرب النفسية إلى التحكم فى معتقدات وأفعال العدو
باستخدام وسائل الاتصال المختلفة لكى :

- (أ) تعرض على القامض والمروب والفتنة والتسليم بين وحدات العدو .
- (ب) فقد ثقة العدو فى قادته وتسليحه ومعداته .
- (جـ) تشيئ الشك حول أحقية أهداف حرب العدو .
- (د) تزعزع إيمان العدو فى النصر النهائى .
- (هـ) تنمى المقاومة لمذاهب وعقائد حكومة العدو ،
- (و) تزعزع الثقة بين حكومة العدو وشعبه .

(ز) تخلفك الالتفات في جماعات وظوائف معينة بين شعب العدو .
(ح) تشجيع الحركات المناوئة داخل مناطق العدو .

(ط) منع تعاون الجماعات الاجنبية مع العدو في المناطق التي تحتلها قواته .
(س) تعمل على توطيد أواصر الصداقة والتعاون بين المتحالفين .
(ك) تحولة دون مساعدة الجماعات المحايدة للعدو اقتصاديا وسياسيا .

وسائل الحرب النفسية :

ومن وسائل الحرب النفسية (١) :

- ١ - حرب الدعاية
- ٢ - حرب الاشاعة .
- ٣ - الحرب الاقتصادية .
- ٤ - القتال الفعلي .

أهداف إسرائيل في حربها النفسية ضد جمهورية مصر العربية :

أشار السيد الرئيس محمد أنور السادات في خطابه أمام مجلس الشعب يوم ١٩٧٢/١٢/٢٩ أن حرب العدو النفسية علينا لم تهدأ لحظة لأن العدو كان يعرف بأن النصر والهزيمة يبدآن من داخل أى مجتمع .

ويمكن حصر أهداف إسرائيل في حربها النفسية ضد جمهورية مصر العربية فيما يلي :

- ١ - التشكيك في القيادة السياسية وقدرتها على قيادة الشعب المصرى .
- ٢ - التشكيك في الوحدة الاندماجية بين مصر وليبيا وعلم قدرتها على الاستمرار ، كذا التشكيك في الدعوة لقومية الحركة .

(١) راجع الفيز ٣٢٠ السيد - أضواء على الحرب النفسية : المكتبة الثقافية العدد (٢٨٤) ص ١١٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٢ .

٣ — لإيهامنا - وهو أخطر النقط - بأننا كشعب عاجز عن تحقيق الكفاءة القتالية المطلوبة - وغير قادر على استعادة أرضنا المقدسة .

٤ — العمل على فقد الثقة بين القوات المسلحة والشعب وزعزعة التلاحم الموجود بين الشعب وقواته المسلحة .

٥ — العمل على فقد الثقة بين القوات المسلحة وقيادتها السياسية .

٦ — التشكيك بالوحدة الوطنية بين المسلمين في هذا الوطن وبين الأقباط فيه .

مظاهر الحرب النفسية التي تتعرض لها حاليا من جانب الاستعمار وإسرائيل :

نظراً لما يتصف به الشعب المصري من تماسك وحرص على وحدته الوطنية ، كانت مدعاة التعبير عن أقوى دعاة قام عليها اتحاد أبناء مصر على اختلاف دياناتهم في الشدة والرخاء والحرب ، واستطاع بها صيانة أعظم حضارة عرفها الإنسانية في كل تاريخها الطويل ، وحقق بها شعبنا إنجازات ضخمة في كل نواحي الحضارة والرقى ، وكافة فروع المعرفة الإنسانية الظاهرة والخفية . فلقد ركز الاستعمار والصهيونية كافة وسائل وأساليب الحرب النفسية لمحاولة النيل من هذه الوحدة الوطنية التي تعبر عن تماسك الجبهة الداخلية .

وقد ركز الاستعمار والصهيونية على أسلوبين خطرين هما :

حرب الإشاعات ، وإثارة الفتنة بين الأقباط والمسلمين ، وكانت نتيجة ذلك أن تعرضنا أو أوشكنا أن نتعرض لعدد من المخاطر من ذلك (١) :

١ - مخاطرة تهدد وحدة قوى الشعب العاملة بهدف إذكاء حدة الصراع بين قوى التحالف بدلا من تهدئتها كإثارة المنازعات بين الرأسمالية الوطنية مثلاً وبين العمال والمثقفين .

٢ — مخاطرة تريد أن تصرفنا عن النضال المشترك ضد العدو بإذكاء خلافات

(١) راجع ما جاء بمقال الدكتور جمال العلي في جريدة الأهرام بتاريخ ٢١/٨/١٩٧٤ .

أيدولوجية ، فثلا قد يثار أن كثيرين عن يبلثمون عملهم السيامى اليوم تحت راية الاتحاد الاشتراكى كانوا ينتمون قبل عام ١٩٥٢ الى أحزاب وتنظيمات قديمة حلت وانتهى أمرها أو استغذت غرضها ، بل إن بعضهم كان ينتمى الى تنظيمات كانت تباثر لشاؤها خفية قبل عام ١٩٦١ .. وحلت نفسها أو انتهت لشاؤها سواء ما كان منها تنظيميا فى أقصى اليسار أو تنظيميا فى أقصى اليمين .

٣ - مخاطر كادت أن تهدد المجتمع نتيجة ممارسة الديمقراطية الحقيقية ، وفتح باب المناقشات خاصة أمام الشباب فى جميع المجالات من قضايا التنمية الى قضايا المعركة وما قد ينجم من آثار تصرف البعض عن المعركة نتيجة هذا الانفتاح ، وما يترتب على ذلك من نتائج .. خاصة وقد استغل أعداء المجتمع هذا الانفتاح ذخيرة يمكن أن تفهم فى الحرب النفسية كاستغلال فئة ضئيلة من الطلبة ذوى المول الهدامة ودعوتهم للتظاهر والاعتصام والانتقال بنشاطهم الى خارج الجامعات بقصد إثارة فئات الشعب المختلفة مثلاً حدث يومى ١ ، ٢ يناير سنة ١٩٧٣ .

٤ - مخاطر تهدد وحدة الشعب بإثارة نعرات طائفية واختلاق أسباب لإثارة الحقد بين الطوائف ، وبماذا نغسر مثلاً أن تقريراً أعد فى عام ١٩٧٠ عن حالة فردية جرت فى مدينة الإسكندرية ، ويعاد طبعه فى عام ١٩٧٢ فى لشرات توزع بالبريد لإثارة مشكلة غير قائمة ؟ وإذا بنا بين يوم وليلة نكاد نفقد رءوسنا .. ونوشك أن نعرض لفتنة كان من الممكن أن يستفحل أمرها ، مثل الأحداث المؤسفة التى وقعت فى الخائكة فى الأسبوع الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩٧٢ والتى جبر عنها الأمين الأول للجنة المركزية بأنها « لاتنىء عن وجود الحزازات والاتحاد بين المسلم والمسيحى ، بل لأنها فقط تكشف عن وجود عناصر ليست على مستوى المسئولية القومية ، وغير واعية للهدف الوطنى الاسمى . عناصر أساءت التصرف على أساس أو هام قامت فى أذهانها أو لأسباب لاتصل بالصالح العام أو بالغيرة على الدين من قريب أو بعيد ، .

أسباب قيام الاستعمار والعدو الصهيوني بشأن هذه المخاطر التي تتعرض لها الوحدة الوطنية :

جدير بالذكر أن المخطط الذي أعده أعداؤنا لتفتيت الجبهة الداخلية عن طريق بث التفرة والانقسام بين شعب مصر مستغلا الدين لتحقيق هذا المخطط إنما يرجع في حقيقة الأمر إلى ما يأتي : —

١ — أن العدو قد أصبح يؤرقه صمود هذا الشعب بعد المحنة التي تعرض لها في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأنه يرى أن هذا الصمود يجب أن يتحطم بوسيلة أو بأخرى لأن استمرار هذا الصمود بداية الطريق لتحقيق النصر .

٢ — أن العدو لم يعد أمامه إلا استخدام هذا الأسلوب خاصة وأنه قد استفد كل حيلة في المعركة .. وكل أساليبه في الصراع من أسلحة عسكرية وسياسية واقتصادية .

ولذلك لجأ العدو الصهيوني إلى استخدام أساليب الحرب النفسية علينا لعله أن النصر والمزيمة بيدآن من داخل أي مجتمع .

وعلى الرغم من أن محاولات أعدائنا للنيل من وحدتنا الوطنية قد باءت بالفشل إلا أن العدوان لم ييأس مادام لم يحقق أيا من أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها . ولعل أهم شيء تتحطم عليه أطماع العدو وأساليب حربه النفسية هو الوعي الكامل بهذه الأساليب . والعمل على كشفها في عقر دارها هذا إلى جانب الصمود والتأكيد على ضرورة الوحدة الوطنية كأساس لدعم الجبهة الداخلية في مواجهة التحديات .

الفصل الثاني

مهام وواجبات الشعب

في دعم الوحدة الوطنية

أهمية الالتزام الكامل بالوحدة الوطنية :

إذا كان مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة يحسم الوحدة الوطنية المقدسة ، ويعبر عن إجماع الجماهير بمختلف قواها العاملة على الحركة الدائبة من أجل تحقيق الآمال والمصالح القومية ، فإن كل ادعاء يشكك في هذا المبدأ - من شأنه في النهاية - أن يضعف الوحدة الوطنية ذاتها ، ويهدد قدرة الشعب على خوض المعارك الممرقبة ، تحريرا لأرضه ، ودفاعا عن حرية إرادته وتأمينا لتقدمه .

ولذلك فإن من أخص واجباتنا في هذه المرحلة ، الالتزام الكامل بالوحدة الوطنية . إدراكا منا أنه بفضل الوحدة الوطنية أمكن تحقيق المنجزات الثورية لشعبنا .. إدراكا وثقة أنها ليست فقط ضرورة للحفاظ على تلك المنجزات وتحقيق المزيد منها ، وإنما هي ضمان رئيسي كفلته جماهيرنا في مواثيقها الثورية تحقيقا للتغيير الاجتماعي ، على أساس حل التناقضات بين قوى الشعب العاملة سلبيا بالوسائل الديمقراطية .

إدراكا أن الحرص عليها لا يعني أنها تعسفا أو مصطنعا للبصالح المختلفة لقوى الشعب العاملة ، أو اتخاذها ذريعة لحجب الديمقراطية .. ولكن إدراكا أنها ضرورة حياة لهذا الشعب ، تجنبه الفرقة ، وتكفل حشد قواه الوطنية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو .

إدراكا لذلك كله .. علينا جميعا .. ووحدتنا الوطنية قد وجدناها في الماضي ضرورة عقل ومنطق ، أن لستمسك بها اليوم قوية منيعة ، وهي لحاضرنا ومستقبلنا حياة وبقاء .

مهام وواجبات الشعب في دعم الوحدة الوطنية :

علينا جميعاً ونحن نتحرك بعزم لا نكل محصنة بأمل واع عربي ، وبعد أن كسرت جماهير شعبنا بحركة التصحيح المجيدة الأغلال والقيود التي أطبقها مراكز القوى المندثرة على الطاقات الخلاقة لهذا الشعب العظيم في فكرته وحرية ، علينا ، وقد وعينا درس النكسة عظمت وعبراً ، أن نتحرك في النور بهدى من عقيدتنا بأذلين كل ما وسعته قدرتنا وطاقاتنا لدعم العمل الوطني ولتوحيد الجبهة الداخلية . لجماهير شعبنا وراء قواته المسلحة الباسلة الرابضة على خطوط المواجهة ، المتأهبة لخوض معركة الشرف والمصير . . . علينا أن نعمل من أجل مصر . . . أمناً الخالدة خلود الحياة لكي نستحق الحياة ، وحتى نكون ، وإلا لما استحققتنا .
أن نكون .

ونجمل فيما يلي مهام وواجبات الشعب في دعم الوحدة الوطنية :

أولاً : الحفاظ الدائم على دولة الشعب . . دولة المؤسسات :

جدير بالذكر أنه بعد أن تم إعادة بناء الاتحاد الاشتراكي بالانتخاب الحر من القاعدة إلى القمة . كذا إقامة المؤسسات الدستورية والنفاذية على أساس من الانتخاب الحر بعد تنقية مجتمعنا من مراكز القوى حتى أصبح الشعب بحق هو صاحب السلطة والسيادة والارادة ، صاحب الفضل الأول والآخر ؛ صاحب المصلحة في الثورة الاشتراكية . دولة المؤسسات الشعبية والدستورية دولة الشعب كله ، الشعب فيها أسرة واحدة دولة لا نورث ولا تورث ، ولا تكون حكراً أو احتكاً لشخص أو فئة . لا مكان فيها لسلطان الفرد أو طغيانه .

دولة تتخذ من مؤسساتها سياجاً ، ومن سيادة القانون درعاً تصد مراكز القوى وتمنع ظهورها ، وقاية للشعب من تسلطها وخاية له من تجبرها .

إن دولة الشعب دولة المؤسسات ، انفتح لها الطريق ورسم لها الإطار وما أن أزيلت مراكز القوى عن مواقعها حتى صدر دستورها الدائم ، وقوانينه

المملكة . حماية الجريبات : القائمة ، إلغاء الموانع المتعاقب تهديد القبول .
الطريق التاديب ، تنظيم لمباشرة الحقوق السياسية ، تدعيم مجلس الشعب وفقاً كيداً
لنظامه .

علينا أن نتم البناء بوعي وثقة ، ونعمل في النور ، متخذين من تنظيمنا السياسي
حزباً حراً مفتوحاً ، يعبر بحرية وصدق عن آراء أعضائه قوى التحالف . فيكون
لدولة المؤسسات مكانها الكامل ، ولا تقوم فيها لمراكز القوى قائمة .

ثانياً : تعميق مقومات ومفاهيم مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة :

إن مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة وقد جسده هذا الشعب تنظيم في الاتحاد
الاشتراكي العربي - استقر بديلاً للنظام الحزبي . تعبيراً عن ظروفه الموضوعية
والتاريخية التي تشهد بتضامن هذه القوى وتلاحمها في سبيل خدمة الأمان القومية ،
دون أن تستأثر إحداها عن الأخرى بشرف تحقيق هذه الأمان .

ولما علينا أن نعمق مقومات ومفاهيم مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة كتعبير
عن الوحدة الوطنية في أذهان الجماهير . حتى يظل تحالفاً حقيقياً وواقعياً بين سائر
القوى العاملة ، وليس تحالفاً شكلياً بين أفراد أو جماعات يتخذون منه وسيلة قمع
أو طريقاً لتحقيق مآرب ومصالح غير مشروعة .

ثالثاً : التوعية باستراتيجية إسرائيل ومخططات الولايات المتحدة الأمريكية
إن مرحلة المواجهة الشاملة بأبعادها واحتمالاتها ، وما تتطلبه من أصحاب المصلحة
الحقيقية - بصفة خاصة - من جهد وتضحية . لمن الأهمية بمكان أن يكون لدينا
تجسماً خط فكري عام باستراتيجية إسرائيل ووضوح الرؤية بمخطط الولايات
المتحدة الأمريكية ، بما يستخدمونه من أسلحة الدعايات الصهيونية المسمومة بهدفها
والطرق التي يوجهون بها الحرب النفسية عن طريق إذاعتهم وصحفهم .

وهذا من الضرورات التي يجب أن نكون يقظين دائماً بها ونحن نطعم
في تمررنا الفعال نحو أهدافنا ، وأن لا نغتنص أحياناً على المؤامرات التي تحميكنها
حفظاً للقوى المعادية . وبالدأت الحرب النفسية المكثفة التي تشنها الولايات المتحدة

الأمريكية وإسرائيل: اللئيل من تماسكتنا ، وخلق البلبلة في نفوسنا وزعزعة الثقة في أنفسنا . وبقي عوامل الفرقة والانشقاق بيننا والتشكيك في قدراتنا . فالجبهة الداخلية في مقدمة الأهداف التي يحاول العدو أن يسدد لها الضربات والمسكائد طالما الصراع بيننا وبينه قائم . ولهذا أصبحت وحدة الجبهة الداخلية ضرورة إستراتيجية .

والجبهة الداخلية هي درع الأمة في الحرب المحتومة بيننا وبين إسرائيل وتمزق الجبهة الداخلية هدف أساسي من أهداف إسرائيل وأمريكا ، بل وهدف إستراتيجي لمخطط لإسرائيل في حربها معنا . وتمزق الجبهة الداخلية هو انتصار لإسرائيل ، ولأعدوان إسرائيل .

وإلّا : زيادة الانتاج

وإذا كان العدو قد فشل في زعزعة الجبهة العسكرية ، أو في محاولة التأخير عليها . فإن العدو الآن يركز كل ثقله ويكثف نشاطه على جبهتنا الداخلية للذيل من صلابتها . والنيل من تماسكتها لأنها في الواقع الجبهة الأساسية التي تتلاحم وتخدم جبهة القتال مباشرة وتمد خطوطها بالعتاد والسلاح والرجال وكافة مستلزمات القتال .

كما أنه يتوقف عليها بناء قاعدتنا الاقتصادية في الداخل وهي سند المعركة . وخلق مقومات الصمود الاقتصادي وبناء القوة الذاتية . ومن هنا كانت أهمية وضرورة اتخاذ قرار وضع الجبهة الداخلية في موقف يجعلها قادرة على تحمل كل ما هو مقبل من مخاطر المعركة في العمق .

ومعركتنا مع العدو وانتصارنا عليه لن يكون برفقة السلاح فقط لحماية الجبهة الداخلية ، وزيادة الانتاج في المصانع هو خط الدفاع الأول لتأمين متطلبات المعركة وتأمين متطلبات المجهود الحربي . وكل زيادة في الإنتاج هي عمل على طريق المعركة . وتحسين الإنتاج يتضمن توفير متطلبات القوات المسلحة للمعركة وتوفير احتياجات الجماهير وحل مشاكلهم مع حسن وكفاءة اداء الخدمات لها باخلاص وصدق وأمانة . هو إعداد للمعركة والتسلح بالروح

والمعرفة والملم يوصلنا إلى الارتقاء بمستوى الابتاج . كما وكيفاً .
وكل هذه الأمور والضغوطات حماية للقوى البشرية ، وزيادة صلابة المواطن
وقدرته على الصمود . وكلها أعمال ضرورية وحيوية لوضع الجبهة الداخلية على
مستوى المواجهة الشاملة .

خامسنا : التصدي لأساليب الحرب النفسية التي يشنها العدو على جبهتنا الداخلية

جدير بالذكر أن الحرب النفسية التي توجهها ضدينا أمريكا وإسرائيل لا تقل
ضراوتها وشراستها من أخطار الحرب التي نستعد لحوضها . وتوجه الحرب
النفسية بأساليب مختلفة . بهدف نشر سمومها في الجبهة الداخلية . بما يستخدم فيها
ضدينا من أساليب الرقعة ووسائل الخديعة والتشكيك في القدرات والكفاءات
وعزل القاعدة الشعبية عن القيادة السياسية وخلق جسر من عدم الثقة .

ويتوقف على قدرة كل فرد فينا في العصف بكل محاولات التشكيك واسلحة
الحرب النفسية . نجاحنا في معركة التصدي التي تواجهنا . فالمواطن اليقظ الحذر
الواعي هو درع الجيش على جبهة القتال . وهذا ضمان أكيد للنصر . فالحرب
النفسية موجهة أساساً إلى إرادتنا وإلى أعصابنا ومبادئنا . ويجب أن نكون على
حذر كامل .

والتحدى لأساليب الحرب النفسية واجب وطني . وهذا يتطلب منا الوعي
السكامل واتخاذ كافة الاجراءات لمقاومة دعاية العدو ولتسكن استراتيجيتنا في المرحلة
المقبلة كما حددها الرئيس انور السادات استراتيجية طويلة النفس . إستراتيجية
الصبر والصمت .

فالحرب النفسية ضدينا لن تتوقف وسوف تتخذ أساليب وأشكالا مختلفة
وأهدافا متنوعة . فليكن أبلغ رد على ذلك هو التزام الصمت "سكامل بالنسبة
لثحركتنا النشيط على طريق المعركة ، وما نتخذه من خطوات مقبلة لحزمة تحقيق
أهداف الانتصار . والتذرع بالصبر الواثق من نفسه لزيادة استعداد واستكمال
جميع أسلحتنا ، وبناء قدرتنا على الانتصار حتى تحين لحظة تنفيذ قرار
التحرير والنصر .

الوحدة الوطنية وإزالة آثار العدوان :

نظرا لأن المعركة التي نخوضها مع العدو الاسرائيلي ومن يسانده معركة مصير . . ومعركة ملحة لأن العدو في داخل أراضينا فهي تتطلب منا أن نخوضها مؤمنين بحتميتها ، مضحين في سبيلها بكل شيء : بالعرف والعلم ، وبالمال والبذخ ، بالوقت والجهد المعنى . . والتمتين من رعاية الله لكل ذى حق مشروع ، غير باغ ولا حاد .

ومعركة المصير تتطلب منا : -

١ - التمسك بالوحدة الوطنية إيجابا كما أنها ضرورة حياة لهذا الشعب تجنبه الفرقة وتكفل حشد قواه الوطنية في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل المواجهة مع العدو . كما ان الوحدة الوطنية على حد تعبير الرئيس محمد أنور السادات ، تمثل واقعا فعليا في العلاقات القائمة بين الجماعات الإسلامية والمسيحية ، وهي سمة أصيلة من سمات مجتمعتنا المصرية وهي التي استطاعت أن تقضي على الفتن التي كان الاستعمار يشيورها من وقت لآخر أملا في تفنيت وحدتنا ولكن فشل وسيظل يفشل في ذلك كل مرة وسيظل يفشل دائما بفضل تماسكنا ووحدتنا (١) .

٢ - التوعية بالمرحلة الراهنة باعتبارها نقطة ارتكاز في الانطلاقة الجديدة للعمل السيامي وحتى تكون جماهير شعبنا على وعي كامل لواقع حاضرا وظروف المرحلة التي تمر بها وخصائصها حتى تجيء حركة نضالنا الوطني - دائما - متفاعلة مع ذلك الواقع ، وهذه الظروف والخصائص ، مهتدية بكل الأبعاد والمتطلبات .

٣ - بلذ مزيد من الجهد في العمل والتفاني في الانتاج حرصا على زيادة وتنمية الاقتصاد القوي - مع الالتزام بسلوك المعركة سواء في الانتاج أو في الاستهلاك لتحقيق مبدأ اقتصاديات الحرب .

٤ - الاشتراك في التدريب على أعمال الدفاع الشعبي والدفاع المدني وكذا

١ - من رساله الرئيس محمد أنور السادات التي وجهها بمناسبة الاحتفال بيوم - له الاجتهادى في ١١/٣٠/١٩٧٢ .

يفرق الاسماء والاعتقاد بفرق الإلقاء والملكاني المساهمة في المعركة ولتدعيم
جبهة الدفاع الداخلية

٥ — هدف: الإنتاج إلى القدرات المفرحة أو الاداعات المضمومة والقضاء
على الحملات التشكيك أو ساليب العدو في الحرب النفسية .
٦ — التوسيع أو اعاقبة عملية التنمية والإنتاج .
٧ — العمل الإيجابي في جميع المجالات . وتطهير أنفسنا من اللامبالاة والسلبية
وأن تعود العمل بروح الفريق وأن تموت في ذواتنا النزعة الفردية .

٨ — تثبيت يقيننا ودعم إيماننا بالله سبحانه وتعالى وبفضائه وقدره
وثقتنا في نصر الله .

الوحدة الوطنية والقومية العربية دعامة التحرير الرئيسية :

وإذا كانت أحداث صيف ١٩٦٧ قد أدت إلى هزيمة عسكرية بدلاً من
النصر الذي كان من المرجح تحقيقه ، فإن الهزيمة لم تؤد كما سبق القول إلى استسلام
الشعوب العربية بل على العكس من ذلك لقد عادت القضية القومية والوطنية
لتصبح هي القضية الأولى التي تواجه الشعوب العربية ، لقد أدت الهزيمة إلى احتلال
الأراضي العربية سواء في ذلك أراضي الدول العربية المتحررة في مصر وسوريا
أو الضفة الغربية للأردن واشتدت حلاقة العدو الاسرائيلي واتخذ موقفا صريحا
يعلن فيه ضرورة فرض الصلح على العرب وضرورة قبولهم بوجود إسرائيل
دولة ذات سيطره في المنطقة ، وفي هذه الظروف فإن الواجب الاساسي الملقى
على حركة الثورة العربية هو تحرير الأرض المحتلة وتحقيق السيادة الوطنية
والقومية على أراضي الوطن العربي .

إن تحقيق ذلك يتطلب العمل من أجل :

- (١) حشد كل القوى العربية الممكنة أولاً لتحقيق صمود الشعب العربي وثانياً
لإتمام الاستعدادات اللازمة لمواجهة العدو وحصره .
- (ب) التركيز على العدو الرئيسي الذي يحتل الأرض العربية وعدم الانخراط

في أى معارك جانبية سواء في إطار العالم العربي أو خارج هذا الإطار .
(ج) الاستفادة من أى تناقض مهما بلغت بساطته بين مصالح القوى المضادة
للثورة العربية ومحاولة استخدام هذا التناقض لصالح الثورة العربية .
(د) التحالف الوثيق والفعال مع كل القوى المؤيدة لأهداف النضال العربي.
مع العمل على توضيح الأهداف العربية لها وتنسيق العمل معها في كل المجالات .
(هـ) العمل على توضيح حقيقة النضال العربي لكل القوى العالمية المضادة
للاستعمار ولإعادة كسب الرأى العام العالمى الذى استطاع العدو تعظيمه .
إن تطبيق هذه المبادئ العامة في العالم العربي كانت تعنى :

(أ) السعى إلى تصفية كل النزاعات العربية ومحاولة توجيه كل القوى
العربية لمواجهة العدو الاسرائيل .

(ب) السعى لالزام كل حكومة عربية بما يمكن أن تلزم به من عمل لصالح
المواجهة مع اسرائيل . ومن أجل العمل المشترك في كل المجالات ، ويتوقف
النجاح في هذا السعى بطبيعة الحال على مدى قوة حركة الشعب العربي في كل بلد
على حدة ومدى تأثير الحكومات العربية باتجاهات شعوبها .

(ج) تجنب الانزلاق في خلافات عربية جديدة ، حتى لمواجهة هجوم بعض
القوى الرجعية العربية أو رد افتراءاتها باعتبار هذه السياسة هي الكفيلة بكشف
محاولات القوى المضادة لحرف مسار العمل الوطنى والقوى وتوجيهه إلى
دروب جانبية .

وفي دعوة الرئيس معمر القذافي إلى قومية الحركة ما يؤكد المشاركة الفعالة
لالتزام عدد من بعض الدول العربية بدعم الدول التي تواجه عبء الحركة فعلا
بما أتاح لها إمكانية الصمود الاقتصادى ومكنتها بالتالى من العمل المستمر لإعادة
بناء القوة العسكرية .

وخلاصة القول أن العمل من أجل مزيد من الجهد العربى المشترك يعنى أن
الواجب الأول اليوم هو تحرير الأرض المحتلة وكما قال الرئيس أنور السادات :
« علينا جميعا أن نؤكد الاعداء جميعا : أن الوطنية المصرية والقومية العربية
وحدهما في الميدان إذا اقتضى الأمر » .

الفصل الثالث

المؤسسات السياسية والجهوية

وحدة الوحدة الوطنية

إن حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن وواجب المؤسسات الدستورية والسياسية ، وأن هذه الحماية عمل سياسي بالدرجة الأولى .

ولهذا كان دستورنا الجديد أول دستور مصري ينص صراحة على الوحدة الوطنية وواجب حمايتها (١) ، كما تناول قانون حماية الوحدة الوطنية الذي انعقد مجلس الشعب لمناقشته في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ في المادة الأولى منه أن حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن ، وعلى جميع مؤسسات الدولة والمنظمات الجماهيرية العمل على دعمها وصيانتها .

هذا إلى جانب مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة كتمثيل عن الوحدة الوطنية جاءت محددة لدور الاتحاد الاشتراكي العربي ومقررة أن التنظيم السياسي الذي يمثل بتنظيماته القائمة على أساس مبدأ الديمقراطية ، تحالف قوى الشعب العاملة من الفلاحين والعاملين والجنود والمثقفين والأسمالية الوطنية ، وهو أداة هذا التحالف في تعميق قيم الديمقراطية والاشتراكية وفي متابعة العمل الوطني في مختلف مجالاته ، ودفع هذا العمل الوطني إلى أهدافه المرسومة ، يؤكد الاتحاد الاشتراكي العربي سلطة تحالف قوى الشعب العاملة عن طريق العمل السياسي الذي تباشره تنظيماته وسط الجماهير وفي مختلف الأجهزة التي تعطلع بمسؤوليات العمل الوطني .

ونتناول فيما يلي دور القيادة السياسية في إبراز أهمية الوحدة الوطنية والحفاظ عليها — كذا دور المؤسسات الدستورية والسياسية لصيانتها .

(١) أنظر دستور جمهورية مصر العربية ١٩٧١ .

الزعيم جمال عبد الناصر والوحدة الوطنية :

لم تكن هناك قضية أكثر أهمية لدى عبد الناصر في تاريخه الكفاحي الطويل قدر قضية الوحدة الوطنية . فهي في فكره الأساس الذي يمكن أن يستند إليه نجاح شعبنا في الوصول إلى أهدافه ، وهي وحدها المانع دون تدخل القوى الخارجية واستغلالها لطبيعة فترة الثورة ، فترة المعاناة من أجل القضاء على القديم البالي وخلق الجديد القادر على النمو والتقدم والاستمرار ، ومن هنا كان حرص عبد الناصر الدائم على تحقيق هذه الوحدة ، لابتداء من يوم إعلان ثورة ١٩٥٢ حتى يوم أن توارى عنا ، وهو يحاول المحافظة على وحدة الأمة العربية في مواجهة الخطر الدائم الذي يهددها والنزيف الدموي الذي يستنزف قواها .

ولم تكن فكرة الوحدة الوطنية لدى عبد الناصر فكرة مجردة ولا هي قضية منفصلة عن طبيعة الحركة التي يجتازها فالوحدة الوطنية التي كانت دائما هي وحدة هذه القوى الاجتماعية والفئات والطبقات صاحبة المصلحة في تحقيق الهدف الذي تتجه الحركة في المرحلة المعينة إلى تحقيقه .

ويوضح عبد الناصر هذه الفكرة بما لا يحتمل مجالا للجدل عند تناوله القضية من هو الشعب ، وما هي القوى التي يجب أن يتم تحقيق الوحدة الوطنية بينها في خطابه إلى اللجنة التحضيرية للمؤتمر القوي للقوى الشعبية ، مشيرا إلى أن في مرحلة الكفاح ضد الاستعمار - فإن الشعب هو كل من يقف ضد الاستعمار من أجل الاستقلال ومن أجل الحرية والشعب هو كل واحد وقف من أجل تحقيق المبدأ الأول للثورة ، أما في مرحلة البناء الاشتراكي فالشعب يشمل جميع الطبقات التي تساند البناء الاشتراكي وتساهم فيه ، وأثر عدوان إسرائيل واحتلالها لجزء من الأرض العربية تعود مرة أخرى قضية الوحدة الوطنية إلى البروز بين كل القوى التي تقف في وجه العدوان الاستعماري وتعمل على دحره ، ولكن تجميع هذه القوى في المجتمع الاشتراكي يتم كما يوضح بيان ٣٠ مارس بواسطة تحالف قوى الشعب العاملة التي تتولى السلطة وتحفظ بها وتحافظ على مكاسبها ، وتقوى بالديمقراطية وبالطور العلمي مجتمعا ،

وتتضح أهمية الوحدة الوطنية من أقواله الزعيم جمال عبد الناصر (١) :
« إنه يمكن في إطار الوحدة الوطنية أن تتفعل الطاقات بما يقرب بينها ، وأن يقل التناقض بطريقة سليمة لامصادرة فيها ولاسفلك دماء ، وأن يتم الاتجاه إلى الاستقرار الوطني القائم على العنيد الاجتماعي بوجي من الوعي المدرك لمعنى التضامن ومعنى التكافل الاجتماعي ، ومعنى المحبة بين الناس ، وفي داخل هذا الإطار يمكن أن تصبح الديمقراطية معنى كما هي شعار ، ويمكن أن تصبح الاشتراكية حقيقة كما هي أمل ويمكن أن يصبح التعاون واقعاً كما هو هدف .
كما تتضح السياسة التي يحرص عليها الزعيم جمال عبد الناصر في تدعيم الوحدة الوطنية من خطابه الذي ألقاه في مناسبة الاحتفال بإرساء الحجر الأساس للكاتدرائية المرقسية في ٢٢ يوليو ١٩٦٥ إذ يقول :

« وكنا نعتقد دائماً أن السبيل الوحيد لتأمين الوحدة الوطنية هو المساواة ونكافؤ الفرص . . لافرق بين مواطن ومواطن في المدارس . . الدخول بالجموع . . مفيش تمييز بين مسلم ومسيحي ، اللي بييجيب النمر بيدخل . . يدخلوا (٣٠) مسيحيين ، (٥٠) مسيحيين مش موضوعنا أبدأ بيدخلوا كلهم مسلمين ، يدخلوا كلهم مسيحيين مش موضوعنا أبدأ . . التمييزات في الحكومة وفي القضاء بالأقدمية ، اللي بييجيب نمرة أحسن بروح القضاء . . في كل الوظائف تسير على هذا المنوال في الترقى ، جميع الترقيات في الدولة بالأقدمية لغاية الدرجة الأولى . . كل واحد بياخد دوره . . مافيش فرصة حتى للمتخمين لأنهم يتلاعبوا . . لكن لابد أن نجد أماننا مشا كل وعقبات .

.. هذه المشا كل والعقبات في فئة المتخمين ، سواء كانوا مسيحيين أو كانوا مسلمين .. يخلقوا مشا كل وكنا بنعرف الخناقات اللي بتحصل في بعض القرى .. ولكن الحمد لله هذه الحوادث حوادث قليلة جداً . . ونرجو ألا ينمكس صدى هذه الحوادث القليلة علينا وتأخذها كمثل عام ، إحنا علينا واجب .. إذا وجدنا

(١) من خطاب الزعيم جمال عبد الناصر في جلسة إنذاح المؤتمر الأول للاتحاد القومي في الفترة من ٩ - ١٦ يوليو ١٩٦٥ .

المتعصبين مسلمين وشاذين . . المسيحيون ما يشذوش . . وإذا وجدنا المسيحيين
متعصبين وشاذين . . فإن المسلمين ما يشذوش . . وأنا باعتبار دى قضية وطنية ،
وقضية بناء المجتمع . . العقلاء يستطيعون أن يحلوا هذه المشا كل الصغيرة اللى
يتظفر كل عدة أشهر فى مكان ناء أو قرية صغيرة أو أى مكان من الامكنة .
نحن نفخر والحمد لله بأن بلدنا ليست فيها طائفية أو تعصب أو انقسام . اللى
بتكلم عليه حوادث فردية صغيرة ، ولكن زى مانقول : إحنا عايزين السكال ،
وعلشان كده أنا بتكلم عليه بوضوح وبصراحة . عايزين السكال ، وعاوزين
الوحدة الوطنية اللى بنيت بالدم سنة ١٩١٩ وقبل سنة ١٩١٩ . تندعم وتقوى ،
عاوزين كل واحد فى بلدنا يثق بنفسه ويثق أن البلد بلده ، بلد المسلم وبلد
المسيحى ١٠٠٪ كل واحد فينا ، وكل واحد منا له الفرصة المتساوية المتكافئة .
الدولة لانتظر إلى الدين ، والمجتمع لانتظر إلى الدين ، ولا ينظر إلى الآب ،
ولا ينظر إلى الأصل ولكن ينظر إلى العمل وإلى الجهد وإلى الإنتاج وإلى
الأخلاق ، وبهذا نبني فعلا المجتمع الذى نادت به الأديان السماوية التى نص الميثاق
على احترامها .

الرئيس محمد أنور السادات والوحدة الوطنية :

عند ما تعرضت الوحدة الوطنية لحملات التشكيك من جانب أعدائنا للوقمية
بين المسلمين والأقباط . أعلن الرئيس محمد أنور السادات أمام اللجنة المركزية
لتخصيص الدورة الثانية لانعقاد المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى
فى الفترة من ٢٤ يوليو منذ ١٩٧٢ إلى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٢ لموضوع الوحدة
الوطنية .

ولقد كشف السيد الرئيس محمد أنور السادات فى خطابه للمؤتمر ، حملات
التشكيك التى يقوم بها أعداؤنا بغرض زعزعة الوحدة الوطنية ، كما أكد سيادته
على أهمية الوحدة الوطنية باعتبارها « دعامة التحرير الرئيسية » حيث قال :
« الوحدة الوطنية الآن وأكثر من أى وقت مضى تصبح الجبهة الداخلية هى
دعامة التحرر الرئيسية ، لأن الوطنية المصرية سوف تصبح أداة التحرر الرئيسى »

وإن الوطنية المصرية ، والقومية العربية . وحدهما في الميدان إذا اقتضى الأمر . . إن ذلك يفرض علينا . منهاجاً منظماً للعمل . . الوطنية المصرية وحياتها بالوحدة الوطنية ، (١) .

كما يؤكد سياسته على أن الوحدة الوطنية تزداد عمقاً بالحوار ، ولا تضيق به ، وعليه أن تعرف أن التحول الاشتراكي يزداد رسوخاً بالانفتاح على الدنيا ، وليس بالانغلاق على النفس ، وسيادة القانون ، وليس بقيود على الحرية ، (٢) . ومن أجل صيانة الوحدة الوطنية دعا سيادته مجلس الشعب لدورة طارئة في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ لتشريع قانون لحماية الوحدة الوطنية . كما طلب من مجلس الشعب في ١٣ / ١١ / ١٩٧٢ تشكيل لجنة برلمانية للتحقيق في بعض المحاولات التي جرت أخيراً لافتنال قننة طائفية ، في الخائسكة ، بهدف توجيه ضربة إلى الوحدة الوطنية المصرية .

ومن أجل حماية الوحدة الوطنية كذلك عكف سيادته على دراسة تقرير لجنة مجلس الشعب لوضع الإجراءات الكفيلة بالمحافظة على الوحدة الوطنية ، بحكم المسؤولية الدستورية والسياسية ومقتضيات المصلحة الوطنية العليا ، ثم كانت زيارة الرئيس محمد أنور السادات يوم ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٢ إلى الأزهر الشريف والبطريركية القبطية . ثم كان خطابه التاريخي أمام مجلس الشعب في ١٢ / ٢٨ / ١٩٧٢ جعلنا الثقة الكاملة من حسن وعى وتقدير الجميع للظروف التي تمارس فيها مصالحنا ، وفي الضرورة القصوى والحيوية لوحدة الأمة . . فلا حرب بغير الوحدة الوطنية ولا سلم بدونها . . فقواتنا المسلحة لا يمكن أن تؤدي دورها إلا إذا كانت هناك — قبل السلاح — جبهة داخلية متماسكة وصلبة تؤمن بهدفها . . وتعرف طريقها لتحقيقه مهما كانت التكاليف . . إن الوحدة الوطنية

(١) من خطاب الرئيس محمد أنور السادات في الدورة الثانية للمؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي من ٢٤ - ٢٦ / ٧ / ١٩٧٢ .

(٢) من خطاب الرئيس محمد أنور السادات في المؤتمر القومي العام الثاني الدورة الخاصة فبراير سنة ١٩٧٣ .

هي الدعامة الوحيدة للجبهة الداخلية المتجانسة والصلبة . . . وهنا وبدءاً من الآن
أرفع صوتي لأقول بوضوح أنني لن أسكت . . . ولن تسمحوا . . . وإن يسمح
شعبنا بنزعة طائفية من أي شخص ومن أي مصدر ولاي سبب ؛ ثم لاني أيضاً
لن أسكت . . . ولن تسمحوا ، ولن يسمح شعبنا باستقطاب يمزق قوى الوطن
— خصوصاً بين الشباب — بدعوى اليسار المغامر أو اليمين الرجعي . .

الدستور الدائم والوحدة الوطنية :

جدير بالذكر أن الدستور المصري لم — يعرف منذ أول دستور حديث
لمصر صدر عام ١٩٢٣ حتى دستورنا الحالي — كلمتي مسلم وقبطي . . ولا يعرف
إلا كلمة مصري .

ويعتبر الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية ، أول دستور مصري ينص
صراحة على الوحدة الوطنية ، وواجب حمايتها ، جاء في المادة الثالثة منه (١)
« أن السيادة للشعب وحده — وهو مصدر السلطات ، ويحمي الشعب هذه
السيادة ، ويصون الوحدة الوطنية ، وتسكون ممارسة الشعب للسيادة عن طريق
الاستفتاء الشعبي ، وعن طريق ممثلين عل الوجه المبين في الدستور . .

توصيات المؤتمر القوي العام للاتحاد الاشتراكي العربي عن الوحدة الوطنية :

وقد شملت توصيات المؤتمر القوي العام للاتحاد الاشتراكي العربي الفترة
من ٢٣ يوليو ١٩٧٢ إلى ٢٦ يوليو ١٩٧٢ الوحدة الوطنية وفيما يلي ما جاء
بتوصيات المؤتمر في هذا الصدد :

« يرى المؤتمر أنه إذا كانت الوحدة الوطنية فيما مضى من مراحل كفاحنا أمراً
ضرورياً ولازماً فإنها خلال هذه المرحلة الجديدة قد صارت ضرورة وجود
وحياة والتفريط فيها أو التهاون في تدعيمها مغامرة يهيم العمل الوطني كله . .

(١) انظر دستور جمهورية مصر العربية ، دائم الصادر عام ١٩٧١ .

ويؤكد المؤتمر على أن مصر كانت دائماً وطناً للمصريين جميعاً ، أن أوضاع هذا الوطن واحدة وأن سماءه واحدة وإن شعبه شعب واحد .

ويؤكد المؤتمر لإيمانه بأن تحالف قوى الشعب العاملة هو الصيغة الملائمة لضمان الوحدة الوطنية ودعمها ومن ثم فإن الاتحاد الاشتراكي بقواعده ومختلف مبادئه التنظيمية يقع عليه واجب الانفتاح والتفاعل الدائم مع الجماهير ممبراً من أقاليمها وحلقاتها ووحدتها .

ويقدر المؤتمر أهمية تحقيق وحدة العمل بين مؤسسات الدولة المختلفة دون تضارب حتى تتجه الجهود إلى القضايا الكبرى المصرية التي يواجهها هذا الشعب وفي إطار الالتزام الكامل بالمبادئ الأساسية التي أعلنتها حركة التصحيح في مايو سنة ١٩٧١ من تأكيد الحرية الفرد وتدريب الممارسة الديمقراطية من خلال المؤسسات وتحقيق لسيادة القانون ، فإن المؤتمر مراعاة منه للمرحلة الدقيقة التي يجتازها نضالنا يوصي كافة الأجهزة الشعبية والتنفيذية والتشريعية أن تبذل كل جهدها من أجل دعم وصيانة الوحدة الوطنية والحيلولة دون المساس بها كما يضع كل ما ورد في أعمال هذا المؤتمر حول أهمية تلك الوحدة بأبعادها المختلفة تحت نظر مجلس الشعب حتى يستخلص منه ما يلزم لحماية وحدة الشعب المصري وتماسك صفوفه تصدياً لكل من يفرق وحدته أو يبتك الفرقة والانقسام بين أبنائه .

مجلس الشعب وقانون حماية الوحدة الوطنية :

وتلبية لنداء السيد رئيس الجمهورية لدعوة مجلس الشعب لدورة طارئة لتشريع قانون حماية الوحدة الوطنية - اجتمع المجلس في ١٥ أغسطس سنة ١٩٧٢ وبعد مناقشة المشروع من أعضاء المجلس والمواقفة عليه - صدر القانون رقم

٣٤ لسنة ١٩٧٢ في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٧٢ بشأن حماية الوحدة الوطنية وفيما يلي
نصوص مواد هذا القانون :

المادة الأولى :

حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن ، وعلى جميع مؤسسات الدولة
والمنظمات الجماهيرية العمل على دعمها وصيانتها ، ويقصد بالوحدة الوطنية في
تطبيق أحكام هذا القانون الوحدة القائمة على احترام نظام الدولة كما حددها
الدستور على وجه الخصوص :

(أ) تحالف قوى الشعب العاملة .

(ب) تكافؤ الفرص والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات العامة .

(ج) حرية العقيدة وحرية الرأي بما لا يمس حريات الآخرين أو المقومات
الأساسية للمجتمع .

(د) سيادة القانون .

وتقوم الوحدة الوطنية على أساس إعطاء الأولوية دائما لأهداف النضال
الوطني التحرري وعلى أفضلية المصالح القومية الشاملة على المصالح الخاصة لكل قوة
أو طائفة أو فئة اجتماعية .

المادة الثانية :

الاتحاد الاشتراكي العربي هو التنظيم السياسي الوحيد المبرر عن تحالف قوى
الشعب العاملة ، وهو يكفل أوسع مدى للمنافسة الحرة داخل تشكيلاته ،
والتنظيمات الجماهيرية المرتبطة .

ولا يجوز إنشاء تنظيمات سياسية خارج الاتحاد الاشتراكي العربي أو منظمات
جماهيرية أخرى . خارج المنظمات الجماهيرية التي تشكل طبقا للقانون .

المادة الثالثة :

يعاقب بالحبس كل من أنشأ أو نظم أو أدار جمعية أو هيئة أو منظمة أو جماعة
على خلاف حكم المادة السابقة .

وعقوب بالخطيب مبدية بالتميز لكل من ينضم إلى إحدى هذه الجمعيات أو الهيئات أو المنظمات أو الجماعات أو اشترك فيها . . .

ويسمى من العقوبة كل من يادر بإبلاغ السلطات المختصة عن وجود جمعيات أو هيئات أو منظمات أو جماعات منشأة على خلاف ما تقدم ، إذاتم الإبلاغ قبل التحقيق ، ويجوز للحكمة الإعفاء من العقوبة إذاتم الإبلاغ بعد بدء التحقيق . ويمكن من الكشف عن مرتكبي الجريمة الآخرين .

وتقتضى المحكمة في جميع الأحوال عند الحكم بالإدانة بجل الجمعيات أو الهيئات أو المنظمات أو الجماعات المذكورة وإغلاق أمكتها ومصادرة الأموال والأمتعة والأدوات والأوراق الخاصة بها أو المعدة لاستعمالها .

المادة الرابعة :

يعاقب بالحبس كل من عرض الوحدة الوطنية للخطر بأن لجأ إلى العنف أو التهديد أو أية وسيلة أخرى غير مشروعة لمناهضة السياسة العامة المعلنة للدولة أو للتأثير على مؤسساتها السياسية والستورية في اتخاذ قرار بشأنها .

المادة الخامسة :

د يعاقب بالحبس وبغرامة لا تقل عن خمسين جنياً ولا تجاوز مائتي جنيه كل من أذاع عمداً أخباراً أو بيانات أو إشاعات كاذبة معرضة ، وكان من شأن ذلك الاضرار بالوحدة الوطنية بين قوى تحالف الشعب أو بين طوائفه .

وتكون العقوبة السجن وغرامة لا تقل عن مائة جنيه ، ولا تجاوز خمسمائة جنيه إذا وقعت الجريمة في زمن الحرب .

فإذا اتخذت هذه الإذاعة صورة دعاية مثيرة موجبة للعسكريين في زمن الحرب كانت العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة .

المادة السادسة :

يعاقب بالحبس كل من حرض بإحدى وسائل العلانية المنصوص عليها في المادة ١٧ عقوبات على بعض فئة من فئات قوى التحالف أو طائفة من الناس

أو على الإزدراء بها أو إثارة الفتنة بينها ، إذا كان من شأن هذا التحريض الإضرار بالوحدة الوطنية .

المادة السابعة :

تكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة أو السجن إذا ارتكبت الجرائم المبينة بالمواد ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ من هذا القانون بناء على تخابر مع دولة أجنبية .
تكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة إذا ارتكبت بناء على تخابر مع دولة معادية .

المادة الثامنة :

لا تخل أحكام هذا القانون بأية عقوبة أشد . منصوص عليها في قانون العقوبات أو أى قانون آخر .

المادة التاسعة :

لا ترفع الدعوى الجنائية في الجرائم المنصوص عليها في هذا القانون إلا بناء على طلب كتابي من وزير العدل .
ويجوز النيابة العامة إحالة الجرائم المنصوص عليها في هذا القانون إلى عاكم أمن الدولة المختصة .

المادة العاشرة ،

ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ نشره في ١٢/٩/١٩٧٢ ويصمم هذا القانون بخاتم الدولة ، وينفذ كقانون من قوانينها .

الوحدة الوطنية والهيئات الديلية :

وبمجرد أن تعرضت جمهورية مصر العربية لمحاولات التشكيك من جانب الدوائر الاستعمارية والصهيونية ضد الجبهة الداخلية ، حيث ضبطلت الرقابة على البريد الوارد من الخارج عددا من الخطابات الصادرة من الولايات المتحدة الأمريكية والمرسلة إلى عدد من الموظفين تهدف إلى إثارة الفرقة بين طوائف الأمة ، وقد سندت

نسخ من هذه الخطابات التي تتضمن المشورات إلى كل من فضيلة شيخ الجامع الأزهر وقدااسة البابا شنودة فاستكروا ما جاء بها وفيما يلي بيان فضيلة شيخ الجامع الأزهر وقدااسة البابا شنودة (١) :

بيان شيخ الأزهر :

وفي ذكرى مرور عشرين عاما على ثورتنا المجيدة ، عشرين عاما مضت على قيام ثورتنا المباركة التي أرست قواعد الحرية والمدالة الاجتماعية ، وكفلت الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن مصري ، وحررت البلاد من الاستعمار ، فأمنت الخائف وبعثت الأمل وأحيت الرجاء ، ويسعدني ويسرني بهذه المناسبة الكريمة أن أهني الشعب المصري جميعه بزعامة رئيسه المحبوب من كل قلب ، الممدوح بكل لسان ، رمز حريته ومعتقد آماله ، وجامع وحدته محمد أنور السادات المؤمن الرشيد .

وأرجو الله تعالى غلظا أن يقوى روح الوحدة بين أفراد شعبنا الحر الاصيل في جميع عناصره .

أيها الشعب المصري : أرجو ألا يشغلنا شاغل عن معركة المصير وأن تنبهنا إلى ما يريد أعداؤنا من الإيقاع بين مصري الأمة ، من إشاعات كاذبة تبث الفرق بين عنصرينا . والتاريخ يحدثنا أن اشتداد الأزمة يجمع دائما بين المسلمين والمسيحيين ، كاحد في ثورة ١٩١٩ ومعركة ١٩٥٦ ولم لا ، والكل يعيش في وطن واحد آمالهم واحدة وآلامهم واحدة وعدوهم واحد ، وصديقهم واحد وكلهم أمام الدولة سواء في الحقوق والواجبات .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، والله ناصرتنا وموفقنا وهو نعم المولى ونعم النصير .

بيان البابا شنودة :

وقد أصدر البابا شنودة البيان التالي :

(١) بمر البيان بجمهورية الأخبار يوم ١٩٧٢/٧/٢٥ .

• في العيد العشرين لثورتنا المجيدة يسرق أن أهنتكم يامواطني الأجاء لهذا العيد المشرق بين أحياد مصرنا المحبوبة . مصر التي نحب كل ذرة من تراب أرضها . والتي قال عنها الله في التوراة : بارك شعب مصر . مصر التي وطئت أرضها أقدام الأنبياء والقديسين . فعاش فيها يوسف الصديق غالية حياته ومات في أرضها المباركة كما عاش فيها موسى النبي أكثر من ٤٠ سنة من عمره وزارها أيضاً إبراهيم أبو الأنبياء وزارتها كذلك العذراء مريم تحمل على كتفها السيد المسيح وهو طفل هاوية به من سيف اليهود .

نعم إن مضر المحبوبة هذه التي تخضبت أرضها بدماء شهدائنا . ارتوت من دموع وعرق القديسين ، مصر هذه كلما شعرنا بضغط الأعداء عليها تألف قلوبنا جميعاً حولها متحدين في الدفاع عنها شاعرين أن كل انقسام بهذا الوطن هو خيانة لبلادنا التي تنتظر منا التضافر والتآخي وأن نكون قلباً واحداً وروحاً واحدة وفكرًا واحداً نحمي أرضنا وأولادنا وبلادنا وثورتنا وما كسبناه من جهاد طويل .

لذلك بكل فرح واطمئنان وبكل ثقة وتقدير قابلنا الاهتمام الكبير الذي أظهره رئيسنا المحبوب للوحدة الوطنية .

• إن الوحدة الوطنية في مصر وبخاصة بين عنصرى الأمة من مسلمين ومسيحيين . هى ضرورة من ضروريات الوطن ونتيجة طبيعية لروح الدين الذى تتصف به مصر . وكل الحركات الوطنية فى تاريخنا كانت تقضى على روح التعصب الذى يظهر أحياناً من غير المتدينين ، وهنا ينبغى أن نفرق تفريقاً كبيراً بين التمسك بالدين والتعصب الدينى .

لأنه التمسك بالدين فضيلة والغيرة الدينية فضيلة ، ولكن التعصب الدينى شر عظيم . لأنه من الرذائل التى تحاول أن تلبس ثوب الفضيلة ، سينكشف أمرها . ذلك أن التعصب الدينى يخلو من المحبة والمحبة هى عماد الدين وهى الفضيلة الأولى .

ولقد قال الكتاب المقدس : « الله محبة » والشخص المتدين حقاً هو الذى يحب جميع الناس مهما اختلفوا عنه ديناً أو مذهباً . والتعصب الدينى يتصف بالعنف والعنف

منفر : أما الرجل المتدين فإنه يعامل الناس جميعاً بمساحة . ولين ولطف يجعل
الإنجليز يهينون دينه الذي يفرس فيه . فضائل المحبة محمودة .

ولقد عاش المسلمون نصليين وبسيحيين من ١٣ قرناً من الزمان في وحدته
تاريخية مختلفة . بينهم طوائف تلك القرون ، وكل الانقسامات التي كانت تحدث بينهم
إيماناً كانت كالفقايق البسيطة التي ما أن تظهر حتى تختفي ويبقى الخبز
في العمق .

انني سأحاول أن أضرب أمثلة من الساحة الدينية في تاريخ الإسلام وتاريخ
مصر أذكر أولاً تلك الحادثة التاريخية التي تروى عن عمر بن الخطاب عندما فتح
المسلمون بيت المقدس ووصل عمر إلى هناك رأى كنيسة للسيحيين ودعا أسقفها
أن يدخلها ويصلي فتفكر عمر بعقله الكبير واعتذر عن ذلك قائلاً : الأسقف
في مودة : أخشى إن سجدت في هذه الكنيسة أن يأخذ المسلمون ويأخذوها منك .
قائلين هنا سجد عمر . وهكذا ضرب هذا الخليفة العادل مثلاً من أمثلة الساحة
الدينية يدرسه المسلمون جيلاً بعد جيل وتركوا تلك الحادثة أثراً عميقاً في نفس
الأسقف فأحب عمر .

مثل آخر هو عمرو بن العاص الذي عندما فتح مصر وكانت وقت ذاك تحت
حكم الرومان . استدعى البابا بنيامين الذي اضطلعه الروم وأعاد إليه جميع
الكنائس التي كانوا قد اغتصبوها منه بل أكثر من ذلك منحه عشرة آلاف دينار
ليبنى بها كنيسة في الاسكندرية وأحب عمر والبابا بنيامين وعامل المسيحيين برفق
ذاكراً عبارة خالدة وردت في الحديث تقول (استوصوا بالقبط خيراً) .

ونحن نذكر أيضاً أنه خلال العصر الفاطمي كان الخلفاء الفاطميون وبخاصة
في النصف الأول من جيلهم يعينون وزراءهم من بين المسيحيين ثقة منهم بهم
واخلاصاً من أولئك وكانت بعض أعياد الأقباط لها صفة وطنية عامة .
وما أكثر الأمثلة في التاريخ عن الصداقات العميقة التي كانت تربط بين ولائ
المسلمين وبطارقة الأقباط . كل ذلك كان ينسج خيوطاً ثابتة في الوحدة بين
المسلمين والمسيحيين .

وفي تاريخنا الحديث لا نغنى العبارات الجميلة التي نظمها خطبة الزعيم جمال عبد الناصر الذي ضرب على يد التعصب عمليا حينما أرمى بيده الكريمة الحجر الأساسى للكتدرائية المرقسية الكبرى وتبرع لبنائها بمبلغ كبير .

والذى يدير عقرب الساعة بضع سنوات خلعت حينما جرفه السيل مدينة قنا نجد أن المطران التبطى فتح أبواب المطرانية لإيواء السكل مسليين ومسيحيين طوال فترة السيل .

لأنى كلما استعرضت تاريخنا أتمنى أن وحدتنا الوطنية أعقب بكثير من أن تهزها حركات لا شك أن العدو يديرها من الخارج ويفرح ان أنت بشمرة وحائبا لنا أن نغكنه من ذلك .

فلنكن جميعا يدا واحدة تعمل من أجل مصر وقلبا واحدا ينبض بحب مصر ونطلب من أجل قادة بلادنا أن يلهمهم الرب القوة والحكمة ونطلب أيضا من أجل قواتنا المسلحة أن ينصرها الله من عنده ولكم جميعا خالص محبتنا . المحبة الراسخة القوية التي دعاها إليها الإله الواحد الذى نعبد جميعا .

الوحدة الوطنية والنقابات المهنية :

وعندما جرى أخيرا افتعال فتنة طائفية في مفر جمعية أصدقاء الكتاب المقدس بالخانكة - حيث احترق فيه سقف غرفة في مقر الجمعية بغرض إثارة الاقباط والمسلمين بغية النيل من الوحدة الوطنية . كان اهتمام القيادة السياسية واهتمام المؤسسات الدستورية والسياسية والنقابات المهنية بوأد هذه الفتنة في مهدها حتى تسود المحبة بين كل عناصر هذه الأمة وحتى لا تلحقنا مثل تلك المحاولات عن الكفاح والنضال .

فلقد طلب السيد الرئيس أنور السادات إلى مجلس الشعب تشكيل لجنة برلمانية خاصة للتحقيق في ذلك . لتقصي الحقيقة ولكي تضع أمام الشعب الرأى المحايد والنزيه الذى على أساسه تتخذ القيادة الوطنية قرارها .

كما استنكر الكتاب والصحفيون المصريون محاولات تنفيذ الوحدة الوطنية المصرية عن طريق إثارة الفتنة الطائفية .

وفيما يلي نعرض التبعات التي أديع من نقابة الصحفيين في هذا الصدد بتاريخ

١٩٧٣ : ١٩٧٣

١ - إننا نعتبر هذه المحاولات بوصفها تخريباً لا قوى دعامية قام عليها المجتمع المصري عبر المصنوع والحضارات الأنثوية اتحاد أبناء مصر على اختلاف طوائفهم في أزمنة الشدة والرعاة وفي أزمنة الحرب والسلام وفي كل زمان كان فيه لمصر كيان . في ظل أسمى مبدأ قدسه المصريون وهو أن الدين لله والوطن للجميع .

٢ - ندين محاولات إثارة الفتنة الطائفية بوصفها من أعمال الخيانة الوطنية ومن وحي تخطيطها لنسف كيان مصر القوي . ولشل قدرات مصر على مواجهة العدو الإسرائيلي والامبريالية العالمية . ولتفكيك الشعب المصري إلى شيع متخلفة يشغلها التناحر الداخلي عن معركة التحرير الوطني وإظهار المصريين أمام الرأي العام العالمي في صورة الأمة المتخلفة .

٣ - نعلن قلقنا العميق لوجود بعض مظاهر التعصب الديني في الفترة الأخيرة وهي مظاهر ينفيها المجتمع كله ونعدها استكسالات ظاهرة تخريب ثروتنا القومية بسلسلة الحرائق المتوالية التي بدأت بحرائق الإوبرا وقبر الجوهرة وامتدت إلى بعض المؤسسات والشركات العامة .

ونذكر المواطنين أن حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ قد سبقه حريق كنيسة السويس حين بلغ الكفاح الوطني أقصى مدله ضد الإحتلال البريطاني بقصد إجهاض الحركة الوطنية . كما نذكرهم بأن إثارة الفتنة الطائفية كانت دائماً السلاح التقليدي الذي يلجأ إليه الاستعمار لضرب الحركات الوطنية .

وقد كان الأزهر الشريف والكنيسة المصرية طليعة الكفاح الوطني التي أحبطت مخططات الاستعمار لإثارة الفتنة الطائفية أيام مؤتمر أسبوط عام ١٩١١ ومؤتمر القاهرة عام ١٩٢٢ وإبان ثورة ١٩١٩ .

٤ - ونحن نؤكد أن رسالة الإسلام والمسيحية رسالتان تساهما في وحدة وسلام جرائنا يدينان التعصب الديني المقيت .

ونحن نناشد الأجهزة الدينية والإعلامية والثقافية والتربوية أن تنعجه إلى أهمية

الوحدة الوطنية وبالتالي أكد على قيم التسامح والمحبة والاسخنة في ضمير الشعب المصرى -
٥ - نأشد أجزءة السلطة والتنظيم السياسى والهيئات الشعبية والجاهية-
مزيدا من اليقظة والحزم فى مواجهة عملاء الاستعمار والصهيونية الذين يذكوه
نار الفتنة الطائفية لتفتيت وحدتنا الطائفية لتخريب معركة المصير . ونهيب برجاله
الذين قبل أى فتنة أخرى أن يبشوا روح التسامح والمحبة فى قلوب الجماهير التى تعتمد
عليهم فى شئوننا الروحية .

٦ - إن الكتاب والصحفيين لعل ثقة من أن الشعب المصرى العظيم الذى
أثبت على امتداد تاريخه المجيد وبقرة حضارته العريقة صلابة تمسكه وسلامة نظراته-
وعنى إدراكه للأمور فقلبه إلى مخطط الاستعمار والصهيونية لإثارة الفتنة
الطائفية فى مصر .

٧ - إن رصاص العدو الاسرائيلى ورصاص المستعمرين لا يفرق بين صدر مسلم
وصدر مسيحى من أبناء مصر وإنما يستهدف قلب مصر كلها .

٨ - إننا نعلن أن قضيتنا الأساسية هى قضية التحرير الوطنى وأن كل الجهود
يجب أن توجه لهذه القضية وحدها .

عاشت مصر وحدة حرة قوية : وعاشت الشعب المصرى العظيم موحد الفكر
والعقل والضمير .

كما أذان أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة محاولات الاستعمار والصهيونية
فى إثارة الفتنة بين عنصرى الأمة المسلمين والمسيحيين وأكدوا فى بيانهم إلى الشعب
أن الوحدة الوطنية حقيقة تاريخية يعتز بها شعب مصر ويحرص عليها ، وأن
الاديان كلها تدعو إلى التآخى والتسامح .

وفما يل نص البيان الذى أذيع من جامعة القاهرة بهذا الصدد بتاريخ .

١٦ نوفمبر سنة ١٩٧٢ :

١٦ - اجتمع ممثلوا هيئة التدريس بجامعة القاهرة ، وهم الحريصون على الوحدة
الوطنية لعنصرى الأمة : المسلمين والمسيحيين ليتدارسوا المحاولات التى يقوم
بها الاستعمار والصهيونية وعملاؤها فى هذه الظروف الدقيقة بنية النيل من هذه الوحدة .

وبعد استعراض المحاولات المذكورة رأيت أعضاء هيئة التدريس أن يسجلوا
الحقائق التالية :

أن أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة يعبرون عن ارتياحهم العميق
لأن كل محاولات التوسيع والوقعة التي حدثت لتفتت الوحدة الوطنية قد جاءت
بالعشوائية وتجحمت هذه الوحدة الوطنية بفضل يقظة الشعب مسلمين ومسيحيين -
وحرصه على مصلحة الوطن العليا .

— إن الوحدة الوطنية في مصر حقيقة تاريخية يعتز بها شعب مصر العريق ويحرص
عليها وإنها صمدت عبر العصور الطويلة على الرغم من المحاولات التي قام بها
أعداؤها للنيل منها ، فكانت الصخرة الصلبة التي تحملت عليها آمال الاستمرار
ومؤامراته ، ولست أحداث ثورة ١٩١٩ بعيدة عن الأذهان حينما ضرب
الشعب المصري ، المسلمون والمسيحيون ، مثلاً رائداً في الحفاظ على وحدته
الوطنية ، وحينما اتخذ شعاره من الهلال والصليب ، لقد عاش الشعب المصري
تاريخه الطويل بعنصريه : المسلمين والمسيحيين ، متأخياً متأخياً ، متحداً متأسكاً ،
يضع مصلحة الوطن العليا فوق كل اعتبار .

— إن أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة ، وهم على وعى بمصدر هذه
المحاولات التخريبية ، يدنون كل محاولة داعية إلى الفتنة ويجدون فيها وقوعاً
في شرك الاستمرار والصهيونية وخيانة للوطن يجب التيقظ لها ومقابلتها بكل حزم .
— إن الأيام التي يمر بها الوطن أيام دقيقة وحاسمة تجعلنا أحوج ما نكون
إلى التماسك والوحدة لمواجهة عدو لا يفرق عدوانه بين مسلم ومسيحي ولا تفرقه
قنابله بين مسلم ومسيحي وهو ما يحتم علينا ألا يكون هناك فرق في مواجهته
بين مسلم ومسيحي .

— إن الأديان السماوية كلها تدعو إلى التأخي والتسامح ، إلى التعاون
والتماسك . والذين يستجيبون لدواعي الفرقة والفتنة يخرجون على تعاليمها السمحة .
ويقترون لقيمها .

انقف وقفة الجماعة ولتكن يد الله مع الجماعة وليكن الدين لله والوطن للجميع .

الطلاب ودورهم في تعزيز الوحدة الوطنية :

نظراً لأن الطلاب في مصر هم طليعة جيل الثورة ، الذين يتحملون مسئولية حراسة مسيرتها ، أيا كانت الصعاب والمشاق التي تعترض طريق اطراد تقدمها . فإن عليهم أن يدركوا أنهم ليسوا قوة مستقلة عن قوى الشعب بل هم أبناء قوى الشعب العاملة ، يجسدون في حركتهم تطلعاتها ووعدها ، وينبغي أن يكونوا حراساً عليها ، ذلك أنه لا بديل اليوم للوحدة الوطنية غير تفريق الصفوف والضياع . وليس من سبيل لدعم هذه الوحدة وتعزيزها إلا بتحقيق المزج الضروري بين معنى الحرية ومعنى النظام ، ذلك أن الانفصال بينهما هو الخطوة الأولى على طريق الفوضى وبالتالي العقم والجود .

ولذلك فإن الطلاب ووطنيتهم فوق كل الشبهات ، يجب أن ينتبهوا لكل مخطط مدسوس على صفوفهم حتى لا يسجل التاريخ أن فئة من الشباب قد أساءت عن غير قصد لأممتها ، أو أن فئة قليلة منهم قد مارست إرهاباً فكرياً للخدمة مخططات خارجية .

ففضية تحرير الأرض العربية المحتلة على حد تعبير السيد الرئيس محمد أنور السادات : هي التزامنا الأسامي ، وعلينا وفي ميدياها .. يجب أن تنجح كل الأعمال بل بكل الأنوايا .

لا طريق غير استرداد الحق بالقوة . . . إن قواتنا المسلحة لا يمكن أن تؤدي دورها إلا إذا كانت هناك — قبل السلاح — جهة داخلية متماسكة وصالبة تؤمن بهدفها . . وتعرف طريقها لتحقيقه مهما كانت التكاليف .

خاتمة

تمت مصر طوال تاريخها الطويل - رغم الوسائل والمحاولات التي استهدفت المساس بالوحدة الوطنية - بوحدة وطنية كبرى كانت هي روح صمودها من أجل الحق ومنبع إثارها عبر التاريخ .

ولعل ذلك يرجع كما سبق أن رأينا لتمييزها بطابع قوى يتسم بسمات فريدة ، تعطيها القدرة على الصمود : من الصبر والمطاء الكريم والطاعة وحب الجماعة والأسرة والاعتدال والتوازن - طابع تفرد بسماته عن باقي الشعوب وتقف به قوة في معترك الحياة ، وهي تتأصل حقائق التقدم واسترداد الحق المكتسب .

إن مصدر القوة في مصر اليوم وهي تواجه معركة المصير مع العدو الاسرائيلي وكل عنصر من عناصر قوتها معرض للمهجوم . هو الوحدة الوطنية النابعة من طابعها القوي الاصيل . فهي إذا بقيت متماسكة وبقي نسيجها الوطني ومقوماتها ثابتة . استطاعت امتصاص الهزائم وتخطيها واسترداد الحق السليب . وتحقيق الاهداف والآمال التي نطمح إليها .

إن الأمة التي تفقد وحدتها الوطنية تكون قد فقدت كل شيء لأنها تكون قد فقدت الأساس الذي تقوم عليه سائر المقومات القومية من سياسية . واقتصادية . واجتماعية . وفكرية ... الخ

وليس من المصلحة القومية في مصر . . ولا في المنطقة العربية كلها أن تتشرذم وهي تواجه العدو الصهيوني إلى كيانات مختلفة من مسيحية ومسلمة أو عربية وسنية وشيعية ، أو عربية وكردية . . إلخ إن هذا يجعل وجود دولة يهودية خالصة أمراً منطقياً .

إن الانسجام الوطني ، مظهر الولاء الوطني ، مصدر القوة - هو مسئولية يراها هذا الشعب المؤمن بوحدته الوطنية .

وإذا كان المتعصبون موجودين ولو كافرين في كل زمان ومكان . والبسطاء
الذين ينقادون إلى مواقع الاستفزاز ، فإن المسؤولية تقع في ذلك على الذين هم
في مراكز السلطة والمسئولية والصدارة دينيا ، وسياسيا وفكريا
واجتماعيا . أن يفتشوا قسما من الوعي والتسامح وسعة الأفق والاستنكار
لأي تعصب .

وما أخرجنا اليوم لأن نظل وحدتنا الوطنية ذات نسيج قوى متماسك ، كما
كانت عليه عبر التاريخ . . . حتى نستطيع أن نعمل بكل قوانا على دعم الجبهة الداخلية
والتصدي للحرب النفسية والاعداد الشامل للمركة المصير .

مراجع ومصادر الكتاب

أولاً : مذكرات :

- ١ — أحمد لطفي السيد : قصة حياتي العدد ١٢١ من كتاب الهلال .
- ٢ — إسماعيل صدقي : مذكرات القاهرة دار الهلال ١٩٥٠ .
- ٣ — سعد زغلول : مذكرات منشورة في جريدة الأخبار ١٩٦٣ .
- ٤ — عبد الرحمن الرافعي : مذكرات القاهرة دار الهلال ١٩٥٢ .
- ٥ — عبد الفتاح عنایت : كفاح الانجليز .
- ٦ — عمر طوسون : مذكّرة بما صدرنا منذ فجر الحركة الوطنية ١٩١٨ — ١٩٢٨ الإسكندرية ١٩٤٢ .
- ٧ — محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية الجزء الأول ١٩١٢ .
- ٨ — محمود عزمي : الأيام المائة — القاهرة مطبعة النهضة .
- ٩ — محمد أبو الفتح : مع الوفد المصري — القاهرة ١٩٢٠ .

ثانياً : دراسات :

(١) تراجم

- ١ — عباس محمود العقاد : سعد زغلول .

(ب) دراسات تاريخية :

- ١١ — أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية — الحولية الأولى .
- ١٢ — د د : مذكراتي في نصف قرن .
- ١٣ — د د : أعمال بعد مذكراتي .
- ١٤ — عبد الرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ .

- ١٥ — عبد العزيز رفاعي : انتصار مصر في رشيد .
 ١٦ — د د : العمال والحركة القومية في مصر الحديثة .
 ١٧ — د د : الطابع القوي للشخصية المصرية .
 ١٨ — محمد أنيس : دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ .
 ١٩ — محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .

(ج) دراسات سياسية :

- ٢٠ — المعهد العالي للدراسات الاشتراكية : مجموعة محاضرات التنظيمات السياسية والجمهورية ١٩٦٦ .
 ٢١ — هيئة الاستعلامات : برنامج العمل الوطني المقدم من السيد الرئيس أنور السادات إلى المؤتمر القومي العام الثاني في دورة انعقاده الأول ٢٣ يوليو ١٩٧١ .
 ٢٢ — هيئة الاستعلامات : خطاب السيد الرئيس أنور السادات في الدورة الثانية للمؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي العربي وقرارات المؤتمر في المدة من ٢٣ يوليو ٧٢ — ٢٦ يوليو ١٩٧٢ .
 ٢٣ — اللجنة المركزية - الاتحاد الاشتراكي العربي : مشروع دليل العمل السياسي والفكري والتنظيمي (عشرون عاماً من الثورة - يوليو ١٩٧٢)
 ٢٤ — اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي : تقرير الأمانة العامة للنهى أقرته اللجنة المركزية بشأن تطوير أسلوب العمل في الاتحاد الاشتراكي يوليو ١٩٧٢ .

(د) دراسات في الحرب النفسية :

- ٢٥ — جولدون دليوبوستان : سيكولوجية الإشاعة : ترجمة صلاح عخير ١٩٦٤ .

- ٢٦ - لواء / إسماعيل الرحيم عجّاج دور الحسب النفسية في المعركة
القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٧ - عقيد / جمال الميّد أضواء على الحرب النفسية : المكتبة
الثقافية العدد (٢٨٣) ١٩٧٢
- ٢٨ - محمد طلعت عيسى الشائعات وكيف نواجهها القاهرة ١٩٦٤ .
- د : دراسات في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢
- ٢٩ - الميّد الرئيس / محمد أنور السادات : صفحات بمحوه : سلسلة كتب
لجميع - دار التحرير للطبع
والنشر المطبعة المألية ١٩٥٤
- ٣٠ - قصة الثورة كاملة : سلسلة كتب
قومية - الدار القومية للطباعة
والنشر .
- ٣١ - يا ولدى هذا عمك جمال
(مذكرات أنور السادات)
كتب قومية - الدار القومية
للطباعة والنشر ١٩٩٥
- ٣٢ - القاعدة الشعبية : سلسلة كتب
قومية - ١٩٥٩
- ٣٣ - قصة الوحدة العربية - كتاب
الحلال العدد (٨١)

ثالثاً : صحف :

الوقائع المصرية عام ١٩١٤ .

المقطم - والأهرام : ١٩١٩ - ١٩٢٢

الأخبار أغسطس عام ١٩٦٣ . سبتمبر ١٩٦٣ .

الأهرام من ٢٤ يوليو ١٩٧٢ إلى ١٢/٣١/١٩٧٢ .

٢١٣

(١٤ - الوحدة الوطنية)

محتويات الكتاب

صفحة

- تقديم الكتاب بقلم السيد المهندس / سيد مرعى الأمين الأول للجنة المركزية ٢
— مقدمة المؤلف ٥

القسم الأول

للاستاذ الدكتور عبد العزيز رفاعى

- الباب الأول : الوحدة الوطنية في مقاومة الغزاة ٩
الفصل الأول : الوحدة الوطنية في مقاومة الهكسوس ١٠
الفصل الثانى : التماسك والصمود في مقاومة الرومان والبطالمة ١٢
الفصل الثالث : الوحدة الوطنية في مقاومة الصليبيين ٢٤
الفصل الرابع : الصمود في مقاومة الحملة الفرنسسية على مصر ٣٠
الفصل الخامس : التماسك في مقاومة الانجليز في رشيد ٣٦
الفصل السادس : الوطنية المصرية وثورة عرابي في مقاومة الانجليز ٦٦
الفصل السابع : الوحدة الوطنية في ثورة الشعب سنة ١٩١٩ ٨٢

الباب الثانى : أسالة الطابع الوطنى في الشخصية المصرية ١٠٨
الفصل الأول : الوحدة الوطنية لإحدى سمات الشخصية المصرية ١١٠
الفصل الثانى : الطابع الوطنى المصرى بين طوابع الشعوب ١١٤

القسم الثاني

للاستاذ حسين عبد الواحد الشاعر

- الباب الثالث : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والوحدة الوطنية ١٢٠
- الفصل الأول : انطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نهاية مد قومي ١٣١
- الفصل الثاني : الوحدة الوطنية وتصفية الاستعمار ١٢٤
- الفصل الثالث : الوحدة الوطنية في مصر وعدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ ١٣٥
- الفصل الرابع : ثورة ٢٣ يوليو ومتطلبات الوحدة الوطنية ١٣٨
- الباب الرابع : حماية الوحدة الوطنية المصرية ١٧٣
- الفصل الأول : الحرب النفسية ودورها في زعزعة الوحدة الوطنية ١٧٥
- الفصل الثاني : مهام واجبات الشعب في دعم الوحدة الوطنية ١٨٣
- الفصل الثالث : المؤسسات السياسية والجهادية وحماية الوحدة الوطنية ١٩١
- الخاتمة ٢٠٩
- مصادر ومراجع الكتاب . ٢١١
- الفهرست ٢١٤

لإيداع رقم ١٧٤٢ / ١٩٧٣

مطبعة
أحمد علي محسن
٢٩ شارع أبيهش تليفون ٩٠١١٩٢

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الحالق شروت - القاهرة